موسكو تعرف الدموع

أحمد الخميسي

القاهرة - نوفمبر 1991
كتاب الأهالي – العدد 37

مقدمة بقلم :
حسين عبد الرازق

لبست نهاية التاريخ

في ديسمبر 1985 كنت في طريقي إلي أفغانستان عبر موسكو وقضيت في العاصمة السوفيتية في الذهاب والعودة، وكان هذا أول احتكاك مباشر لي بالمجتمع السوفيتي، وبالجديد الذي يولد فيه تحت قيادة الأمين العام الجديد للحزب الشيوعي السوفيتي "جورباتشوف" 00 وعرفه العالم بالكلمات الروسية 00 البيرسترويكا – الجلاسنوست – التفكير السياسي الجديد0

لم تكن معالم هذا الجديد قد تبلورت بصورة واضحة 0 فقرارات اللجنة المركزية في أبريل 1985 – بعد شهر من انتخاب جورباتشوف أمينا عاما للحزب – والتي تعد بداية لإعادة البناء، اكتفت بوضع إطار عام للتغيير0 وفي الواقع العملي لم يكن هناك جديد فعلي بعد 0

ورغم محاولتي متابعة ما يجري في "موسكو" هن خلال الصحافة الغربية، وبعض الأدبيات السوفيتية المكتوبة بالعربية والانجليزية والتي كانت تصلني في القاهرة00 إلا أن ما شاهدته خلال عام 1987 عبر ثلاث زيارات متقاربة قمت بها للاتحاد السوفيتي في ذلك العام (مايو يوليو – أكتوبر) وزرت خلالها موسكو ولينينجراد وتالن (عاصمة إستونيا) ويالتا، والتقيت بعدد كبير من المسئولين في الحزب الشيوعي السوفيتي والدولة، وحضرت الندوة العالمية التي شارك فيها 128 حزبا شيوعيا وتقدميا واشتراكيا ديمقراطيا وأحزاب الخضر في قارات العالم الخمس وأدار جلساتها يومي (4 و5 نوفمبر 1987) "جورباتشوف" بنفسه وكنت أحد المشاركين فيها

مع المرحوم الدكتور فؤاد مرسيممثلين لحزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي00 وأيضا التقيت بالعديد من المواطنين السوفييت العاديين، في حدود ما سمح به جهلي باللغة الروسية00

كان ما شاهدته في هذا العام 1987 شاهدا علي سرعة التطور المذهلة للأحداث في الاتحاد السوفيتي خلال عامين، ومؤشرا علي أن البيرسترويكا والجلاسنوست أصبحتا أمرا واقعا، يعيد رسم الحياة من جديد في الاتحاد السوفيتي 0

ولا انكر أنني أحسست بالسعادة، فها هي ثورة أكتوبر الاشتراكية، تنفض عن نفسها – بعد 70 عاما – كل مظاهر الخمول والجمود، وأخطاء وخطايا المرحلة الستالينية، وتحاول بإصرار استعادة جانبها الديمقراطي، وصحيح المفاهيم النظرية والممارسات العملية، التي أساءت إي الاشتراكية وللحزب وللمجتمع السوفيتي.

ولم تفلح بعض المظاهر السلبية البارزة – خاصة بين الشباب – وإفتتانهم بكل ما هو غربي وأمريكي، وبدء وبدء إنتشار تعاطي المخدرات وممارسة الدعارة، وظهور عصابات للسرقة والنهب بالعنف المسلح، وافتقاد الأمن في بعض المناطق، والصدام بين القوميات، والكتابات المعادية للشيوعية ولتاريخ الثورة الاشتراكية، وأقلام بعض كبار المسئولين في الدولة والحزب، وما حكاه لنا بعض الاصدقاء المصريين والعرب عن النفوذ الصهيوني في الاعلام وفي وزارة الخارجية وما قدموه من أدلة تؤكد قولهم.. لم تفلح كل هذه الظواهر وغيرها في إفساد إحساسي بالسعادة، بإعتبارها ظواهر مرضية لابد أن تصاحب عملية تغيير ثوري بهذا المدي والاتساع.

كان جورباتشوف يعرف البيرسترويكا بقوله : "إن فكرة عملية التغيير تستند علي تاريخنا السبعيني، إلي الأساس المتين للصرح الاجتماعي الجديد مبدئيا المبني في البلاد السوفيتية، وتوحد بين التعاقب والتجديد، بين التجربة التاريخية للبلشفية والواقع الرهن للإشتراكية..

إننا نسير بطريق ثوري.. وهدف عملية التغيير هو الاستعادة النظرية والعملية التامة لمذهب الاشتراكية اللينيني الذي تعود فيه الاولوية. التي لا يرقي إليها الشك، إلي إنسان العمل مع مثله العليا ومصالحه، إلي القيم الانسانية ف يالاقتصاد والعلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية.. لقد إبتعدنا في أكتوبر عام 1917 عن العالم القديم، نبذناه إلي الأبد، وها نحن نسيرنحو العالم الجديد عالم الشيوعية. ولن نحيد عن هذا الطريق أبدا.." .

وكان في استطاعة أي مراقب أو دارس للاتحاد السوفيتي في ذلك الحين – عام 1987 – أن يلحظ أن عملية إعادة البناء، والاتجاه إلي والتغيير كان يعني مجموعة من الأشياء الأساسية المتكاملة مثل :

- **رؤية نقدية للفكر والتطبيق الاشتراكيين خلال السبعين عاما الماضية، بدء من لينين ومرورا بستالين وبريجنيف.. تتضمن إدانة للنظرة الخاطئة للماركسية اللينينية، التي اعتبرت النظرية مجموعة من الوصفاتالجاهزة والتوصيات الجامدة، ودعوة ترفض الجمود والدجماتية وضيق الأفق، وتوفير التفاعل النشيط بين الفكر النظري المتجدد دائما والممارسة والنضال الثوري والتصدي للمظاهر الاجتماعية الخاطئة.**
- **تغيير نظام ادارة الاقتصاد (الاشتراكي) بما في ذلك التخطيط المركزيومشاكله، ونظام الأسعار والأجوروالملكية "للقضاء علي تغريب الإنسان عن الملكية" .**
- **تحقيق الديمقراطية بدءا بالعلانية (الجلاسنوست) وإعادة الروح للمجالس المنتخبة "السوفييتات" وإعادة طرح شعار لينين "كل السلطة للسوفييتات" وإقامة نظام سياسي وقضائي وحزبي جديد وديمقراطي.**
- **تصحيح العلاقات القومية .**

- **التفكير السياسي الجديد في العلاقات الدولية .**
- **حل المشاكل الاقليمية بالطرق السلمية .**

****

كان طرح اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي للبيرسترويكا وإعادة البناء، زمزاصلة تطويرها، أمرا منطقيا يستند إلي حقائق هامة في المجتمع السوفيتي من أبرزها :

- **نشوء نظام معادي للديمقراطية في المجتمع السوفيتي، خلال فترة النضال ضد مقاومة الطبقات الاستغلالية وحروب التدخل. ونقل هذا النظام – خلال حكم ستالين – إلي فترة البناء الاشتراكي.**
- **وتحولت النظرية في ظل هذا النظام إلي مجموعة من الوصفات الجاهزة والمقولات "الكنسية" التي أخذت شكل التقديس.. وسقط الحزب في هاوية عبادة الفرد وإنتهاك الشرعية. والتنكيل بالمخالفين في الرأي وتحريم النقد. وقامت العناصر البيرقراطية التي سيطرت علي الحزب والدولة، بحذف روح المناقشة الحية والفكر المبدع في النظرية والعلوم الاجتماعية. وأصبحت قرارات وأفكار الفرد حقائق لا تقبل الجدل.**
- **واجه الاقتصاد السوفيتي في السبعينيات أزمة شاملة أخذت تتعمق بصورة خطيرة . وتمثلت هذه الأزمة في التخلف التقني والكيفي وإنخفاض نسب النمو واللجوء إلي بيع الموارد النافة (النفط والوقود والطاقة والخدمات)في الأسواق العالمية، والنقص في كثير من المواد الأساسية والمواد الاستهلاكية، والنقص في الأيدي العاملة، وزيادة الأسعار، ونشوء السوق السوداءأو**

(السوق الموازية)، وعدم تقبل الاقتصاد الوطني الجديد، وانخفاض انتاجية العمل.. الخ.

- إرتبطت أزمة غياب الديمقراطية والأزمة الاقتصادية ، بأزمة إجتماعية طاحنة، أشار جورباتشوف إلي بعض مظاهرها .. مثل "تحول الملكية الاشتراكيةإلي نوع من الملكية المجانية ليس لها مالك فعلي، واستغلت لجباية الدخل غير المشروع".. "ونمت أمزجة العيش عالة علي جهد الأخرين، وأخذت تترسخ في وعي الناس نفسية المساواة حسب مبدأ الأواني المستطرقة".. "إنتشارمظاهر فظاظة الخلق والارتياب، وانحطاط دور حوافز العمل المعنوي. ونمت شريحة من الناس – وبالذات بين أوساط الشباب – تحصر هدف الحياة بالنسبة لها في اليسر المادي والكسب بشتي السبل والوسائل... وموجة من النزوع الاستهلاكي".." نمو ظاهرة السكر وتعاطي المخدرات وتنامي الاجرام، والاستخفاف بالقوانين."
- التطور الطبقي، والتطور الديموجرافي والثقافي، ونمو الفئات المثقفةوالعلماء والخبراء والمجتمع الحضري. واصطدم هذا النمو والتطور بالأزمة الاقتصادية وإنخفاض مستويات المعيشة، وغياب الديمقراطية. وكما تقول عالمة اقتصاد سوفيتية .. "كانت هناك زيادة لم تنقطع في مستوي التعليم.. وتعلم الناس كما ينبغي أن تكون الاشتراكية.. وهم الآن يريدونها كما تعلموها".
- التأثير السلبي للصراع الدولي والحرب الباردة علي البناء الاشتراكي. فإضطرار الاتحاد السوفيتي إلي توجيه الجزء الأكبر من دخله للاستعدادات العسكرية، التي تقدمت بالفعل علي حساب الصناعات المدنية، كما خصص جزءا

هاما لدعم حركات التحرر الوطني ودول أوروبا الشرقية (الاشتراكية).

- تعقد مشكلة القوميات في الاتحاد السوفيتي . كانت البيرسترويكا في ضوء هذه الحقائق وممارسات وأفكار السنوات الثلاثة الأولي من إعادة البناء "1985 – 1988"، تبدو المخرج والأمل لتجديد التجربة السوفيتية وإعادة الألق لأول تجربة إشتراكية في العالم .

ولكن التطورات التي عاشها الاتحاد السوفيتي في الأعوام الثلاثة الأخيرة، حملت علامات النهاية للبيرسترويكا، كما طرحت في البداية، وكما نظرنا إليها كثورة لتجديد الاشتراكية وتقدمها .

****

ومنذ مارس 1990 – ومع صدور أول عدد من مجلة "اليسار" – ورسالة موسكو التي يكتبها الصديق أحمد الخميسي في علي صفحاتها، تقدم للقارئ المصري والعربي ، رؤية ثاقبة وواقعية لما يجري في وطن الاشتراكية الأول، بدقة بالغة، وجهد خارق كل ما يجري في المجتمع السوفيتي ، علي السطح وفي العمق. ووضع يده مبكرا علي التحولات التي تجري، وتنبأ بالاتجاهات الجديدة التي تسود المجتمع وتحاول دفعه إلي التحول إلي الرأسمالية . ساعده علي ذلك، اقامة ممتدة في العاصمة السوفيتية التي يقيم بها منذ عام 1972 ، ومعرفته اللغة الروسية، وصلاته الواسعة بالدوائر السوفيتية الرسمية والشعبية، وثقافته العمية، وضميره اليقظ، واخلاصه لقضية الاشتراكية: وقد يختلف البعض مع رؤيته وتحليله كله، أو في بعض موضوعاته، ولكن لا يملك أي إنسان مهتم بشئون الاتحاد السوفيتي أو دارس لأوضاعه، إلا الاعتراف بأن هذه الرسائل تكاد تكون أهم

المصادر الأساسية باللغة العربية – ولا أريد أن أقول المصدر الأساسي – لفهم ما يجري في الاتحاد السوفيتي.

وقد حاول كثيرون طوال الأشهر العشرين الماضية أن يثنوا "اليسار" عن مواصلة نشر هذه الرسائل بحجج مختلفة.. مرة بمقولة أنها تشيع الإحباط.. ومرة بحجة أنها لا تقول كل الحقيقة.. وأخري بمقولة أنها أحادية الجانب... و ...و .. ولكن "اليسار" تمسكت بنشر"أحمد الخميسي".. فمعرفة الناس بالحقيقة كاملة –مهما بدت جارحة ومحبطة – بالأضافة إلي أنها حق أساسي لهم. فهي الطريق الوحيد للفهم واستخلاص الدروس الصحيحة.

وإقدام "كتاب الأهالي" علي جمع هذه الرسائل في هذا الكتاب، عمل صحيح بكل المقاييس فقراءة هذه الموضوعات معا – أو إعادة قراءتها – يقدم للقارئ الغربي أو في دراسة لما يجري في الاتحاد السوفيتي الآن، بداية من تجربة البيرسترويكا إلي في الاتحاد السوفيتي الآن، بداية من تجربة البيرسترويكا إلي نقلاب 19 أغسطس 1991 إلي نهاية البيرسترويكا .

إن الصراع الذي يدور في المجتمع السوفيتي، ورغم الانتصار الكاسحلليمين الذي أدار ظهره لتاريخ الشعب السوفيتي وثورة أكتوبر وللأشتراكية وللشيوعية، وعلي قمته قادة كانوا حتي أمس القريبفي قيادة الحزب الشيوعي السوفيتي ولكنهم ألقوا بتاريخهم كله خلفهم.. هذا الإنتصار ليس نهاية التجربة وليس نهاية التاريخ.

فمازال هناك في الاتحاد السوفيتي هلايين الشيوعيين. ومازال هناك عشرات الملايين من العمال والفلاحين والمثقفين السوفييت الذين ثاروا ضد الدكتاتورية والقهر والحزب الواحدوتلويث الاشتراكية واستغلال البيروقراطية.. يرفضون التحول إلي الرأسمالية والتبعية للولايات المتحدة الأمريكية والحلم الأمريكي ويرفضون مقولة أن الديمقراطية لا تتحقق إلا في ظل

الرأسمالية، ويصرون علي تحقيق الاشتراكية والديمقراطية معا...

وربما لهذا السبب اختار كتاب الأهالي لرسائل "الخميسي" عنوان "موسكو تعرف الدموع" مستوحيا عنوان الفيلم السوفيتي الشهير "موسكو لا تعرف الدموع" تعبيرا عن الواقع الذي ترصده، لكن الصراع مازال مستمرا.. والمعركة لم تنته.. وعندما غاب الحزب وعجز عن التصدي للدفاع عن متحف لينين الذي قرر حكام موسكو الجدد تحويله لأغراض أخري .. "وقف الفقراء في سلسلة بشرية أحاطة بالمبني دفاعا عنه".

إن "لينين" يعود ثانية إلي ناسه الحقيقيين. إلي الشيوعيين الأوائل الحقيقيين.. الذين يتقدمون الصفوف عندما تطلب التضحية والفداء والبذل دفاعا عن الوطن وناسه.. ويتأخرون عندما يدور الصراع حول المغانم والمكاسب. وحتي لو خسر فقراء الاتحاد السوفيتي المعركة.. فإن الاشتراكية لن تخسر معركتها ! وسيتحقق الانتصار مرة أخري.. هنا أو هناك.. ولن تكون الرأسمالية أبدا بكل استغلالها وقهرها.. هي نهاية التاريخ .

حسين عبد الرازق

(1)

ما الذي تبقي
للحزب الشيوعي السوفيتي ؟

يشبه المراقب لما يجر ي في الاتحاد السوفيتي حالة رجل في غؤفة شب فيها حريق كبير، فهو إن انقذ شيئا

أضاع شيئا أخر. وإن لاحق تطورات الصراع القومي، فقد خيوط تطورات الصراع السياسي والحزبي. وقد شغل وجود التجربة الاشتراكيةأكثر من ثلثي القرن العشرين، وقد تضيع منها تفاصيل كثيرة، لكن الذاكرة البشريةستستبقي كلمتين أثنتين، الأولي "البيان الشيوعي" عام 1848 ، بإعتبارها اشارة لبدء الصراع، والثانية هي "البيرسترويكا" عام 1985 بإعتبارها إشارة لفك الاشتباك. وقد جرت تلك العملية علي الصعيد العسكري، والاقتصادي والسياسي .

وظلت تلك التغييرات مستغربة، ما لم يلمح الانسان القوة الضاغطة التي تختفي ودائها أي : حقيقة الأوضاع الاقتصادية المتدهورة التي تم إخفاؤها بإحكام لزمن طويل.

وعلي سبيل المثال – وكل ما سيرد من أرقام مأخوذ من الصحف السوفيتية – فإن هناك أكثر من أربعين مليون مواطن يعيشون تحت حافة الفقر، وأغلبهم من رجال المعاشاتالذين يتقاضون أربعين روبل شهريا وهو معاش لا يكفي لشراء فردة حذاء واحدة، وبينما يصل العجز في الميزانية السوفيتية إلي ستين مليار روبل، فإن حجم رؤوس الأموال التي تشتغل في السوق السوداء يبلغ مائة وخمسين مليار روبل !. ويعمل في هذه السوق مليون مواطن، أي بلد بأكملها بتعداد سكان مصر. ويصل عند زعماء السوق السوداء إلي أكثر من ثلاثين الف مليونيرا، لكل منهم حرسه الخاص، ورجاله في مختلف مستويات السلطة.

وإذا لم ندرك أن الوضع الاقتصادي هو مفتاح أسرار "البيرسترويكا"، فإن هذه السياسة الجديدة ستظل تبدو لنا "خطوة فكرية جريئة" جديرة بالتأمل مقولاتها المختلفة. وقد قطعت "البيرسترويكا" شوطا كبيرا فيما أرادته، فحققت نجاحا واضحا علي صعيدين : الوفاق الدولي، وإشاعة الديمقراطية. أما الأزمة الاقتصادية التي

يطالب عمال المناجم المضربون في ظلها بزيادة قطع الصابون.. فإنها مازالت تبحث عن حلول مختلفة.

ومن الطبيعي أن عملية فك الاشتباك لا يمكن أن تتعايش مع نظرية تقوم علي الدعوة للصراع، بين الدولتين الكبيرتين، والنظامين الاجتماعيين المختلفين: الاشتراكي والرأسمالي. ولذلك شهدت الصحف السوفيتية وأجهزة الاعلام بداية حملة واسعة ومركزة ضد الستالينية لكن الحملة لا تضع الخطوط الفاصلة بين الستالينية وفكرة الاشتراكية. وانطلقت الحملة من الهجوم علي عبادة الفرد إلي الهجوم علي فكرة الاشتراكية. وجدواها مستشهدة بفظائع العهد الستاليني لإدانة الطريق الاشتراكي مجمله ثم أمتدت الحملة مؤخرا إلي لينين وحياته الشخصية وأفكاره، بل وطالت السيرة الشخصية لزوجته !، وإنقلب الكتاب والصحفيون الذين كانوا حتي الأمس القريب يقرأون المقاطع المطولة عن التضامن الأممي إلي طرح الأسئلة التالية "لقد فشلت الشيوعية والاشتراكية فلماذا نتمسك بالشيوعيين ؟. وطالب شاعر معروف مثل "يفتوشنكو" في البرلمان بوقف المساعدات للعالم الثالث، بينما لم تكن قد بردت مساعدات نفس هذا العالم الثالث للمنكوبين في زلزال أرمينيا. وشهد مجلس نواب الشعب الثاني حملة مركزة تدعو لاسقاط المادة السادسة من الدستور السوفيتي، وهي المادة التي تنص علي "الدور القيادي للحزب الشيوعي في المجتمع"..

ومن المفهوم أن يطالب النواب بالتعددية الحزبية، وانشاء أحزاب أخري إلي جانب الحزب الشيوعي، وخاصة أن هناك أكثر من ثلاثة الاف منظمة غير رسمية، ولكن مطلبهم الأساسي قبل التعددية الحزبية كان : اسقاط المادة السادسة أي تنحية الحزب الشيوعي عن السلطة، واسقاط المادة السابعة من الدستوروهي المادة التي تنص علي الدور القيادي للكومسومول بين الشباب، ثم تعديل المادة الواحدة والخمسين التي تنص

علي كيفية إنشاء وتشكيل المنظمات، غير الرسمية. بحيث تنص لا علي حق المواطنين في الانضمام إلي المنظمات، ولكن علي حقهم في تشكيل المنظمات.

وقد جرت عملية تنحية الاحزاب الشيوعية عن السلطة في أطراف المعسكر الاشتراكي أولا، قبل أن تتم في قلبه أي في موسكو وفي الخامس من فبرعقدت اللجنة المركزية للحزب اجتماعها الدوري، للنظر في الوثيقة البرنامجية التي ستعرض علي المؤتمر الثامن والعشرين، وقدم جورباتشوف تقريرا للجنة المركزية أشار فيه للمرة الأولي إلي الموافقة علي : التعدديةالحزبية ، وعرض المادة السادسة من الدستور علي مؤتمر نواب الشعب لحذفها أونقاشها وأعلن أن الوثيقة البرنامجية تتضمن شعار المجتمع السوفيتي الآن وهو "الاشتراكية الإنسانية الديمقراطية"، وهو شعار جديد يختلف عن كل ما سبق.

وفي ذلك الاجتماع قال "يلتسين" أحد زعماء المعارضة البرلمانية : "لقد فقد الحزب اليوم كل تأثير له وكل احترام وسط الشعب بعد أن قاد عشرات الملايين إلي الفقر". وفي نفس الوقت أشار جورباتشوف إلي امكانية انشاء مؤسسة رئاسة علي النمط الأمريكي أو الفرنسي. وقال أن ميثاقا جديدا يجري إعداده ليصبح ميثاق الحزب في ظروف التعددية الحزبية، واقترح إلغاء المكتب السياسي نهائيا. وبذلك يكون الحزب الشيوعي السوفيتي قد نحي عن السلطةفعليا، ليصارع وحده مثله مثل الأحزاب الاخري في الساحة الانتخابية.

وقد أشاد الرئيس الأمريكي بوش بهذه الخطوة في نفس اليوم، وقال أنها تفتح المجال واسعا أمام التطورات الديمقراطية في الاتحاد السوفيتي. فقد ضمت أكثر من مائتي ألف متظاهر غمروا شوارع العاصمة مطالبين بإنهاء إحتكار الحزب الشيوعي للسلطة. وكان التظاهرون يحملون شعارات مثل : "لم يعد للعامل الروسي ما يفقده سوي الفقر والجوع".. وقد مثلت تلك المظاهرة أكبر قوة

ضغط علي اجتماع اللجنة المركزية قبل إنعقاده للاستجابة للمطالب المرفوعة. ومن بينها الشعار الذي حمله المتظاهرون : "فليعد الجهاز الحزبي العشرين مليار روبل التي قرر صرفها لنفسه كعلاوة علي المرتبات" !.

وفي 13 فبراير نشرت الصحف الوثيقة البرنامجية التي ناقشها اجتماع اللجنة المركزية في الخامس من فبراير. وجاء فيها : "تستبعد دولة الشعب الحقوقية دكتاتورية أية طبقة وخاصة السلطة الادارية البيروقراطية" و "لا يدعي الحزب الشيوعيلنفسه الحق في احتكار العمل السياسي، أو الوقوف بمفرده في ساحة العمل السياسي".

ولكن تعديل هذه المواد لا يدخل ضمن صلاحيات اللجنة المركزية، فالمواد : السادسة (الخاصة بالحزب) والسابعة (الكومسومول) والواحدة والخمسين (انشاء المنظمات الاخري) كلها مواد دستورية ويمكن فقط لمؤتمر نواب الشعب أن يعدلها أمر مفروغ منه، اذ أن مؤتمر نواب الشعب قد طالب بذلك مرارا في دورتيه السابقتينن، ومن ثم فإن الدورة القادمة ستحسم هذه القضية لصالح تنحية الحزب الشيوعي السوفيتي بعد سبعين عاما من وجوده في السلطة.

وحينما يترك الحزب مقاعد السلطة سيصبح في موقف لا يحسد عليه. ذلك أن الجماهير قد أطاحة بقيادة الحزب – قبل ذلك بشهرين – في عدة مدن من الاتحاد السوفيتي وفي احدي المدن بسكرتير المدينة الحزبي بعد أن أمسكت سيارته وهي محملة باللحوم والاطعمة التي لا يراها المواطنون، فكانت النتيجة تحطيم السيارة.. وتنحية المسئولين الحزبيين.

والأرجح أن يترك جورباتشوف قيادة الحزب، للجناح الحزبي المتشدد الذي تزعمه "ليجاتشييف" ليجرب الحزب حظه في الحياة من دون دعم الدولة ومقاعدها.

ولكن فرصة الحزب الشيوعي – بعيدا عن السلطة – ستكون ضئيلة، وإمكانيات النجاح ضعيفة. لأن الحزب ليس

لديه ما يقترحه سوي العودة إلي التشدد الذي لا يثمر شيئا، والتمسك باقتصاد الدولة بعد أن أثبت عدم قدرته. أما جورباتشوف والبيرسترويكا فلديهما طريق جديد، لم يجربه الشعب السوفيتي، الذي يعتقد أن العودة إلي "تلك الاشتراكية" أمر مرفوض.. وما بين نواقص "تلك الاشتراكي" و "التقدم إلي المجهول" لا تلوح قوة سياسية قادرة علي طرح وبلورة موقف يستفيد من الماضي لاستكمال تلك المسيرة .

لقد أطاح اجتماع اللجنة المركزية، والوثيقة البرنامجية الجديدة بسلطة الحزب الشيوعي السوفيتي. ولكن ما الذي أطاحت به الوثيقة الجديدة.. وما هي طبيعة هذا الحزب ؟ وممن يتشكل ؟.

لقد ضمت اللجنة المركزية – حتي أبريل 1989 – خمسة عشر عاملا فقط، وسبعة من الفلاحين. فإن خمسمائة منهم هم من المظفين : الوزراء المديرونمن المصانع كبار رجال الجيش الخ. واذا كان نصاب اللجنة المركزية للحزب يتكون من ثلاثمائة وثلاثة عضوا، فإن من بينهم 94 وزيرا ونائب وزير. وهناك 15 نائبا لوزير الدفاع كلهم أعضاء من اللجنة المركزية. ويشكل الأعضاء من وزارة الداخلية ووزارة الدفاع والمخابرات وكبار الأداريين وحوالي ثلثي اللجنة المركزية !

وعلاوة علي ذلك فإن تشكيلة اللجنة تضم مائة وخمسة وثمانين عضوا ممن تجاوزوا سن المعاش. أي أكثر من 61% من اللجنة المركزية،أي ثلثي القيادة عمليا، ولا يزيد عدد الأعضاء الذين تقارب أعمارهم الخمسين عاما عن أحد عشر عضوا !. ويمثلون الجناح الشبابي في القيادة !! وهناك ثلاثة عشر عضوا قابعون في اللجنة المركزية منذ ثلاثة وأربعين عاما ! وسبعة وأربعون عضوا موجودون منذ ثمانية عشر سنة دون تبديل. وهذه بعض المعلومات والأرقام التي نشرتها مجلة "أخبار اللجنة المركزية للحزب" في أعدادها الأول، والثاني، والخامس، والسادس.

وتكتب الصحف دون توقف عن حياة تلك الفئة من القيادة التي تتمتع بعلاج صحي خاص، وأدوية مستوردة ومصحات ومستشفيات خاصة، ومنازل وسيارات ومحلات خاصة تباع فيها بالروبل أفضل الملابس المستوردة الخ. ويشهد الكومسومول ظاهرة مماثلة، حتي أن عدد أعضائه قد انخفض في ظرف خمس سنوات (من 1983 الي 1988) ست مرات وخاصة وسط الشباب من العمال. وقد خرج من هذه المنظمة الشبابية (في موسكو وحدها) 44 ألفا عام 1986 . وعام 1988 بلغ عدد الذين استقالوا من كومسومول مدينة موسكو مائة وثلاثون ألفا! وتشهد الجمهوريات الاخري نفس حالات الانسحاب من الكومسومول.

لقد كانت البيرسترويكا وراء تنحية هذا الحزب عن السلطة.. أما ما الذي تبقي أمامه، فأمر متروك للسنوات القادمة، ستجيب عنه، وستكشف بوضوح إن كان بداخل هذا الحزب قوي قادرة بعد سبعين عاما من اعتياد الصمت علي مواصلة ذلك الطريق الذي حفرته ثورة أكتوبر عام 1917. وهو طريق أطول وأكبر من أن تقطعه تجربة واحدة أو حتي عدة تجارب.

مارس 1990

(2)

سبعون علما يقولون :
لا للصهيونية

سنوات "البيرسترويكا" هي سنوات الاعتراف التي تحدثنا فيها التجربة الاشتراكية عما جري لها، في ذلك البيت البعيد المعزول، الذي خطفت إليه وحبست فيه، فنمت بداخله وقد انطوي صدرها علي أسرارها 0 وهو بيت أحاطت به الأساطير والألغاز والأقاويل 0 مثل بيتا " الجبلاوي" في رواية "أبناء حارتنا" لنجيب محفوظ 0 وقد أخرجت "البيرسترويكا" التجربة الاشتراكية إلي الشارع، لكنها لم ترمم البيت القديم وهي لم تسد النواقص لكنها أشارت اليها، "ولم تشبع حاجات المجتمع لكنها عرتها0

فإن كان لجورباتشوف فضل، فإن كل فضله أنه قد أزاح الستار عن نص قد مزقته الرقابة، ومسرح تجمد تحت أنظار رجال الأمن 0 فالبيرسترويكا هي تعرية الجرح،، لا علاجه وهو جرح يدهشنا كل يوم، بل كل لحظة، بمساحته وحجمه وعمقه ! وأصداء الاضطرابات القومية والاقتصادية تتردد ما بين "جورجيا"، و "أرمينيا" و "أذربيجان" و "مالدافيا" و " طاجكستان"0 وغيرها0

وعلي الرغم من مرور خمس سنوات علي السياسة الجديدة والعلنية، الا اننا لم نسمع شيئا بعد عن مأساة الشعب الروسي، وهو أكبر تلك المآسي 0 ولكن جريدة "ليتيراتورنايا روسيا" قامت مؤخرا – الجمعة 2 مارس – بنشر رسالة مطولة وجهها الكتاب الروس الي مجلس السوفييت الأعلي للانحاد السوفيتي ومجلس السوفييت الأعلي لجمهورية روسيا، واللجنة المركزية للحزب الشيوعي الحاكم0 وقد وقع علي تلك الرسالة أكثر من سبعين أديبا ومفكرا من ألمع الاسماء0 من بينهم "ليونيد ليونوف" الذي زاره جورباتشوف في بيته تكريما له، ومنهم "فالنتين راسبوتين" الروائي المرموق والشاعر

"ستانسيلاف كونيابيف" رئيس تحرير مجلة "الانسان المعاصر" وغيرهم من صفوة الحركة الثقافية الروسية ويؤسفني بصدق ألا أستطيع أن أنقل للقاريء النص الكامل لتلك الرسالة، فهي خطاب مشحون بطاقة من الكبرياء، والغضب يكاد يأبي أن يسكن حروف الكلمات الثابته0 وتفضح تلك الرسالة – وهي الاولي من نوعها – الثقل الصهيوني في الصحافة والاعلام السوفيتي، وتعدد تسع صحف ومجلات بالاسم من بينها أنباء موسكو علاوة علي الاذاعة والتليفزيون 0 وتقول أن كل تلك الأجهزة الاعلامية تشن حملة لم يسبق لها مثيل في تاريخ روسيا0 لمطاردة وملاحقة أبناء الشعب الروسي 0 وتلجأ تلك الصحف إلي إطلاق مختلف النعوت علي الشعب الروسي يوميا، بدءا من "الفاشيين" و "العنصريين"انتهاء بالتحقير البيولوجي البحت المتمثل في التعبير المفضل لدي تلك الصحف وهو "أبناء الكلاب" ! ويذكر كل هذا بلغة الدعاية الهتلرية التي اعتبرت الروس "جنساسلافيا منحطا" 0 وأن ماضي روسيا التاريخي كله – قبل وبعد الثورة- يتعرض للتشويه والتحقير "فروسيا عندهم هي عبدة الألف عام0" و "الشخصية الروسية هي شخصية العبد" وتسكت وسائل الاعلام تلك عن الم الشعب الروسي وضحاياه التي أنقذ بها العالم من خطر الفاشية 0 وبينما تلجأ تلك الصحف إلي تخويف الناس بمنظمة "الذاكرة" باعتبارها منظمة قومية روسية، فإن تلك الصحف نفسها لم تحرك ساكنا عندما انعقد في موسكو، في ديسمبر عام 89 المؤتمر اليهودي الذي حضره مندوبو أكثر من ستين منظمة صهيونية من الغرب واسرائيلبما فيهم "سام حادينتس" رئيس اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية0

وأن الصحافة السوفيتية التقدمية المزعومة تزرع في الاذهان مصطلح "الشوفينية الروسية" 0 لتشغل الأنظار عن الفاشية الحقيقية والعنصرية الحقيقية التي إتحدت قواها وتجمعت في تحالف صهاينة الاتجاد السوفيتي في

الجماعات القتالية المسماة "بيطار" والصحافة المركزية لا تتستر فقط علي كل ذلك، بل وتحاول إما طمس أو تذويق الجوهر الفكري للصهيونية، وتصمت تماما عن أن منظمة بيطار المصرح بها رسميا في الاتجاد السوفيتي، لا ترفع فحسب الشعارات العنصرية عن تفوق الجنس اليهودي، ولكنها كانت شريكة في جرائم بشعة مثل مذابح الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا، وغيرها من الأعمال الارهابية التي اهتز لها الرأي العام العالمي0

وصحيفة مثل "الايزفستيا" وهي صحيفة البرلمان والسلطة التشريعية العليا في البلاد ترتعد رعبا من المنظمات الروسية القومية0 ولكن إلا يجدر بنا أن نلاحظ أن التجارة "بالشوفينية الروسية" تجري علي أرضية رد الاعتبار الفوري والمندفع للأيديولوجية الصهيونية بل وتأليه تلك الايديولوجية، التأليه الذي يشمل كل الشخصيات العامة ذات الأصل اليهودي سواء من السوفييت أو الأجانب، بما في ذلك القادة الياسيون لدولة اسرائيل الفاشية العدوانية، وتمضي الرسالة لتقول بالنص، مع ملاحظة أن كل ما سبق هو أيضا بالنص : "وهكذا فإن الصهاينة والموالين لهم في الصحافة السوفيتية ومنهم مواب في مجلس الشعب، وبعض العاملين في القسم الايديولوجي في اللجنة المركزية وبعض أعضاء المكتب السياسي يضعون مساحيق التجميل علي وجه الصهيونية الآثم0 ويغسلونه من الأقذار والوسخ، ويزعمون أن الصهيونية مفتري عليها من الأمم المتحدة التي اتخذت منذ 1948 أكثر من ألف قرار لا إدانة للعدوان الصهيوني في الشرق الأوسط والتي اعتبرت ان الصهيونية صورة من صور العنصرية والتميز العنصري 00 وهم يحاولون أن يضفوا علي الصهيونية تارة صورة الاتجاه الديني الروحي، وتارة أخري صورة حركة التحرر الوطني 00 التحرر الوطني ممن الفلسطينيين في فلسطين 00 أم من الروس في روسيا؟ 00 وان عملية التأليه المنظمة للقومية اليهودية هي وسيلة معروفة

لمحاولة صياغة تصور الأمة المتفوقة السوبر 00 الأمة الأرقي"0

وتمضي الرسالة قائلة :"وفي هذه الظروف يصبح حتي مجرد التعاطف مع الشعب العربي الفلسطيني المناضل من أجل حقوقه وكأنه نوع من إثارة التناحر القومي في الاتحاد السوفيتي إن خطر الصهيونية أصبح ماثلا بالدرجة الأولي نظرا لتزايد الاتصالات الودية مع اسرائيل علي غير ارادة الشعب الروسي، وان الحملة التي تشن يوميا ضد الشعب الروسي تبدو يوما بعد يوم أشبه ما تكون بعملية استفزاز قومي واسعة النطاق، وتدل الظواهر كلها علي أن شخصا ما من "علية القوم" يتعطش الي مذابح، بل يعد العدة لها، ملقيا التبعة مقدما علي إتحاد كتاب روسيا، وعلي المنظمات وممثلي الثقافة الروسية إن هذه المذابح – بعد أن تطال بعض اليهود الأبرياء – ستنقلب الي حمامات من الدماء للشعب الروسي ومن بعده شعوب الاتحاد السوفيتي الأخري إن الاهانة اليومية لكرامة الشعب الروسي قد بلغت حدا لا يمكن معه التعويل علي صبر شعبنا وتسامحه، وان عملية الارهاب المعنوي إنما تجري علي خلفية الكارثة الديموجرافية التي يعيشها الشعب الروسي و "نهب ثرواته المادية والمعنوية بلا حياء طوال 72 عاما"0

إننا نطالب بوضع حد للحملة المكثفة المعادية للروس في الصحافة والاذاعة والتليفزيون، ونطالب بإعادة توزيع أجهزة الأعلام لصالح روسيا، بما يخدم مصالح شعبنا، انطلاقا من أن روسيا هي التي تتحمل القسط الأكبر من تكلفة تلك الأجهزة الاعلامية0 نطالب أيضا بمساراة روسيا بالجمهوريات الاخري من حيث حجم البث الإعلامي، ويجب أن توجه تلك الاجهزة للتعبير عن مشاكل وألام وأحلام الشعب الروسي، النسبة الآن هي واحد ونصف مليون نسخة من الصحافة الوطنية الروسية مقابل ستين مليون نسخة من المطبوعات التي تهين الشعب الروسي باللغة الروسية علاوة علي بحر من الإعلام غير الرسمي، ونحن

ندعو جميع أبناء شعبنا عمالا وفلاحين ومثقفين أن يتمسكوا بروح الكرامة، وأن يتذكروا وأن يعرفوا أن أحدا أيا كان لن يكون بوسعه أن ينتزع من شعبنا الإخلاص الروسي للحقيق، والاحساس الروسي بالعدالة والتعاطف والشفقة والوطنية المتفانية"0

ويختتم الأدباء الروس رسالتهم بقولهم :" فلننهض ولنضع مصير روسيا بين أيدينا "ولا تحتاج هذه الرسالة الواضحة إلي تعليق، ولكني أكتفي بالقول أن هذه الوثيقة التي وقع عليها أكثر من سبعين أديبا كبيرا هي الأولي من نوعها، وأنها أشارة لا يجب الاستهانة بها 0

مارس 1990

(3)
ليتوانيا الصغيرة

الي أين ؟

تطرح المسألة الليتوانية – نيابة عن الحركات القومية الأخري – عدة أسئلة منها : هل تنجح تلك الحركات في الانفصال ؟ هل يظل إتحاد الجمهوريات هذا إتحادا فيدراليا أم يمضي نحو إتحاد كونفيدرالي؟ ما هي سياسة البيرسترويكا تجاه المسألة القومية ؟0

وتشير "ليتوانيا" من الدهشة قدر ما أثارته من أسئلة ومصدر الدهشة أن الحركات القومية الأخري في "أذربيجان" و "جورجيا" و "أرمينيا" و "مالدافيا" قد أسالت دماء أبنائها في الطرق والميادين دون أن تظفر بما تمنته، بينما تمكنت ليتوانيا دون جهد يذكر من اعلان بيان الاستقلال فجر الاثنين 12 مارس 1990 علي الرغم من أنها بلد صغير لا يتجاوز سكانه الأربعة ملايين، ولا تمتاز أرضها بالثروات الطبيعية0 وكل إنتاجها من اللحوم والألبان 0!

وتاريخ ليتوانيا تاريخ بلد صغير تداولته أيادي الغزوات الالمانية والسويدية والروسية بدءا من القرن الخامس عشر0 ودفع احتلال السويديين لها بطرس الأول للتفكير في منفذ بحري لروسيا لا تتهدده المطامع، فأنشأ مدينة "بطرسبورج" (لينينجراد حاليا) وأسس الأسطول الروسي البحري 0 ولم تكن ليتوانيا قبل بطرس الأول سوي مقاطعة من مقاطعات الامبراطورية الروسية في عهد إيفان الرهيب وظلت تابعة لروسيا القيصرية حتي عام 1916 ثم احتلها الالمان في الحرب العالمية الأولي، وأضطر لينين للتنازل عنها في صلح "بريست" الشهير، واضطر الالمان لمواجهة الثورة داخل بلادهم لسحب جيوشهم من البلطيق، فاندلعت في ليتوانيا ثورة شعبية لتعلن قيام السلطة السوفيتية عام 1918، فعاد الالمان في نهاية نفس العام وفرضوا حكم وصاية (استقلال مع مناطق نفوذ وامتيازات) علي ليتوانيا، واستمر ذلك الحكم حتي عام 1939 ، وفي هذا العام وقع السوفييت اتفاقية "عدم اعتداء" مع الالمان 0 واتضح فيما بعد أن لتلك الاتفاقية ملاحق سرية وقعها كل من "مولوتوف" و "رينتروب" تسمح للاتحاد السوفيتي "بمصالح حيوية" في منطقة البلطيق (ليتوانيا – لاتفيا –إستونيا) مقابل مصالح حيوية مماثلة لالمانيا في بولندا، وقد اعترف مؤتمر نواب الشعب السوفيتي في دورته الثانية بهذه الاتفاقية وأدان ملاحقها السرية وتنص هذه الملاحق صراحة علي

المصالح والحدود والتعويضات وغير ذلك بالنسبة لليتوانيا وبولندا0 لكن اتفاقية(عدم الاعتداء) لم تصمد طويلا أمام شهية المانيا التوسعية، التي أخذت بعد احتلالها لبولندا تتطلع عام 1940 إلي منطقة البلطيق مرة أخري وهنا نشأت ثورة عارمة في ليتوانيا فأطاحت بالحكومة الليتوانية التي كانت تتعامل في الخفاء مع الالمان، واعلنت قيادة الثورة انضمامها إلي اتحاد الجمهوريات السوفيتية 0 وعند اندلاع الحرب العالمية دخل الالمان ليتوانيا ليصفوا حساباتهم مع كوادر الثورة وزعمائها، فقتلوا أكثر من مائتي ألف مواطن ليتواني "حرر الجيش السوفيتي هذا البلد بأكثر من أربعمائة ألف شهيد مخلصا أياها من قبضة الالمان00 وبذلك استقرت ليتوانيا ومنطقة البلطيق داخل الحدود السوفيتية حوالي نصف القرن 0 وانطون صفحة من الصراع عليها، الي أن فتحت البيرسترويكا محابس الكلمات والرغبات والرأي فقفزت ليتوانيا تصيح : الحرية بأي ثمن والانفصال مهما جري !

وقد عانت الشعوب السوفيتية ، وفي مقدمتها الشعب الروسي من قبضة "ستالين" 0 لكن الشغوب غير الروسية عانت علاوة علي ذلك من اضطهاد قومي نمثل في إنكار ثقافاتها ولغاتها وتاريخها القومي، وكان ستالين يشحن القوميات في عربات نقل مبدلا مواطنها!0 وهو ما قام به مع " تتار الفرمم" حين نقاهم إلي ما وراء جبال الأورال، ومع "تشيتشينو" و "اينجوشي" عندما نقلهما من القوقاز إلي آسيا الوسطي، وهو ما جري مع "ألمان الفولجا" (مليونين) فصاروا يعيشون في سيبيريا ! ويشبه هذا أن ينتقل الشعب المصري ليحيا فجأة في منغوليا ! 0 حتي أنه عندما نشب الصراع القومي بين الأذريبيجان والأرمن شاعت نكتة بين الروس تقول أنه لو كان ستالين حيا لأنهي هذا النزاع بتوحيد هاتين الجمهوريتين، وجعل من "كييف" (عاصمة أوكرانيا) عاصمة للجمهورية الجديدة المتحدة0 وبذلك بضرب _ بقرار واحد – ثلاث جمهوريات0

البيرسترويكا والأبواب المفتوحة00

ترافق نشاط الحركات القومية مع الاعلان عن التوجهات السياسية والاقتصادية الجديدة للاتحاد السوفيتي0 ولب هذه التوجهات الجديدة هو الحركة نحو الليبرالية اقتصادية لا يدري أحد حتي الآن الشكل النهائي الذي س، فكل ما صدر حتي الآن من قوانين الملكية الخاصة لا تتعارض مع الملكية العامة للدولة، وهي عكس كل قوانين الملكية الخاصة في العالم لاتحدد "الممنوع" ولكنها تحدد "المسموح" بملكيته وفي إطار عدم الاستغلال حتي الآن 0 ومع هذا فإن هذا القدر من "البحبحة" الاقتصادية للمشروعات الخاصة، استلزم قدرا من"البحبحة" السياسية، كانت الدولة نفسها بحاجة إليه لتنعطف نحو "البيت الأوروبي المشترك" بدلا من "بيت الاشتراكية العالمي" الذي توزعت غرفه في أميركا اللاتينية وآسيا وأفريقيا وأوروبا0 وفي ظل هذه "البحبحة" السياسية والديمقراطية والعلنية نشطت الحركات القومية في الجمهوريات السوفيتية ومن بينها ليتوانيا وازدحمت "فيلنوس" عاصمة ليتوانيا بمختلف التنظيمات مثل : الحزب الاشتراكي الديمقراطي الذي كان يحكم ليتوانيا قبل الثورة 0 ورابطة "حرية ليتوانيا" و "حزب الخضر" وأحزاب دينية كاثوليكية وأخري قومية، وجماعات متعددة 0 وتصدرت منظمة "سابوديس" (الوفاق) قائمة الأحزاب الرائجة0 وتمكنت "سابوديس" وباقي المنظمات الأخري من انتزاع حقوقها في الطباعة والنشر والاجتماعات والاضرابات 0 وارتفعت أسهم "سابوديس" حتي أن ستين بالمئة من عضوية الحزب الشيوعي الليتواني انتقلت إلي عضوية "سابوديس" ! وتركزت المطالب علي الانفصال، وإقامة الدولة الليتوانية

المستقلة، وإحياء اللغة والثقافة والتاريخ القومي بكل رموزه 0

وعلي مدي السنوات الخمس الأخيرة راحت منظمة "سابوديس" تثب الي مواقع السلطة قطعة بعد الأخري 0 ونشأ فعليا وضع ازدواج سلطة، تقاسمت فيه المنظمة مقادير ليتوانيا مع الحزب الشيوعي، الذي ضعفت مواقعه بعضويته البالغة مائتي ألف 0 وفي صيف 1988 استطاعت الحركة الشعبية بضغتها الملموس أن تقيل سكرتير الحزب "سونجايل"، وقد برز ذلك المطلب أساسا من بين القواعد الحزبية نفسها !0 وكانت تلك أولي البوادر الخطيرة علي أن الموقف يفلت من بين يدي القائمين علي الحكم0 وقد أقر المكتب السياسي للحزب حينذاك بأن الحزب "قد فقد المبادرة وإمكانية الحركة"! 0 وقدم المكتب السياسي استقالته0 وبرز حينئذ "برازوسكاس" سكرتي الحزب الجديد 0 الذي حاول أن يجمع بين "ليتوانيته" و "سوفيتيته" لتفادي الأزمة الزاحفة في الشوارع 0 فأعلن في ديسمبر 1989 في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي الليتواني عن انشقاق الحزب وخروجه من الحزب السوفيتي الموحد، كما ألغي المادة السادسة من الدستور الليتواني التي تنص علي الدور القيادي للحزب السوفيتي، وسمح بالتعددية الحزبية، وقرر إعادة النظر في ميثاق الحزب ونظامه الداخلي0 لكن خطوة "برازوسكاس"المحسوبة هذه كانت تلهث في مؤخرة الأحداث، فقد سبقه الكومسومول الليتواني بستة أشهر إلي الخروج من الكومسومول السوفيتي ! كما كان اليتوانيون مشحونين بالشعور بأنهم قاب قوسين من الاستقلال، وان إمكانيات الحركة الشعبية أكبر من تنازلات"برازوسكاس" الذي أراد أن يكو ليتوانيا لانشقاقه سوفيتيا لبقائه شيوعيا ! 0 لكن تلك الخطوة لم تكسبه تأييد الليتوانيين ولا منعت عنه غضب القيادة السوفيتية، وصرح جورباتشوف بعد اجتماع طاريء للجنة المركزية لبحث قرار الانشقاق الحزبي قائلا :"يجب ألا تكون هناك

أوهام بشأن نوايا المركز ولا قدراته" ! 0 وفي نفس الاجتماع قررت اللجنة المركزية إيفاد جورباتشوف شخصيا إلي ليتوانيا في يناير 1990 لإقناع الليتوانيين بالتعقل 0 وسبقت الزيارة كما لحقتها مختلف أنواع التحذيرات0 فأرسل "فاديم ميدفيديف" – مسئول الشئون الايديولوجية في الحزب – برقية للحزب الليتواني يقول لهم فيها :" إنكم في حالة خروج حزبكم سوف تنسحقون سياسيا"0 وبعد ذلك سافر إلي ليتوانيا وفد من أعضاء المكتب السياسي لعلهم يفلحون في تهدئة الاوضاع 0 دون جدوي 0 بل إن "برازوسكاس" أخذ يمعن في "ليتوانيته" فاتخذ عدة قرارات تؤكد الاستقلال مثل حرمان أفراد القوات المسلحة السوفيتية المتواجدة في ليتوانيا من حق التصويت في الانتخابات" 0 وأضطر جورباتشوف شخصيا للقيام بزيارة إلي "فيلنيوس" في 11 يناير0 فقال له برازوسكاس" مرحبا به :" ها هي ليتوانيا تري السكرتير العام للحزب لأول مرة منذ خمسين عاما!" وواجهته المظاهرات واليافطات في كل مكان تطالب بحرية واستقلال ليتوانيا، حتي أنه قال لهم :"لقد واجهنا الليتوانيون في كل مكان وهم يصيحون في جوقة واحدة "الحرية لليتوانيا" وقد استمعنا إلي ذلك الصياح 000 والان00 ماذا بعد ؟" وفي تلك الزيارة طرح جورباتشوف برنامجا معقولا يستبعد الانفصال ويدعو لتوسيع الديمقراطية داخل الحزب والأحزاب في الجمهوريات، والعمل علي تطوير الاقتصاد السوفيتي والليتواني، وتوسيع الاستقلالية الاقتصادية والسياسية لليتوانيا، مع البحث في نفس الوقت عن أشكال وصيغ جديدة لاغناء المضمون الديمقراطي لاتحاد الجمهوريات 0 وكان ذلك موقفا وسطا لحل أزمة معقدة بالفعل 0 وفي مواجهة الجوقة التي تنادي بالاستقلال صاح بهم جورباتشوف :"أذكركم بحقيقة واحدة وهي أن رؤوس الأموال الأجنبية قبل الثورة بلغت في ليتوانيا 57 % من رأس المال الليتواني00ولكنكم مصرون علي الصياح الاستقلال 00

الاستقلال 00" وفي هذه الزيارة وقف "برازوسكاس" ليشرح في كلمة مطولة أمام جورباتشوف دوافعه للانشقاق عن الحزب السوفيتي قائلا "إن التبعية الحزبية تتناقض مع الاستقلالية الاقتصادية 0 وأن استقلالية الحزب وحدها هي القادرة الآن علي كسب الجماهير الي صفنا 00 وتروج الصحف لفكرة أن استقلال ليتوانيا هو خيانة للبيرسترويكا0 ولكن أحدا لم يسأل نفسه : لماذا لا تود شعوبنا الاستمرار في ذلك الاتحاد ؟، وأول أسباب الحركات الاستقلالية القومية غير العادلة التي مورست وتمارس حتي الآن تجاه القوميات الأخري، والتي منحت بعض القوميات الامتيازات علي حساب قوميات أخري 0 وثانيا فإن هناك ظروف تاريخية محددة ضمت فيها ليتوانيا إلي الاتحاد السوفيتي، وقد داست هذا الظروف الكرامة والعزة القومية لأبناء ليتوانيا 0 وثالثا فإن تجربة التنمية الاقتصادية علي النمط الستاليني قد أثبتت فشلها، واتضحت أزمة الشيوعية الطوباوية التكنوقراطية التي أهدرت الديمقراطية والعدل، ولم تنفذ وصايا لينين الخاصة بحق الأمم تقري مصيرها" 0 ولم يعد أمام جورباتشوف في نهاية هذا اللقاء الذي أذاعه التليفزيون مباشرة إلا أن يقول لهم:"لقد دعوتكم للتفكير في مصير ليتوانيا، ولن أكون كاثوليكيا أكثر من الكاثوليك، ولن أكون ليتوانيا أكثر من الليتوانيين"0 وصرح جورباتشوف حينذاك بعبارة واحدة أوجزت ولخصت الموقف الرسمي للقيلدة حين قال :" إما أن تكون ليتوانيا داخل الاتحاد السوفيتي أو يكون الاتحاد السوفيتي في ليتوانيا"! وبعودة جورباتشوف من ليتوانيا إلي موسكو تبخر الحل الوسط الذي تقدم به، كما تبخر حل "برازوسكاس" الوسط هو الأخر في حرارة الموقف الشعبي الذي اندفع نحو منظمة "سايوديس" 0 ولأن الأحداث لا تخلو من جوانب طريفة، فقد شهدت الساحة السياسية الليتوانية نشأة حزب جديد شيوعي بزعامة "فلاديسلاف شفيتس"، مطلبه الأساسي مواصلة البقاء داخل الاتحاد السوفيتي 0 فلم يحصل علي صوت واحد

في الانتخابات الأخيرة التي قادة "لاندسيبرجس" إلي السلطة والبرلمان وإعلان الاستقلال 0

وهناك عاملان قد مكنا ليتوانيا – دون غيرها من الجمهوريات – من قطع ذلك الشوط في هذا الطريق الصعب، أولهما ما تميزت به من تجانس قومي، فقد غلب علي تركيبتها العنصر الليتواني (82%من السكان) علي العكس من "لاتفيا" مثلا التي تصل نسبة القوميات الأخري بها إلي 40%، وقد ساعد ذلك علي توحيد حركة المعارضة كما منحها الحق في الحديث والحل والربط باسم "الأمة" 0 والعامل الثاني هو موقف دول الغرب وخاصة أميركا التي ظلت ترفض الاعتراف بشرعية وجود ليتوانيا داخل الاتحاد السوفيتي علي أساس أنها ضمت بالقوة ونتيجة لمعاهدة 39 والملاحق السرية التابعة لها وزاد الطين بلة إدانة مؤتمر نواب الشعب السوفيتي لهذه الملاحق صراحة 0 وبذلك توفر لحركة المعارضة أقرار سوفيتي بإحتلالها، علاوة علي الاقرار الاميركي والاوربي السابق 0 ووفر ذلك لليتوانيا وضعا دوليا خاصا ووفر عليها الكثير0 وقد روجت الحركة القومية الليتوانية لهذه الوثيقة وصبت منها النيران علي شرعية بقائها في الاتحاد0 وفي نفس الوقت تطلعن منظمة "سابوديس" لاحتضان الغرب لموقفها بأمل كبير سرعان ما خيبه مجري الأحداث 0 ويمكن رصد ذلك الاحتضان الغربي لليتوانيا إذا عرفنا أن مئول القسم الصحفي بالبيت الأبيض قد حيا الخطوة الاستقلالية للينوانيا، بينما صرح الرئيس الاميركي بوش عند وقوع أحداث باكو في أذربيجان بقوله أنه لايمكن أن يلوم الرئيس السوفيتي علي ما جري 0 فقد كان من الضروري فرض النظام علي باكو0 ذلك أن أمريكا تعرف أن جمهوريات بحر البلطيق ستتحرك في فلك الغرب إن هي انفصلت، أما أذربيجان فسوف تشدها روابط تاريخية وثقافية كثيرة نحو الشرق0

ومع تراجع الحلول الوسطية إلي الخلف أخذت منظمة "سايوديس" تندفع للأمام بزعامة البروفيسور

"لاندسبيرجيس" 0 وكشف استطلاع الرأي العام – في نوفمبر 89 – عن أن 48% من السكان من مؤيدي "سابوديس" و 12% من مؤيدي الحزب الشيوعي0 وفي الرابع والعشرين من فبراير هذا العام بدأت المعركة الانتخابية لمجلس السوفييت الأعلي في ليتوانيا 0 وفي 12 مارس انتهت بفوز "سابوديس" بأكثر من تسعين مقعدا برلمانيا (من أصل 131 مقعدا) 0 وحصول "برازوسكاس" علي 38 صوتا، إما "فلاديسلاف شفيتس" فقد سكت عنه الناخبون، ولأن السكوت علامة الرضي، فقد انصرف الرجل مسرورادون نتيجة تذكر 0 وكانت الجماهير من الناخبين – كما رأينا في التليفزيون السوفيتي – تقف أمام مدخل البرلمان وهي تحمل اليافطات التي كتب عليها :" فلنتحد ولكن من دون الشيوعيين" و "مع الشيوعيين ينعدم المستقبل" الخ 0

وبوصول "لاندسبيرجيس" إلي زعامة البرلمان – علنا دون أن يعترض أحد علي مجري الانتخابات – تعلقت أنفاس القيادة السوفيتية بما سيقوله ، كما راح الجميع يتابعون ما يجري في ليتوانيا 0 هل تخرج ؟ هل تبقي داخل الاتحاد ؟ هل يجد "لاندسبيرجيس" حلا وسطا ؟ ولكن "لاندسبيرجيس" أعلن في اللحظات الأولي من فجر الاثنين 12 مارس بيان البرلمان ووثيقة الاستقلال0

وكانت منظمة "سابوديس" وزعيمها "لاندسبيرجيس" تعلق أملها كله علي اعتراف الغرب بها، وعلي كل كلمة ينطق بها راديو "صوت أميركا" و "صوت الحرية" وكل تلك الاذاعات واعتقد "لاندسبيرجيس" أنه يهادي أميركا بزهرة ليتوانية بلا أشواك، ولكن أحدا لم يعترف بالاستقلال الليتواني سوي النمسا وأستراليا وتشيكوسلوفاكيا شفهيا فقط، دون تبادل دبلوماسي، عملا بالمثل القائل"العين بصيرة واليد قصيرة" واكتفت أمريكا كخطوة لجس نبض موسكو بتحية الاستقلال فحسب ! كما علقت الدول الأوربية كلها اعترافها بليتوانيا علي "اللحظة التي تتمكن فيها السلطة الجديدة من السيطرة الكاملة علي

الموقف الداخلي" بل وعلي "اعتراف موسكو بالاستقلال الليتواني؟" 0

وكان أول ردود الاتحاد السوفيتي هو بيان أدلي به "ماسليكوف" للصحف في العاشر من مارس حينما كان واضحا أن "سابوديس"ستفوز في الانتخابات، وأشار "ماسليكوف" وهو عضو بالمكتب السياسي إلي ثلاثة مخاطر تهدد ليتوانيا إن خرجت :

أولا: مشكلة الحدود 0

فقد ضم الاتحاد السوفيتي بالفعل ليتوانيا مساحة كبيرة من أراضي جمهورية "بيلاروسيا" وأيضا هناك ميناء"كلايبيدا" ولا تحدد الخرائط السوفيتية تبعيته !

ثانيا:

فان مشكلة اقتصادية كبيرة ستبرز في حالة خروج ليتوانيا 0 فهناك المصانع التي تقع في ليتوانيا ولكنها تخص الاتحاد السوفيتي بأكمله، ومنها مصانع وحيدة من نوعها تحتكر انتاج سلع معينة مثل عدادات الكهرباء 00 وقطع غيارات التليفزيون، ومدافيء الجرارات، وغير ذلك 0 وبها أيضا صناعات هامة – ليست الوحيدة من نوعها – مثل بناء السفن، والصناعات الكهربائية، ومعامل ضخمة لتكرير النفط 00 وعلي حد قول "الايزفستيا" في 13 مارس 1990 فأن الاتحاد السوفيتي : لم يكن يبني كل ذلك من أجل ليتوانيا وحدها" وعلي امتداد سنوات السلطة السوفيتية بذل السوفييت خمسين مليار روبل لتطوير الاقتصاد الليتواني، كما أن قيمة المشاريع التي تخص الاتحاد ككل تصل إلي سبعة مليارات روبل 0 هناك أيضا الصناعات العسكرية الهامة التي تخص أمن الاتحاد السوفيتي وحدوده ! وهناك ما هو أكثر من ذلك أي الطرق والمطارات والموانى ووسائل الاتصال وكل ذلك مدفوع من خزانة الاتحاد السوفيتي العامة

وهناك مشكلة أخري تتصل بالقواعد العسكرية غي ليتونياوالتي تهدد بضرب الحزام الدفاعي السوفيتي 0

وهناك قبل ذلك كله0 وبعده أن خروج ليتوانيا سيكون نموذجا لبقية الجمهوريات وخسارة سياسية كبري للاتحاد، وفي الحبة النهائية سيخسر الاتحاد السوفيتي ما تمثله ليتوانيا وهو 3و1% من سكانه، 4و1% من دخله القومي ، 33و1% من صناعاته 0 2و2% من منتوجاته الزراعية 0

فما الذي ستفقده ليتوانيا اذا انفصلت ؟

أولا :

سيكون علي ليتوانيا أن تدفع للسوفييت بالعملة الصعبة وفقا للتقديرات الغربية حوالي 33 مليالموضوع:ار دولار ووفقا للتقديرات السوفيتية جوالي 60 مليار دولار 0 واذا كانت الديون قضية قابلة للتفاوض كما يفكر زعماء "سابوديس"0 فإن انهيار الاقتصاد نهائيا في ليتوانيا أمر لا يقبل التفاوض أو الجدل 0 وعلي سبيل المثال فأن مائة وواحد فرع انتاجي اقتصادي في ليتوانيا يستمد كل مقوماته من الجمهوريات السوفيتية الأخري 0 علي حين أن الفروع الانتاجية هناك لا تزيد عن مائة وثلاثة فرع ! وأن 75% من الغاز والنفط في ليتوانيا يأتيها من الاتحاد، بحيث أنها في اليوم التالي لا نفصلها لابد وأن تسهر بكاملها علي ضوء الشموع !00 ومن المستحيل علي ليتوانيا أن تتخلص من عملية "التكامل الاقتصادي" التي رسخت في نصف قرن دون انهيار اقتصادها بالكامل، واذا كان الاتحاد يبيع لها الالف متر مربع من الغاز الطبيعي ب 28 روبلا، فأن سعر هذه الكمية من الغاز في الغرب هو 97 دولار0 ويبيع لها الاتحاد طن النفط بثلاثين روبل 0 بينما سعره في الغرب 110 دولار 0

ولكن "سايوديس" وقادتها لا يفكرون في كل ذلك فهمهم الوحيد هو الانفصال وسيكون انفصال ليتوانيا من الناحية الاقتصادية أشبه بوثبة شريان خارج القلب الي العراء00 ولكن "سايوديس" تراهن علي مساعدات الغرب الاقتصادية، وعلي تبرعات المهاجرين الليتوانيين الأثرياء في كندا وأميركا ، وعلي تصدير أبنائها – كقوي عاملة

رخيصة – للبلاد الإسكندنافية وخاصة السويد التي تحتاج لشمالها البكر إلي تلك القوي العاملة الرخيصة 0 وبينما يخاطب "لاندسبيرجيس" أحلام الليتوانيين في العزة والكرامة القومية، فإن الحل الواقعي الذي يقدمه لهم هو انهيار ليتوانيا، وتحويل أبنائها الي جرسونات في مقاهي أوروبا ! وهناك أخيرا اعتبار أخر صرح به القادة السوفييت أكثر من مرة وهو أن انفصال هذه الجمهورية يهدد التوازن الدولي ويعرضه للمخاطر 0

ومع ذلك فقد خرجت ليتوانيا، أو بدا لها ذلك 0 وجعلت من أخطاء التجربة الاشتراكية سلما وصعدت عليه وأمسكت بمزلاج أبوابه السوفيتية الضخمة والعريقة، متطلعة الي العالم الآخر، ودون أن تفكر في مشكلة الديون أو الحدود، أو الانهيار الذي ستصاب به هي قبل غيرها 0 بقرار الاستقلال في 12 مارس هدأت ليتوانيا واعتبرت أنها قامت بكل ما في وسعها وأصبح عليها أن تنتظر كلمة الاتحاد السوفيتي ورده وفي الدورة الثالثة الطارئة لمؤتمر نواب الشعب، اتخذ قرار بأعلام ليتوانيا بأن قراريها (الاستقلال وإلغاء مفعول الدستور السوفيتي) لاسند لهما من الصحة أو الدستور، وأنها قد خالفت المادتين 74و 75 من الدستور السوفيتي 0 كما كلف المؤتمر جورباتشوف أن "يضمن حقوق كل انسان في ليتوانيا وأن يضمن بنفس القدر حقوق الاتحاد السوفيتي ومصالحه هو والجمهوريات الاتحادية الاخري في ليتوانيا" 0 وجاء في نهاية القرار:" وعلي كافة أجهزة السلطة في بيتوانيا أن تتخذ كافة الاجراءات لمراعاة عدم الاخلال بالقانون والنظم المعمول بها في جمهورية ليتوانيا السوفيتية الاشتراكية" 0 وفي 17 مارس وجه جورباتشوف برقية ل "لاندسبيرجيس" باعتباره رئيس مجلس السوفييت الاعلي في ليتوانيا لا تتجاوز الثلاثة أسطر يقول فيها :"أرسل إليكم بقرار مؤتمر نواب الشعب الذي اتخذ في 15 مارس غلي أن يتم أبلاغنا بالإجراءات المتخذة لتنفيذ هذا القرار في خلال ثلاثة أيام من تاريخه"!

وأرسل "لاندسبيرجيس" وفدا برلمانيا إلي موسكو يحمل رد ليتوانيا وخلاصته : اننا متمسكون بالانفصال !

ولم يمر عدة أيام الا وكانت الاتصالات الهاتفية بين ليتوانيا والعالم الخارجي قد قطعت كما أخذن نحوم بصورة دائمة فوق سماء العاصمة "فيلنوس" الطائرات السوفيتية 0 وفي 19 مارس صدر بيان الحكومة السوفيتية بتوقيع "ريجكوف" رئيس الوزراء يقول فيه أن المعلومات الواردة إليه من ليتوانيا تفيد أن الحكومة هناك ماضية في اجراءات تغيير عملة الدولة السوفيتية، وإنشاء مصلحة للجمارك الليتوانية، وتبديل وضع منشآت الدولة، وعزل الاقتصاد الليتواني عن الاقتصاد السوفيتي، وطالب البيان ليتوانيا بالالتزام بكافة الاتفاقيات الاقتصادية وتنفيذ الخطة الانتاجية لعام 1990 ، ونقل توجيه وادارة الهيئات الليتوانية الي الوزارات المركزية، وأعطي الصلاحيات لوزارة الداخلية وجهاز المخابرات لاعادة النظام الجمركي السابق علي الحدود الليتوانية، وحراسة وحماية المنشآت والمحطات وغير ذلك، وتأمين علي خطوط المواصلات الاتحادية من ليتوانيا واليها 0

فهل خرجت ليتوانيا ببيان الاستقلال في 12 مارس ؟ وهل ظلت في الاتحاد بعد قرار مؤتمر النواب في 15 مارس وبرقية جورباتشوف في 17 مارس، وأخيرا بيان الجكومة السوفيتية في 19 من نفس الشهر ؟

من مؤكد أنها لم تخرج ولكنها أيضا لم تعد "ليتوانيا" تلك بصورتها السابقة0 فقد تجمعت المعارضة فيها حول قيادة وتجمعت لهذه القيادة أسانيد من الشرعية، وتجمعت حول هذه الشرعية فئات واسعة00، والآن تشهد "استونيا" حركة مماثلة وتختمر في "جيورجيا" حركة عنيفة وستظل المسألة القومية أحدي أخطر القضايا التي تواجهها البيرسترويكا فهي العقدة التي تتجمع فيها خيوط الأزمة الاقتصادية والديمقراطية والقومية 0 ولم يحدث حتي الآن أن اصدم الجيش السوفيتي بالجماهير بسبب الأزمة الاقتصادية أو حرية الرأي لكن المواجهة قد

جرت في بؤر قومية في باكو وتيبليس وكاشينوف وغيرها وليست ليتوانيا سوي صفحة من كتاب كبير جدير بالتأمل والتفكير 0

أبريل 1990

(4)
البيروسترويكا 00

وثقافة الهدم

عندما أتحدث عن ثقافة الهدم فأنني لا أعني الأدب وحده أو المسرح، ولكني أقصد ذلك المناخ الثقافي والفكري العام الذي تشيعه حركة ثقافية تلملم ملامح وجهها من البرامج التليفزيونية، وخشبات المسارح والأفلام والأغاني والاعلانات والأدب والفكر السياسي والاقتصادي والنشرات غير الرسمية لمختلف المنظمات

السياسية0 وفي تاريخ كل مجتمع توجد عمليات هدم ايجابية لأنها تزيح كل ما يعوق التطور ويعطله، ومنطلقها ومنتهاها هو الأخذ بيد الناس إلي الأمام وتفتيح كل الطاقات ا\لبداعية0 وهناك عمليات هدم سلبية ورجعية، هدفها تقويض أسس الحياة بغض النظر عما سيكون، وثمة جانب مشترك بين العمليتين، جانب يظل مشتركا لفترة، بين تيار الهدم الايجابي وتيار الهدم السلبي 0 ولذلك تختلط الأوراق في وعي المواطنين السوفييت ويختلط الحابل بالنابل0 والتيار الأول يسعي لرفع الرقابة عن الصحف والمطبوعات وحرية النشر وإتاحة الفرصة لمختلف المدارس الأدبية والفنية ونشر الروايات التي تغلق عليها الدولة الخزائن الحديدية، ولهذا فإنه يخوض معركة ضد مؤسسات الدولة الثقافية البيروقراطية التي تتحكم في الورق والمطابع وتحديد النسخ وإمكانية النشر من عدمه بناء علي إشارة من أعلي ، وتشكل هذه المطالب قاسما مشتركا بين التيارين ثم تبدأ الفروق 00 فالتيار الأول ينتقد الستالينية دفاعا عن الديمقراطية، أما الثاني فينتقدها دفاعا عن الديمقراطية الأميركية والتجربة الاسرائيلية المتحضرة0 وينطلق الأول من أن هناك بالحتم جوانب ايجابية في التجربة السوفيتية، والتاريخ والثقافة لابد من الانطلاق منها وازاحة كافة العوائق، اما الثاني فينطلق من تحقير سبعين عاما كاملة لينتهي من جديد بتحقيرها واشاعة الشعور بالعدمية وبأن كل ما جري كان هباء وزيفا وخداعا في تاريخ أسود لم يعرف لحظة مضيئة واحدة0 ويطالب الأول بنشر الروايات والأعمال الممنوعة، فيقول له الثاني "نعم عندك حق" ويضع مع الأسماء المحظورة وربما قبلها أسماء الكتاب الذين أيدوا العدوان النازي علنا وانضموا الي هتلر في حربه علي الشعب الروسي، مثل الشاعرة "زينائيدا جيبوس" التي قام "يفتوشنكو" بتلميعها وتقديمها للقاريء 00 وينتقد التياران معسكرات الاعتقال الستالينية، لكن التيار الثاني وهو ينتقدها يتطلع باعجاب إلي العنصرية الاسرائيلية وبغض

النظر عن معسكراتها0 حتي أن أديبا مثل "ايتماتوف" لم يكتف بزيارته الي اسرائيل ولكنه انتهز الفرصة ليقوم بإهداء آخر رواياته لاسحاق شامير تعبيرا عن خالص المودة والاحترام العميق ! 0 وهكذا تأخذ المسافات في الاتساع ما بين التيارين 000 وبينما يحاول المثقفون الحقيقيون أن يشعلوا شمعة بدلا من أن يلعنوا الظلام، فإن التيار الثاني السائد يتحرك وشعاره الحقيقي غير المعلن هو "إطفاء شمعة بدلا من أن تلعن الفجر !

وكانت الرأسمالية فيما سبق هي التي تواجه الاشتراكية وتستجمع ضدها كل الأسلحة والطاقات، فأصبحت الآن الاشنراكية هي التي تواجه الاشتراكية 0 فلم تعد اللعنات تنصب علي رأس ماركس وانجلز ولينين من دول الغرب ولكنها تنصب عليهم من دول الشرق ! وقد دفع البعض الجماهير – أية جماهير؟ - في مدينة سوخومي بجيورجيا إلي إزاحة تمثال لينين من مكانه، وكأن معركة الناس مع التماثيل الحجرية وليست مع الواقع الحي وأزماته !0 وتجري في الوقت نفسه أوسع عملية تشويه لتاريخ المجتمع السوفيتي بما في ذلك انتصاره علي النازية0 أما تاريخ الحزب الذي ناضل عشرين عاما قبل الثورة واحتفظ بالسلطة سبعين عاما، فأنه كما يصورونه تاريخ مجموعة من المتآمرين التي تتنازع علي السلطة، نزاع فاز فيه الأقوي وهو ستالين! 0 أما لينين فقد كان في سنواته الأخيرة مريضا ولايدري ما يقوم يه !0 وقد كانت الثورة الاشتراكية خطأ من الأساس وعملا ارهابيا !!0

ويشيع هذا المناخ الفكري والثقافي العام مع تزايد الأزمة الاقتصادية، ويتزايد أحساس المواطن البسيط باليأس والتخبط وبأنه – لسبب ما – قد عاش سبعين عاما مخدوعا وعليه الان أن يواجه مصيره المجهول بنفسه 0 ولهذا يعود الناس إلي الكنائس مرة أخري، ويعلقون الأيقونات في بيوتهم، ويشعلون أمامها شموع التوبة والندم0 لقد حولت هذه الحركة الثقافية الهدامة أعز القيم

التي عاش عليها المواطن السوفيتي إلي جريمة يحس بضرورة التفكير عنها كل لحظة0 وحتي مشاعر التضامن مع الشعوب الاخري والتي تربي عليها الانسان السوفيتي صارت تصور له وكأنها نوع من الغباء، وتروج شعارات من نوع "مد لحافك علي قد رجليك"، و "ما يحتاجه البين يحرم علي الايديولوجية"0

وقد أقامت البيرسترويكا الدنيا ولم تقعدها بعد، ولكنها تجد نفسها بعد مرور خمس سنوات في قبضة نفس الأزمة الاقتصادية التي دفعتها للظهور ولاعلاء ما هو انساني علي ما هو طبقي، ولم تستطع كل اقتراحات البيرسترويكا لحل الأزمة أن تقدم أو تؤخر، وكل ما فعله "اطلاق قوانين السوق" أنه ضاعف من تدهور الأوضاع، ووصلت نسبة التضخم المالي لأول مرة إلي 16%، ونما جيش العاطلين عن العمل فوصل الي 4 مليون ! 0 أما المجرمون فوصل عددهم إلي مليون ونصف المليون ثلثهم من النساء و 53% منهم من العمال0 أما عدد الساخطين سياسيا وهم من شاركوا في مظاهرات العام الماضي فبلغ 12 مليون انسان0 ووصلت ثقة المؤسسات الخاصة في نفسها حد أن مؤسسه في لينجراد راحت تبيع الأفيونو المخدرات علنا وبأسعار القطاع الخاص الغالية 0 أما مؤسسة "آنت" وهي مؤسسة جادة – فقد أستقر رأيها علي بيع عشرة دبابة حديثة لبلد أجنبي لم يعلن عنه الي الآن، ولولا يقظة السلطات لتمت الصفقة ! 0 ومع ذلك فأن مؤسسة أخري قررت أن تجرب حظها في بيع الطائرات، وفي زحمة المشاريع الخاصة الاستثمارية تطفو علي السطح المشاريع التي يقوم بها اولئك الذين تساندهم الأجهزة أو من راكموا الاموال بمختلف الطرق0

الاعلانات 000 والبيزنس 000

تصدر في موسكو مجلة خاصة للاعلانات، ويمكن لأي مواطن أن ينشر فيها ما شاء، وتزدحم صفحاتها بأسماء المؤسسات الكبري من القطاع الخاص وأسماء أو هواتف الافراد، ونظرة سريعة علي هذه الاعلانات ستكشف للقاريء عن المناخ الذي ينتشر الآن، والذي يتخذ من كلمة "بيزنس" شعارا له 0 فهناك اعلان لم تخجل الصحف الاخري ومنها أنباء موسكو من نشره، ويقول :" اذا كنت سائحا وتود قضاء وقت طيب في موسكو، فأن مؤسسة "00" توفر لك خلال اقامتك صديقة أو صديق ظريف، مقابل خمسين دولار تحول علي حساب رقم 000 !0 أي قيمة أخلاقية وثقافية ومعنوية يشيعها هذا الاعلان ؟ وفي نفس الوقت سيجد القاريء إعلانات من نوع أخر تكشف عن تعاسة المواطنين البسطاء مثل :" أقوم بكافة أنواع العمل الجسماني الشاق كرفع الثلاجات والغسالات" 0 أو :" لدي منضدة للتليفزيون بحالة متوسطة" أو "صحفي وشاعر يكتب لكم التهاني بأعياد الميلاد والمناسبات في صورة قصائد فكاهية" أو" امرأة شابة تبحث عن أي عمل، م أي نوع، لقاء أقامتها في شقة " بل أن امرأة لم تجد ما تعلن عنه سوي أنها :"تنتف شعر الذراعين والساقين بسعر معقول"!0

التليفزيون 000 وكاشباروفسكي

يخصص التليفزيون السوفيتي الآن قناة كاملة للاعلانات عن مختلف المؤسسات الخاصة، وهي قناة تعمل طيلة الليل والنهار، وتتخلل الاعلانات أغاني واستعراضات، ويخصص أيضا برنامجا اسمه "رجل البيزنس الشاب" وبرنامجا أخر بعنوان "نادي البيزنس" 0 وهناك برنامج ثابت يومي وهو "ستة الاف ثانية" بلغ عدد المشاهدين الذين يتابعونه عشرين مليون انسان0 وراحت

صحافة تلك الثقافة تطبل وتزمر لمعجزات كاشبا روفسكي ، وبركاته، فأنجبت من بعد جلساته التليفزيونية كل اللواتي لم ينجبن من قبل، ونبت الشعر في رؤوس الصلع جميعا، ومشي القعدون والعجزة، وأبصر العميان، ليس فيما أقوله أي مبالغة 0 بل انه تمكن وهو في موسكو – علي حد قوله – من اجراء عملية في مدينة أخري لامرأة وشفاها ! 0 وليتخيل القاريء أن تكون كل هذه الخزعبلات مادة صحفية وتليفزيونية في مجتمع ما في القرن العشرين ؟! وبلغ ثمن التذكرة لحضور جلساته العلاجية في عيادته الخاصة ألف روبل، ثم انتقل "كشباروفسكي" من العلاج الخاص الي العلاج السياسي كله، فصار ينصح المتنازعين علي منطقة "كاراباخ" من الأرمن والادربيبجان بالاسترخاء والهدوء 0 وكاد الرجل أن يصبح ظاهرة سياسية تشبه ظاهرة راسبوتين لولا غضب العلماء والاطباء0

فمن الذي سمح بهذه الكوميديا الغريبة ومن الذي يروج لاغتيال الوعي هذا ؟0

المسرح 00 وداعا أميركا 00

أثارت مسرحية "وداعا أميركا" ضجة اجتذبت إليها أعدادا كبيرة من المتفرجين0 وقد عرضت المسرحية في مسرح "المشاهدون الشباب" 0 كتبها "نيدزفيتسكي" وأخرجتها "جنريتا يانوفسكايا" 0 والمسرحية غنائية استعراضية مأخوذة من قصيدة : طويلة للشاعر السوفيتي المعروف "مارشاك" الذي توفي عام 1962 ويعد من أشهر كتاب أدب الاطفال0 وتحكي القصيدة عن مليونير أميركي هو "مستر تويستر" الذي قرر القيام بجولة للراحة مع أبنته وزوجته في أي مكان في العالم 0 وحينما جلس مع أسرته لاختيار البلد الذي سيسافرون

اليه أصرت أبنته الشابة الصغيرة علي أن يسافروا إلي لينجراد0 وحاول أن يثنيها عن رأيها هذا وعرض عليها جزر هاياتي وغيرها، ولكنها أصرت علي زيارة الاتحاد السوفيتي ولينجراد لمشاهدة الليالي البيضاء، وتصل الأسرة إلي لينجراد وتنزل في فندق فخم، ولكن المليونير "مستر تريستر" يفاجيء بأن الغرفة المجاورة له يقطنها منغولي، والغرفة الأخري يقطنها أفريقي، ومن فوقه صيني ومن تحته ماليزي ! 0 ويرفض "مستر تويستر" أن يضمه فندق واحد مع هذا الخليط من القوميات الملونة التي لا يكن لها أي احترام، وحينئذ يترك الفندق ويجوب المدينة بحثا عن فندق آخر، الا أنه لا يجد أماكن شاغرة 0 فيعود مرهقا ليبيت علي الاريكة مع أبنته وزوجته0 وقد أراد "مارشاك" بقصيدته الجميلة هذه أن يقول أن الناس كلها في الاتحاد السوفيتي سواسية، لافضل لأحد علي الآخر ولا تفرقة عنصرية 0

ولنلاحظ أن الأعمال ذات النزعة الانسانية من هذا النوع – بغض النظر عن مدي تطابقها مع الواقع – تظل تروج لفكرة صحيحة ونبيلة وهي الدعوة لعدم التمييز بين البشر علي أساس عرقي أو ديني وغير ذلك 0 وهناك مثال ذلك ما نجده في أغنيات صلاح جاهين "علي راس بستان الاشتراكية 00 واقفين بنهندز ع الميه" 0 فهذه الاغنية – وان لم تتطابق مع الواقع المصري حينذاك – الا أن سر جمالها في أنها كانت ومازالت تخاطب حلما نبيلا في الناس 0

فكيف انقلبت فكرة وقصيدة "مارشاك" الشائعة بين الشباب الصغار ؟ كيف انقلبت هذه الفكرة علي يد "نيدزفيتسكي" من فكرة موحية إلي خاطر أسود وكئيب ؟0 تبدأ المسرحية الغنائية الاستعراضية بالسفينة التي يصل عليها المليونير "مستر تويستر" الي ميناء لينجراد، ليفاجيء الرجل وزوجته وأبنته بطوابير المواطنين السوفييت وقد سترتهم خرق مهلهلة، ولكنهم مع ذلك يقفون متصلبين علي نحو مضحك ويوزعون الصحف

السوفيتية "البرافدا" و "النجم الاحمر" وغيرها 0 أما المليونير ومعه حاشية تحيط به فيرتدون الملابس الفاخرة الزاهية الالوان 0 ومنذ أن يطأ "مستر تويستر" الأرض بقدميه حتي يصل الي الفندق لا يصادفه الا الجوع والعري وأناس قد تخشبوا وهم يوزعون الصحف الثورية 0 أما حارس الفندق فقد جعلوه أشبه ما يكون بستالين، غبيا متجهما، ورمزا للقسوة، وتدور المقارنة بين أميركا والاتحاد السوفيتي عبر كل التفاصيل وعبر الحوار، لنكشف أن أمريكا هي جنة الله في الأرض وأن المسواة الحقيقية هناك،وأن الاتحاد السوفيتي هو وطن المظالم والاضطهاد، وفي كل جلسة يجتمع فيها "مستر تويستر" بحاشيته وهم في أفخر الملابس، يمر – زوج وزوجة هما الصورة النمطية للمواطن السوفيتي حسبما يري المؤلف والمخرجة 0 فهما يرتديان البلاطي الحالكة 0 ويمشيان بحذر وذعر، وبيد كل منهما حقيبة صغيرة لمشتروات السوق0 وهما لا يكفان علي التطلع بانبهار لما يسرده "مستر تويستر" وحاشيته عن الحياة في أمريكا التي حرما منها 0 وتنتهي المسرحية بأغنية صارخة " أنني أحبك يا أميركا 00 لم أكن هناك وقد لا أكون 00 ولكني أحبك يا أميركا"!،0 وفي منتصف المسرحية نستمع لاغنية أخري من الكورس يقولون فيها للمتفرجين من صغار الشباب الذين نشأوا وقد حفظوا عن ظهر غيب قصيدة "مارشاك" : " لقد خدعكم العم مارشاك 00 فبلادنا لم تعرف المساواة ولم تعرف العدل، فهل ينتج عن هذا أن أميركا هي بلد الحرية والمساواة في العالم ؟ 0 هل ينتج عن هذا أن الشعب السوفيتي – كما تردد المسرحية – لم يفعل شيئا مفيدا علي مدي سبعين عاما ؟ 00 لماذا هذا الخلط بين نظام قمعي كالنظام الستاليني وعطاء شعب في مرحلة كاملة؟ 0 لماذا يجري تحقير المواطن السوفيتي انطلاقا من معيار غريب هو نوعية ملابسه وثيابه ؟ وهل تسعي مثل هذه الثقافة لاعادة البناء 00 أم لاستكمال الهدم ؟ 0 لقد شاهدت هذه المسرحية مع

الصديق الفنان محمد المخزنجي الذي كان يمر بموسكو في طريقه إلي كييف، وعند انتهائها سألني بذهول : هل يمكن لشعب ما أن يقوم بشيء أو يتجاوز أزمة وهو مشبع بالشعور باحتقار النفس وازدراء ماضيه بأكمله ؟ 0 ولهذا أقول أن شعار هذه الحركة الثقافية هو "أطفيء شمعة بدلا من أن تلعن الفجر" !0

السينما واغتيال الوعي

واذا انتقلنا إلي مجال آخر كالسينما، سنجد مثالا أكثر وضوحا حتي من مسرحية "وداعا أميركا" 0 مع أن هناك جانبا مشتركا بين المسرحية والفيلم الذي سأعرض له، وهذا الجانب هو أن العملين لا يسعيان للتعرض للواقع الحالي، قدر ما يركزان علي تناول قيم الماضي وهدمها 0 المسرحية تهدم "مارشاك" والفيلم يهدم فيلما آخر قبله تناول نفس الموضوع أي تجربة بناء محطات المترو في موسكو "الفيلم قديم اسمه "المتطوعون" تم تصويره عام 1958، ويصور قصة الرعيل الأول من شباب الكومسومول المتطوعين الذين قاموا ببناء المترو من أكبر متروهات العالم – في الثلاثينات في ظروف شاقة ، أما الفيلم الثاني الحديث فهو " فاسكا" وهو فيلم تليفزيوني من ثلاث حلقات عن رواية "سيرجي أنطونوف"0 ويصور الفيلم أيضا نفس التجربة، بناء المترو في الثلاثينات 0 فيصور أن هؤلاء المتطوعين قد جري جمعهم بمختلف الوسائل، وأن ذلك المشروع الضخم تم من دون تخطيط هندسي ! واتسم البناء بالفوضوي، أما الشاب "ميتيا" عضو الكومسومول فهو تائه وباهت ويبدو كأنه مسير بفعل قوي خارجية أو مجبر علي العمل 0 أما المشرفون علي البناء فهم شخصيات مضحكة لا تكف عن رفع حمالات السراويل طيلة الفيلم0 وكلما ارتفع حجر في

البناء سقطت أحجار أخري أكثر0 ويخرج المتفرج بانطباع أن بناء المترو كان عملية سخرو، لا هدف وراءها، قام بها مجموعة من الفوضويين لمجرد حب الشهرة0

وباختصار، فأن هذا الفيلم ومحاولته هو الآخر تشويه تاريخ حتي بناء المشاريع الكبرين قد ذكرني بالحملة التي شنت علي السد العالي – ليس لأن السد غير مطلوب – ولكن لأنه بني في عهد عبد الناصر0 وهذه المرة لن أقوم أنا بالرد علي ما قدمه الفيلم، ولكني أنقل لكم بعضا من ردود الناس الذين بنوا المترو حينذاك في الثلاثينات 0 يكتب "ستوبالوف" – وهو من أبطال العمل الاشتراكي وأحد بناة المترو :

وهل هذا جزاء من وهبوا حياتهم للأجيال التالية ؟ 0 وكيف تصور هذه التجربة وكأنها نوع من الفشل غير المبرر ؟0 لقد خرج من بيننا وزراء وأبطال وشعراء كبار مثل "سيرجي سميرنوف"00 ويالها من مرارة أحسسها حين أتذكر كيف محا المخرج كل بطولة وحماسة كانت تغمرنا"0 وأعتقد أن هناك خطا لابد أن يكون فاصلا بين العداء للتجربة الستالينية ومظاهرها القمعية، وبين العداء لما حققه الشعب السوفيتي نفسه0 لكن ثقافة الهدم تلك لا تعرف حدودا0 وقد كانت الانتلجنسيا المصرية حتي في عام 67 المرير، قادرة علي التمييز بين سلبيات النظام والتجربة الناصرية، وبين عطاء شعبها، ولم يخلط أحد أبدا بين نواقص النظام وتضحيات الشعب ، وهو ما تخلط بينه بعمد تلك الثقافة في السينما والمسرح والصحافة والتليفزيون وغير ذلك من وسائل الاعلام0

وقد كتب الروائي السوفيتي المعروف "يوري بوندرييف" مقالة هامة غي صحيفة "سوفيتسكايا روسيا" في 25 مارس، بعنوان "ماذا بعد ؟ " حاول فيها التصدي لتلك الظواهر، وتوضح هذه المقالة رد فعل المثقفين الحقيقيين علي ما يجري 0 ويقول الروائي الكبير :"ان المجتمع الذي تصبح الخيانة فيه علامة من علامات البطولة، ويصبح الشرف فيه عارا، مثل هذا المجتمع

محكوم عليه بالبؤس والتعاسة0 ان نخبة من رجال الاعلام قد قامت عن عمد لمدة أربع سنوات متصلة بحملة مركزة في المجال الثقافي والاعلامي بهدف هز ثقة المواطنين في مستقبل بلادنا، وهز ثقتهم في تاريخ وثقافة وحضارة أوطاننا0 وقد ألقت هذه الحملة إلي الوحل بكافة القيم الاخلاقية والانسانية، وأصبح التليفزيون السوفيتي يعرض قشور الثقافة والأفلام الهابطة ويروج لمختلف التفاهات00 فكيف لنا الآن أن نجمع شظايا مرآة الفن والثقافة بعد أن حطمتها تلك النخبة المسيطرة علي الاعلام ؟ 0 وقد امتد ذلك الانحطاط الي المسرح والسينما0 صارت تلك النخبة دولة داخل الدولة وهو الأمر الذي لم يحدث من قبل في أي بلد آخر في العالم0" وينتقل الكاتب الكبير من انتقاده لما يجري في المجال الثقافي الي الحلول الاقتصادية التي يعرضها العلماء علي المجتمع السوفيتي فيقول :" هل أن المخرج من أزمتنا أن تقوم الدولة بشراء سلع من الخارج بثلاثة عشر مليار روبل ؟ 0 أم أن نؤجر أراضينا للمستثمرين الأمريكان واليابانيين؟ أم أن نقوم – كما يقترحون علينا – ببيع مساحات من أرضنا للغرب لكي يدفن فيها النفايات المشعة ؟ 0 وما الذي يريدون دفعنا اليه أهو القروض التي تكبل الاقتصاد وتشله وتجعله تابعا ؟ أم قوانين السوق الحرة والبطالة والعبودية المقنعة ؟"0 ويختتم "يوندرييف" مقالته بتساؤل :" والآن ماذا بعد 00؟ ماذا بعد الكوارث التي هبطت علينا في تشيرنوبل ؟ وحلت بأرضنا وبحارنا وسمائنا ؟ وماذا بعد أن هبطت طائرة الطيار الالماني "روست" في الساحة الحمراء في وضح النهار ؟ ومن المسئول عن الانفجارات التي وقعت في كازاخستان وباشكيريا وغيرهما ؟0 نسأل أنفسنا من المسئول ولا نجد اجابة عن ذلك0"

وعندما ينتهي الانسان من قراءة مقالة "بوندرييف" يظل سؤاله يطن في الأذنين وفي الوعي : ماذا بعد 00؟ إلي أين تمضي هذه التجربة التاريخية الكبري ؟

مايو 1990

(5)

حرائق الصراع السياسي علي طريق المؤتمر 28

عندما يكون هذا العدد من اليسار بين يدي القاريء 0 يكون المؤتمر 28 للحزب السوفيتي قد بدأ عمله 0 أو أعلن عن ميعاد انعقاده خلال هذا الشهر 0 وقد كان المؤتمر الحزبي السابق عام 1986مؤتمر الانقلاب النظري فكريا وسياسيا، الانقلاب الذي بدل وجه العلاقات الدولية واقتلعها بجذورها من التربة التي نمت فيها حوالي قرن0

لكن برنامج "البيرسترويكا" الذي امتدت اليه الأيادي المشجعة في الخارج، قد تواثبت حوله في الداخل الأيادي المعارضة من اليمين واليسار، وأطبق عليه صقيع الأزمات الحقيقية0

وقد أشار جورباتشوف إلي صعوبة الأوضاع في الداخل قائلا :" نحن نعلمأن انعطافا هائلا حقا في حياة بلد عملاق ، في حياة شعب يقارب تعداده الثلاثمائة مليون، لن يكون انعطافا سهلا أو بسيطا" 00 وهكذا تمضي إلي المؤتمر المنتظر مختلف القوي السياسية التي تبلورت في السنوات الماضية لنحاسب البيرسترويكا عما قامت به وعما لم تقم به0

وتبرز وسط تلك القوي ثلاثة اتجاهات سياسية واقتصادية0

الأول :
اتجاه "جورباتشوف" وخط الوسط وهو الذي صاغ الوثيقة التي سيجري غلي أساسها تعديل برنامج الحزب واتجاهه ليصبح حزب "الاشتراكية الديمقراطية الانسانية"، مع التعددية الحزبية، والجمع بين التخطيط وقوانين السوق0

والاتجاه الثاني :
وهو اتجاه المحافظين ، أو "الرجعيين"، وأكبر رموزه هو "ليجاتشوف" عضو المكتب السياسي الذي يعتبر أنصاره أن البيرسترويكا هي انقلاب مضاد للثورة الاشتراكية يستهدف بعث الرأسمالية والملكية الخاصة والاستغلال وتفكيك المعسكر الاشتراكي0

أما الاتجاه الثالث :
فهو اتجاه "يلتسين" الذي يسترشد ببرنامج الأكاديمي "ساخاروف" الذي يدعو صراحة إلي التقارب مع النظام الرأسمالي العالمي مؤكدا أن الاشتراكية قد أكدت في التطبيق فشلها كنظرية، وأنها تنطوي علي أسس فكرية لابد أن تقود للنظم الشمولية وأن المخرج هو السوق الاقتصادية الحرة التي تضمن بدورها حرية الفرد وكرامته، وأن جورباتشوف في كل ذلك يمسك العصا من الوسط، وأنه قد استنفذ دوره كزعيم لمرحلة مؤقتة، وأن الوثيقة المعدة للنقاش في المؤتمر 28 قد كتبت علي حد قول يلتسين باليمني واليسري معا، وأن سياسة "جورباتشوف" الوسطية قد عمقت الأزمة بعد خمس سنوات من تاريخ البيرسترويكا لأنها لا تعمل بحسم نحو المجتمع الليبرالي بالياته الاقتصادية وأبنيته السياسية0

وما بين هذين الجناحين المتصارعين يمضي "جورباتشوف" بدفة وثبات مذهاين فوق شعرة رفيعة من الحلول الوسط مغلقة ما بين قوتين متنافرتين، ولكنه يمضي الي الأمامبينما تلاحقه مختلف الاتهامات، فهو عند الأصوليين "شيوعي مرتد" وهو عند الليبراليين "زعيم استنفذ مهامه"0

وفي اجتماع اللجنة المركزية (16 مارس) تكلم "ميشين" وهو من جناح ساخاروف فامتدح صلابة "ليجاتشوف" وأضاف ولكني أطالبه يالاستقالة أو الانتقال لعمل آخر ، أو التقاعد، لأن الحياة تفرض التجديد، وتكلم " يبروفيكوف " وهو من جناح المحافظين فهاجم جورباتشوف وقال إن الحزب الشيوعي يواجه بعد تسعين عاما من تأسيسه أكبر المخاطر التي تعرض لها، وأن النية منعقدة علي تحويله لناد وساحة برلمانية لتبادل الاراء الحرة، وأن قادة الحزب يتلون الصلوات علي روح الحزب بينما ينقلون كل سلطاته الي الرئيس الجديد "جورباتشوف" ! في نفس الاجتماع تكلم "ليجاتشوف" فقال ان ما يجري هو تراجع واضح عن الاشتراكية ولكن أمله أن يكون ذلك "هزيمة مؤقتة" 0 وقال أنه بدغوي انشاء حضارة انسانية موحدة يتم القضاء علي الاشتراكية وتقوية مواقع الرأسمالية العالمية ومواقع حلف شمال الاطلنطي0

وهكذا يشتعل الصراع واضحا ومكشوفا وعنيفا بين مجموعة المحافظين ومجموعة الليبراليين وتشتبك كل مجموعة منها مع سياسة الوسط وخط جورباتشوف في محاولة لجذب جورباتشوف بشدة الي الوراء أو دفعه للقفز الي الأمام0 وفي الدورة الاستثنائية الثالثة لمؤتمر نواب الشعب في منتصف مارس هاجم النائب المعروف "أفانسييف" (من جناح ساخاروف ويلتيسن) جورباتشوف بقوة قائلا "أن سنوات البيرسترويكا دليل ساطع علي أن قيادة جورباتشوف قد منيت بالهزيمة والفشل الكامل، وان هذه القيادة هي التي أدت بالبلاد الي الأزمة والأوضاع

الراهنة0 ولم يفته في تلك الأثناء أن يؤكد علي أن لينين قد أسس دولة للارهاب والاضطهاد لم يعرف لها التاريخ مثيلا0 أما "يلتسين" فقد صرح لجريدة "الادلة والحقائق" بأنه :"لابد من توفير ضمانات كافية للديمقراطية لكي لا يتكرر احتمال رومانيا في الاتحاد السوفيتي" أي احتمال الاطاحة بقيادة جورباتشوف 0 وفي الصراع الدائر ما بين رموز الاتجاهات الثلاثة سيتخد الجميع كافة الاسلحة الثقيلة والخفيفة، بدءا من التكتلات الحزبية والبرلمانية إلي اطلاق مختلف أنواع الشائعات0 وقد ظل " يلتسين " طويلا يروج أن للزعيم السوفيتي جورباتشوف حسابات في البنوك السويسرية، حتي اضطر جورباتشوف – في زيارته إلي منطقة الاورال في اواخر أبريل – الي الرد علي تلك الشائعات في خطاب علني قائلا :" أن امكانيات وخيرات يلتسين ضئلة سياسيا، وهو يكرر اسطوانة قديمة ومشروخة يقول فيها ان القيادة قد استنفذت مهامها وامكانياتها، وكل ما يقوله في هذا المضمار هو من مواقع ديماجوجية ومن المخجل أن يرد الانسان علي كل ما يجري من شائعات وتقولات00 ولكني مضطر للقول أنه ليست لدي أية حسابات مالية في البنوك السويسرية 00 أما عن عائداتي المالية من كتابي "البيرسترويكا والتفكير الجديد" ومن حقوق ترجمته فقد تبرعت بها، منها مليون روبل تبرعت بها لخزانة الحزب، ومائة ألف دولار لمستشفيات الاطفال00" ومضي جورباتشوف يعدد أوجه انفاق أمواله ردا علي الشائعات، وتنقية للجو من دخان حرائق الصراع السياسي00

ومن ناحية أخري وجهت أميركا دعوة "ليلتسين" للقيام بزيارة الي أميركا لالقاء عدة محاضرات في عدة جامعات بها وذلك في ديسمبر – يناير 1990 وفي تلك الفترة نشرت صحيفة البرافدا مقالة نقلا عن صحيفة ايطالية جاء فيها أن زعيم المعارضة البرلمانية الليبرالية "يلتسين" قد قضي أغلب وقته في أميركا وهو في حالة سكر متصل ليل نهار، وأنه أنفق ما تلقاه من أجر عن

محاضراته علي شراء القمصان الفاخرة وشرائط الفيديو والعطور وغير ذلك 0 وقام التليفزيون السوفيتي بعرض فيلم قصير عن رحلة يلتسين الي أميركا، وكان يلتسين يتحدث في الشريط بلسان ثقيل 0 وقيل فيما بعد أن التسجيل كان سيئا ولذلك خرج الصوت علي هذا النحو !

وبعد عودة يلتسين من أميركا اختفي عن انظار المجتمع فترة طويلة 0 وسرت مختلف الشائعات حول مصرعه !0 واضطر للادلاء لاحدي الصحف بتصريح قال فيه "انني علي علم بما يقال حولي الان 00 وكل ما في الأمر أنني مرضت بعد عودتي من هذه الرحلة، وأنا مضطر الآن لملازمة الفراش مدة"0 وفيما بعد صرح بأن هناك محاولة قد وقعت للتخلص منه ! 0 وقد يكون مدبرها هو الجناح المحافظ، \او القيادة نفسها !

أما عن الحرب علي "ليجاتشوف" فقد اتخذت مسارا آخر حددته قرارات "اندروبوف" بتطهير الحزب عندما تولي سكرتارية الحزب 0 وبدت قرارات أندروبوف كأنها لعنة الموتي التي تطارد الاحياء0 ففي عام 1983 كلفت الدولة – في عهد أندروبوف - محققين قضائيين مغمورين هما "جدليان" و "ايفانوف" بالتحقيق في فساد الاجهزة الحزبية الحاكمة في جمهورية أوزبكستان وحينذاك – كما يحدث في الافلام الاميركية – توجه المحققان الي الجمهورية البعيدة عن العاصمة للتحقيق فيما شاع من فساد ومن ذيوع الرشاوي واستغلال النفوذ 0

واكتشف المحققان المذكوران أن منطق المماليك هو الذي يحكم أوزبكستان، وأن رجال الحزب من الحلقة الوسيطة يجمعون الرشاوي ليدفعوا منها – لقاء الترقية الحزبية – للقيادات الاعلي في الجمهورية، وأن القيادات الأعلي تجمع الرشاوي لتدفع هي الاخري للقيادات الأكبر في المكتب السياسي في موسكو ! ويدفع الجميع لقاء البقاء أو الترقية في المناصب، لأن المنصب الحزبي هو في حد ذاته مفتاح الثراء والحياة المرفهة، واكتشف هذان المحققان أن مجموع السرقات قد بلغ في أوزبكستان –

في خمس سنوات فقط – مليارين ونصف مليار روبل ! وان هناك عددا كبيرا من قيادات المكتب السياسي متورطةفي تلك القضية وورد بين تلك الاسماء "ليجاتشوف" ولكن "جدليان" وايفانوف تمكنا من ضبط الادلة بشأن ثلاثة وأربعين مليون روبل فقط0 ومع هذا فان هذا المبلغ الصغير – بالقياس الي المليارات – قد كشف عن خيوط شبكة كاملة من الفساد، علي رأسها "تشيربانوف" صهر الراحل بريجنييف وكان نائبا لوزير الداخلية السوفيتي، ويسميرنوف" السكرتير الثاني للحزب في "مالدافيا" "خوداي بيرديف" رئيس مجلس وزراء أوزبكستان وآخرون كثيرون00 وقد جرت محاكمة كل أولئك وحكم علي بعضهم بالسجن لمدة طويلة بعد اعترافات مفصلة منهم 00 وكان "جدليان" و "ايفانوف" – وهما من نجوم المجتمع السوفيتي الان – يرأسان لجنة للتحقيق وصل عدد العاملين فيها إلي سبعين محققا قضائيا0 ورفعت هذه القضية سمعة هذين المحققين الي أعلي المراتب، وتم انتخابهما كنائبين في مؤتمر نواب الشعب، واشتد تأييد البسطاء لهما، وصار حديث كل بيت وكل أسرة 0 وبدت القصة كأنها قصة فيلم أميركي أو ايطالي، يحاول فيه المحقق الشريف أن يكتشف سر جريمة صغيرة فيقوده البحث إلي الؤوس الكبيرة في السلطة، لتتسع دوائر الصراع0 ووجد جناح الليبراليين في تلك القصة فرصة لضرب زعيم المحافظين "ليجاتشوف" الذي ورد اسمه في القضية، ومن ثم وقف يلتسين ومن معه وراء "جدليان" و "ايفانوف" لاستكمال التحقيق إلي النهاية، واكتسبت القصة أبعادا سياسية ترتبط بالدرجة الأولي بالصراع الدائر حول البيرسترويكا وطرق الخروج من الأزمة السياسية والاقتصادية الراهنة 0 وأخذ الجناح المحافظ يعمل بكل الطرق لمحاصرة القضية ووقفها عند حدها، فشن حملة علي هذين المحققين – بدعم من النائب العام "سوخارييف" واتهم المحققين بأنهما أثناء التحقيق في قضية أوزبكستان قد تجاوزا صلاحيات

المحقق القضائي وقاما بأساليب غير قانونية بانتزاع مختلف الاعترافات، واصدار الأوامر من دون سند باعتقال الكثيرين، وانهما لم يسجلا محاضر التحقيق بالصورة المطلوبة0 ونتيجة لتلك الحملة وافق مجلس السوفييت الاعلي علي فصل المحققين من عملهما القضائي، وتشكل لجنة برئاسة "روي ميد فيديف" للتحقيق في قانونية تحقيقات "جدليان" و "ايفانوف" 0 وطالبت النيابة العمومية للاتحاد السوفيتي برفع الحصانة البرلمانية عن المحققين لكي تتمكن من اعتقالهما 0 الا أن مجلس السوفييت رفض ذلك الطلب الاخير 0 وفي 17 أبريل قدمت لجنة "ميدفيديف" تقريرها لمجلس السوفييت عن عمل لجنة "جدليان – ايفانوف" وجاء فيه أنهما قد خرقا كافة القوانين الخاصة بالتعامل مع المعتقلين، علاوة علي أنهما يتهمان كبار القادة مثل "ليجاتشوف" و "لوكيانوف" من دون أي سند أو دليل بالتورط في القضية الاوزبكية وهاجم أنصار المحققين في جلسة مجلس السوفييت قرار اللجنة، واتهموا النائب العام للاتحاد السةفيتي بالتواطؤ مع المرتشين،وبأنه صنيعة المافيا السياسية في البلاد0 وقامت مظاهرة في نفس اليوم قرب فندق موسكو وغيره في العاصمة، طالب فيها المتظاهرون الحكومة بأن ترفع يدها عن "جدليان" و "ايفانوف" وأن تترك لهما فرصة الدفاع عن نفسيهما بل وفرصة استكمال التحقيقات لجمع باقي الرؤوس الكبيرة! وتشكلت لجنة شعبية أطلقت علي نفسها اسم "لجنة الدفاع عن جدليان وايفانوف"0

وفي قرار صدر عن مجلس السوفييت في 18 أبريل طالب المجلس النائبين المحققين بعدم الادلاء بأية تصريحات خاصة بقضية الرشوة سواء للصحف أو الاجتماعات العامة، طالما أن هذه القضية لم تحسم بعد 0

لكن المحققين استمرا – كما قالت النيابة العمومية للاتحاد السوفيتي – في الادلاء بمختلف التصريحات حول الرشاوي والقيادة0 وأنهما يؤكدان في مختلف الاجتماعات

الشعبية أن جورباتشوف شخصيا هو أيضا من المتورطين في تلك القضية !0 وقد نشرت صحيفة البرافدا في الثامن من مايو الحالي ما يلي : تحت عنوان "في النيابة العمومية للاتحاد السوفيتي" :

"رغم تحذير النيابة العمومية، ونذار مجلس السوفييت الاعلي في قراره في 18 أبريل، فان النائبين جدليان وايفانوف قد ضاعفا من حملة التلفيق والافتراء الموجهة ضد عدد من رجال الدولة والسياسة وضد رئيس الاتحاد السوفيتي 0 وهما في الاجتماعات الشعبية المختلفة وفي رسائل الاعلام يواصلان – دون اثبات – بدوافع وأهداف استفزازية، التأكيد علي مشاركة ميخائيل سيرجييفتش جورباتشوف في عمليات استغلال النفوذ وحماية عصابات المافيا0 لكي يضفي النائبان علي تلك الادعاءات صورة الحقيقة، فانهما يعتمدان علي شهادات لا أصل لها ولا فصل نقلا عن البعض حول خرافة قضية القفقاز (أوزبكستان) 00 وقد انضم الي هذه المغامرة السياسية الخطيرة بعض أعضاء مجلس النواب من أنصار "جدليان" ومن أنشطهم في هذا المجال النائبة "كورياجينا" وتري النيابة أن من واجبها أن تعلن أن النائبين لم يقدماأية أدلة واكتفيا بالاحاديث العامة الديماجوجية، رغم أن الاجهزة القضائية قد اقترحت عليهما الكشف عن مصادر تلك الشائعات والاخبار 0 أما النائبة "كورياجينا" فانها تعتمد بدورها علي ما يردده "جدليان" من تأكيدات عارية من الحقيقة والصحة 0 وبعد المراجع الشاملة والدقيقة لملفات القضايا الموجودة في أجهزة النيابة العامة ووزارة الداخلية والمخابرات تعلن النيابة العامة بكامل المسئولية عن أنها لم تجد في تلك القضايا أية شهادات أو معطيات من أي نوع قد تلقي بظل من الشبهة علي رئيس الاتحاد السوفيتي0 ومع ذلك يواصل النائبان بصورة استعراضية تجاهل قرار مجلس السوفييت وتحذير الاجهزة القضائية بوقف هذه التصرفات غير القانونية، ويقوم "جدليان" و "ايفانوف" و "كورياجنيا"

بمواصلة حملة الافتراء علي رأس الدولة بهدف زعزعة الأوضاع في البلاد0

وبعد ذلك وجه النائب "ايفانوف" رسالة مفتوحة الي جورباتشوف لم تنشرها الصحف الرسمية قال له فيها :" الرئيس جورباتشوف أتوجه إليكم بهذه الرسالة رغم أنني كما تعرفون لست من أنصار خطكم السياسي 0 لكن هناك حقائق يجب أن تعرف وأن تقال بشأن وجود اسمك في قضية الرشاوي الأوزبكية0 وأول تلك الحقائق أننا أنا و "جدليان" – أثناء فترة التحقيق الذي قمنا به لم نجد أي شيء يمسك أو يتعلق بك في تلك القضايا، ولسنا نحن – كما يروج البعض – مصدر تلك الشائعات 0 لكن مصدرها هو العقيد "دوخانين" من جهاز المخابرات، وأن تلك الشائعات لم تكن لتتطور الا بحماية رئيس المخابرات لها ولمن يروجها0 وقد حاولت أنا و "جدليان" أكثر من مرة دحض تلك الأقاويل فلم تمنح لنا الفرصة في صحف الدولة أبدا0 ولسنا نحن، لكن "ميدفيديف" هو الذي صرح ذات مرة لجريدة "المنبر العمالي" بأن ملف القضية يحتوي علي شهادات ضدك، وهو الذي صرح مرة آخري في 2 فبراير من هذا العام في اجتماع مفتوح للجنة مؤتمر نواب الشعب بأن هناك تحديدا 4 شهادات ضدك 00 وفيما بعد جري الزج أيضا باسم "يلتسين" في نفس القضية، وكل ذلك بهدف وحيد هو تلطيخ سمعة القادة السياسيين00"

ان حرائق الصراع السياسي هذه والتي يشعلها كل جناح علي طريق الاخرين، تمتد علي الطريق نحو المؤتمر الثامن والعشرين، وهي لا تلقي الضوء علي نزاهة هذا القائد أو ذاك، لكنها تلقي الضوء علي حدة الصراع الاجتماعي والسياسي الذي يدور حول طرق الخروج من الوضع الراهن، بينما يطرح المحافظون برنامجا ماركسيا "لغويا" فانهم لا يقدمون أي حل ملموس أو حتي مفهوم للازمة الاقتصادية، ويكتفون بترديد أهمية المحافظة علي الاشتراكية 00 لكنهم لا يقولون أية اشتراكية تلك ولا كيفية المحافظة عليها فعليا، ولذلك فقد خسروا في

الانتخابات الشعبية إلي برلمان روسيا، وكسب الليبراليون دعاة البرنامج الرأسمالي الواضح، فالليبراليون الذين لا يعدون الناس بوضع اقتصادي أفضل يعدون الناس بالديمقراطية والتعددية الحزبية، أما المحافظون والاشتراكيون الذين اعتادوا ادارة الاشتراكية من مواقع السلطة فإنهم لا يعدون الناس بوضع اقتصادي أفضل ولا بالديمقراطية00 ولذلك لم تستطع مجموعة المحافظين أن تستقطب من حولها أي تجمع داخل البرلمان، بينما تمكن الآخرون من تشكيل عدة محاور تكتلية، فهم داخل البرلمان، مجموعة الأقاليم "وتضم 300 نائبا، وهم داخل الحزب الشيوعي دعاة الوثيقة الديمقراطية، وهم في العملية الانتخابية، جناح روسيا الديمقراطي" وفي الحالات الثلاث سنجد مجموعة واحدة تسترشد ببرنامج "ساخاروف" وقد هددت هذه المجموعة بأنه اذا لم يستجب المؤتمر 28 لمطالبهم فأنهم سوف ينشقون ويشكلون حزبا خاصا بهم يدعون أنه سيكون حزبا جذريا وسيطرحون علي المؤتمر 28 إتاحة الحرية داخل الحزب لكافة التجمعات والغاء "الديمقراطية المركزية" بمعني الانتقال من ليبرالية الآراء إلي ليبرالية الحركة00

وقد نشأت في مواجهة هذه المجموعة حلقة تدعي "الماركسية اللينينية" وستقوم هي الأخري في المؤتمر القادم بطرح برنامج المحافظين الذي سيلتف حوله قطاع واسع من موظفي الأجهزة وغيرهم من المستفدين من الوضع البيروقراطي 00 ولديهم برنامج يدعو لديكتاتورية البروليتاريا، واعلاء الصراع الطبقي علي القيم الانسانية، ووحدة الحزب، ومكافحة الملكية الخاصة، والتشدد مع الغرب وأميركا وغير ذلك 00 وتهدد هذه المجموعة هي الاخري بالانشقاق عن الحزب اذا قام المؤتمر 28 يالاستجابة لمطالب الليبراليين، ويقولون أنهم سيطرحون في هذه الحالة ضرورة بعث الحزب البلشفي اللينيني لسحق الانتهازية اليمينية00

والمؤلم في هذه العملية كلها أن المواطنين البسطاء غائبون فعليا عن حقيقةما يجري من حولهم، بشأنهم هم، وبشأن مستقبل بلادهم 00 وان هناك معيارا واحدا يحكمهم هو النظر الي المحلات " هل هناك بضاعة أم أنها لم ترد بعد"00"هل هناك أطعمة أم أنها لم تأت بعد" 00 " ما هذا الغلاء ؟00 ما الذي جري للدنيا ؟ 00 وتترد أحيانا نبرة تتحسر علي الماضي الجميل، حين كان الهدؤ يسود كل مكان، وكان هناك ولو القليل من الطعام والامان 0 وفي ظل غياب قيادات سياسية حقيقية يشكل المواطنون البسطاء وعيهم الخاص بهم علي طريقتهم هم "فيقولون : لقد نست روسيا الاله، فنساها، وعاقبنا بكل ما يجري من حولنا"00

وحينما ينعقد المؤتمر الثامن والعشرون ستكون الأزمة هي بطلته الرئيسية، والمتحدثة الأولي وان تكلمت ونطقت بثلاث لغات، وثلاثة وجوه، وعشرات الأقنعة 000

يونيه 1990

(6)

انقسام حول

الاصلاح الأقتصادي

في 24 مايو 1990 أعلن "ريجكوف" رئيس الوزراء في الدورة الثالثة لمجلس السوفييت عن خطة الحكومة للاصلاح الاقتصادي0 ولم تلتقط آذان الناس علي الأغلب سوي أمر واحد هو زيادة الأسعار التي تقترحها الخطة وذلك حين قال ريجكوف "أن الدعم الذي تقدمه الحكومة لتصل السلع إلي المستهلك بأسعارها الحالية يصل الي مائة مليار روبل سنويا00 أي خمس ميزانية المدفوعات" وقال :"سيرتفع سعر الالبان والمنتجات المشتقة من الالبان مرتين0 ويرتفع سعر اللحوم وما يدخل فيه اللحم من مأكولات بنسبة "3و2 " أي مرتين وثلث تقريبا، والخبز والمكرونة وكل المعجنات سيرتفع سعرها ثلاث مرات 0 والأسماك مرتين ونصف، السكر " 8و1 " مرة، والزيوت "7و1" مرة، وسترتفع أسعار تذاكر الطائرات والقطارات بنسبة خمسين بالمئة،والأحذية والمصنوعات الجلدية بنسبة 35%، والأقمشة والمنسوجات بنسبة تتراوح من 30% الي 50%، والمواد المنزلية والكهربائية بنسبة 30%، والخدمات والمرافق والاصلاحات بنسبة 70% (ماعدا أجور السكن) 0علاوة علي رفع أسعار الوقود والطاقة بنسبة 82%، وفي مجال الصناعات الميتالورجية بنسبة 71%، والصناعات الكيماوية والأخشاب بنسبة 64%" وكان الناس يتحدثون قبل ذلك عن إحتمال ارتفاع الأسعار، ولكنهم لم يتوقعوا كل ذلك 0 فرغيف الخبز الذي كان يباع بخمسة وعشرين كوبيك سيصل سعره الي خمسة وسبعين كوبيك، وبذلك تنفق الأسرة – اذا كان استهلاكها ثلاثة أرغفة يوميا – حوالي سبعين روبل شهريا علي الخبز وحده، أي نصف متوسط مرتب الشخص 0

وخرجت الناس إلي المحلات تشتري كل شيء الكبريت والملح ومأكولات الأطفال والارز والمكرونة وكل ما يمكن شراؤه وتخزينه طويلا قبل الأول من يوليه القادم،

ميعاد رفع الأسعار 0 وترك الكثيرون أعمالهم واندفعوا للمحلات في ساعات العمل الرسمي حتي اضطرت قوات الشرطة للتدخل في العديد من الأماكن لتنظيم البيع والشراء 00 أما في داخل مجلس السوفييت الأعلي الذي استمع لخطة ومقترحات ريجكوف، فقد هاج النواب وطالب البعض منهم باقالة الحكومة لمجرد إعلانها عن هذه الخطة، علي الرغم من أن الخطة مطروحة للنقاش والاقرار أو الرفض من مجلس السوفييت نفسه 0 وقد لمست القيادة السوفيتية ما أثارته الخطة من فزع وفوضي وسط الناس حتي أن "جورباتشوف" وجد أنه من المناسب – بعد الاعلان عن الخطة بيومين فقط – أن يتوجه بخطاب طاريء الي الشعب السوفيتي يجمع بين التهدئة والحزم 0 فقال فيه :"أن الحديث في تقرير الحكومة عن رفع الأسعار قد أثار حذر وقلق الناس، وخاصة رفع أسعار السلع الضرورية كاللم والخبز وغير ذلك00 ولكننا اذا أخذنا حالة كالخبز فسنجد أن الناس في بلدنا يتعاملون مع الخبز بأهمال شديد، وأحيانا يشترونه لإطعام الحيوانات به، كما أن بقايا الخبز تملأ المزابل، بينما تشتريه الدولة بالعملة الصعبة من الخارج 000 وحين نتحدث عن أننا نمضي نحو السوق الموجهة (بتعبير آخر المحكومة) فأنه لا يغيب عنا أن هناك مصاعب ستترافق مع ظهور السوق، منها احتمالات ظهور البطالة نتيجة لإغلاق المؤسسات الخاسرة 00 وأنني أناشدكم ألا تستسلموا لحالة الفزع، وأدعوكم جميعا للتكاتف للبحث عن الطرق الأقل إيلاما للتوجه نحو علاقات السوق، وفي نفس الوقت فإننا لن نسمح بتوجيه الانذارات إلي الحكومة، ولابد للحكومة أن تمسك بين يديها بزمام الموقف0"

ومن الطبيعي أن يدافع "جورباتشوف" عن الخطة الاقتصادية،لأن خطوطها العامة مستمدة من وثيقة "مباديء التغيير الجذري في إدارة الاقتصاد" التي أقرتها اللجنة المركزية في يونيه 1987 بحضور "جورباتشوف"

وحينما قدم "ريجكوف"0 خطته المفصلة إجتمع المجلس الرئاسي الذي تشكل حديثا فأقر الخطة، وأكد "أبالكين" نائب رئيس الوزراء أن المجلس قد وافق علي كافة بنود الخطة، فالخطة ليست حركة متهورة من ريجكوف الذي وضعته ظروفه في مواجهة الاحتجاجات البرلمانية والشعبية، ولكنها خطة اللجنة المركزية كاملة، وقد عرض "جورباتشوف" خطوطها العامة في "الوثيقة البرنامجية" المقدمة للنقاش إلي المؤتمر الثامن والعشرين وتتضمن هذه الوثيقة الهامة سبعة أبواب، أهمها هو الباب الأول بعنوان "ماذا سنستبقي في جعبة الحزب الفكرية والسياسية"0 والباب الثالث بعنوان "الهدف هو اقتصاد سوق موجهة"0 ويهمنا هنا الباب الثالث الذي سيلقي الضوء علي جذور خطة ريجكوف للاصلاح الاقتصادي 0

تقول الوثيقة :" إننا ننطلق من أن السمة الأساسية للحقبة الجديدة هي نتامي تبعية البلدان بعضها للبعض تناميا موضوعيا0 وأنه لا يمكن تحقيق الاصلاح الجدي دون تغيير علاقات الملكية تغييرا عميقا00وهذا شرط لانضمام الاقتصاد السوفيتي الي شبكة العلاقات الاقتصادية العالمية وجعل الروبل عملة قابلة للتحويل 00 ومن الشروط الحتمية للتنمية الاقتصادية الفعالة توسيع رقعة مشاركة الاتحاد السوفيتي في تقسيم العمل الدولي والتعاون الدولي في مجال العمل 00 وان امتلاك الفرد لأدوات العمل العمل بما فيها وسائل الانتاج أمر لا يتعارض مع المرحلة الراهنة 00 " وتضع الوثيقة عدو شروط للانطلاق نحو الاصلاح الاقتصادي الجذري منها " اصلاح نظام وضع الأسعار "، "انشاء اقتصاد سوق يعتمد علي تعدد أشكال الملكية والتنافس"، و "تحرير الانتاج والتجارة والخدمات الاقتراضية والتأمينية من احتكار الدولة" 0 فليست خطة ريجكوف اذن سوي بلورة مفصلة للاتجاهات العامة لما جاءت به الوثيقة الحزبية0

وبعد خطاب "جورباتشوف" إلي الشعب السوفيتي في 27/ 5 ، خطاب التهدئة والحزم، بعده في 31/ 5

سافر جورباتشوف إلي واشنطن للقاء القمة، وفي لقاء له هناك مع أعضاء الكونجرس الاميركي فال لهم :" إن الخطة الاقتصادية هي ثورتنا الثانية000 ثورتنا الجديدة 00 فهي ثورة بكل معني الكلمة"0 والاصلاح الاقتصادي ليس ثورة ثانية بطبيعة الحال ولكنه امتداد الثورة الفكرية "الديمقراطية" التي تشمر عن ساعديها في مجال الاقتصاد 0 وقد سبق "الثورة الثانية" عمل تحضيري طويل، ظهرت فيه عدة قوانين مثل قانون الاستئجار، والأرض ، وتحويل المؤسسات للتمويل والمحاسبة الذاتية، وأيضا قانون "الملكية" الذي نشرته الصحف في يناير من هذا العام 0 وقد قال "بافل بونيتش" العضو بمجلس السوفييت الأعلي تعليقا علي مصدر القانون "الملكية" : :"كان القضاء علي الملكية الخاصة ثورة، وإعادتها أيضا ثورة" 0 فما هي الخطوط العامة لذلك القانون الذي أقرته الحكومة في 5 مارس من هذه السنة ؟

يقسم القانون الملكية إلي ستة أشكال :" ملكية المواطنين"، "والملكية الجماعية" "ملكية الدولة" "الملكية العامة" "الملكية عن طريق الايجار" "ملكية الشركات المشتركة والمواطنين والهيئات الاجنبية" وفي باب ملكية المواطنين يعترف القانون بحق توريث الأسهم والأوراق النقدية ووسائل الانتاج اللازمة لإدارة الاستثمارات 0 ويعرف القانون الملكية العامة بأنها ما يخص أكثر من فرد بغض النظر عن شكل الملكية، وتشمل ملكية المؤسسات المشتركة مع الأجانب والهيئات الأجنبية الشركات الصناعية وغيرها من الشركات والمباني والطرق والمعدات والمواد والدخول النقدية وغير ذلك 0 وينص القانون في نهايته علي أن الدولة ملزمة بحماية كافة أشكال الملكية السابقة والدفاع عن حق الملكية أمام القانون وعدم المصادرة، ويعرف القانون الملكية الجماعية بأنها ملكية الشركات

والمؤسسات المساهمة والمشتركة ويمنح هذه المؤسسات الحق في امتلاك وسائل الانتاج أيضا0

ويعتبر القانون أن كل أشكال الملكية – في الاحكام العامة – هي "ملكية اشتراكية" ولكن ذلك القانون مثله مثل قانون الاستئجار وقانون الأرض وقانون المؤسسات، لم يعجب المتحسين لفتح الابواب علي مصراعيها أمام علاقات السوق، لان هذه القوانين تحافظ علي الطابع الاحتكاري للدولة في كافة المجالات (شركة الطيران "الايرفلوت" مثلا هي شركة الدولة وشركة الطيران الوحيد)، كما أن هذه القوانين كلها توارب الباب ولا تفتحه، وعلي حد قول دكتور العلوم الاقتصادية "جافريل بوبوف" النائب بمجلس السوفييت :" فإننا نريد أن يكون لنا رأس المال، وأن نحافظ علي عفتنا في نفس الوقت، فنقول الملكية الفردية بدلا من الاعتراف بالملكية الخاصة صراحة" ويقول الأكاديمي عالم الاقتصاد "شاتالين" – عضو مجلس الرئاسة – احتجاجا علي وسطية القوانين :"كفانا ديماجوجية، وكفانا أدلجة، فلابد أن نعمل بكل قوانا لإنشاء سوق عصري طبيعي واني لأسألكم لمن تخضع شركة"جنرالالكيتريك" هل للجنة التنفيذية بمدينة تكاس ؟ إن الاقتصاد لا يمكن أن يخضع الا للقوانين الاقتصادية وضرائب الدولة المعقولة" 0 (مجلة الحقائق والوقائع 6 ابريل 1990)0 وتستدعي مجلة " الحقائق والوقائع " نفس العدد رأي "اريك شميد" مدير المعهد الاوروبي للتجارة الخارجية فيقول :" لا يمكن جعل الاقتصاد اقتصاد سوق بنسبة 30% واقتصاد دولة بنسبة 70%، كما لا يمكن للمرأة أن تكون حبلي بنسبة 30% وعليكم أن تدفنوا نهائيا كل المناقشات الخاصة بأفضلية الرأسمالية علي الاشتراكية أو العكس، أو أفضلية علاقات السوق علي الاقتصاد المبرمج أو العكس0 والاقتصاد السوفيتي المتطور لن ينهض علي الحلول الوسط بين البرمجة والسوق، ولكن اقتصادكم سينهض فقط بفضل علاقات السوق" وطالب أصحاب هذا الاتجاه وهم كثيرون للغاية

بعد التخوف من حيتان الرأسمالية الثلاثة، أي : الملكية الخاصة لوسائل الانتاج، والسوق، والرأسمال 0 وطالبوا باحلال الملكية الخاصة بدلا من ملكية الدولة، والسوق بدلا من الخطة، والرأسمال بدلا من الناتج الاجمالي 0 ومازالت هذه المطالب هي مطالب أقوي جناح سياسي وهو جناح من يطلقون علي أنفسهم "الديمقراطيين الجذريين"الذين يتزعمهم "يلتسين" 0 ودعا ممثلو هذا الاتجاه إلي علاج الاقتصاد السوفيتي عن طريق الصدمات، بل واستشهدت بعض الصحف بالتجربة المصرية في علاج الاقتصاد بالصدمات والتجربة البولندية في الاصلاحات الاقتصادية، وتعليقا علي ذلك يقول "نيكولاي بيتركوف"مساعد الرئيس في الشئون الاقتصادية:" عندما أدخل "مازوفيتسكي" نظام الأسعار الحرة في بولندا، قفزت أسعار السلع عدة مرات 0 وبعد وقت أصبح لدي البولنديين أسعار متوازنة وسلع متوفرة 0 وقد أعتاد البولنديون علي التضخم المالي اعتيادهم علي شر لابد منه، ومن ثم فإن اجراءات "مازوفيتسكي" القاسية لم تصبهم بالاحباط، وهم يتعايشون مع اتفاع الأسعار أفضل مما يتعايشون مع غياب السلع 0 أما عندنا في الاتحاد السوفيتي فإن الدراسات السوسيولوجية تؤكد الحلة المعاكسة 0 فالمواطن السوفيتي يفضل الوقوف في الطابور والحصول علي السلع بالبطاقات عن ارتفاع الأسعار0" (صحيفة منبر العمال 24 ابريل)0

وأغلب الخلافات حول الانتقال لعلاقات السوق، هي خلافات حول طرق الانتقال ، وايقاع الانتقال 0 هل يكون باطلاق الأسعار والملكية الخاصة وبعبارة أخري هل يكون العلاج بالصدمات 000 أم علي حد قول جورباتشوف " البحث عن أقل الطرق إيلاما 00" وقد نبه الاقتصادي المعروف "نيقولاي شميلوف"الي ذلك حين قال "هناك خطران يتهددان أية ثورة، وهما خطر القفز الطائش إلي الأمام، وخطر النزعة المحافظة التي تهدد بخنق الثورة" 0 وفي مواجهة الاقتراحات بتحويل السوق فورا إلي سوق

حرة قال جورباتشوف في اجتماع للجنة المركزية مع الاقتصاديين في ديسمبر 1989 :" انني أعرف شيئا واحدا، هو أن مثل هذه السوق ستدفع بالشعب كله إلي الخروج إلي الشوارع والاطاحة بأية حكومة مهما كانت تقسم علي وفائها للشعب:0

وما بين المنادين بملكية الدولة، والمنادين بالملكية الخاصة، تجد الوثيقة البرنامجية للحزب مخرجا وسطا ينص علي "ملكية وسائل الانتاج"ولكن تحت عنوان "الملكية الاشتراكية"00 ومع ذلك فان كل هذه الحلول الوسط هي خطوة أو خطوات لقلقلة الأوضاع التي كانت ثابتة يوما ما0 وحينما يتكلم المواطنون السوفييت فأنهم يقولون : ماذا ينتظرنا 00 الرأسمالية ؟ فليكن 00 فهل أن أوضاعنا ستكون أسوا مما هي عليه الآن ؟ ويتبدل وعي المواطن تحت ضربات الصحف والاعلام 00 وتسألني عاملة بسيطة :" ولماذا آكل مثلي مثلك، اذا كنت تشتغل أحسن مني ؟ "فأقول لها :" ولكنك قد تكوني مستعدة للعمل ليل نهار فلا تجدين عملامع ذلك في ظل الرأسمالية"0 فتقول : كلا 00 الكفء والنشيط يجد عملا دائما ! ومن الطبيعي أن يدور حوار مثل هذا مادامت هذه المواطنة تسمع من "يلتسين" بعد عودته من زيارة لاميركا قوله:" لقد سافرة إلي أميركا وبحثت عن الرأسمالية التي خوفونا بها فلم أجدها ولم أجد استغلالا 00" أو ما قاله "ترافكين" النائب بمجلس السوفييت الأعلي حين قال :" لقد زرت السويد منذ فترة بسيطو00 وأدهشني الوضع هناك وأنني أسأل هل أن القائلين أن الرأسمالية هي الاستغلال لم يكونوا في السويد أبدا ؟ لقد كانوا هناك، كما كان هناك أيضا علماؤنا الاقتصاديون، ولكنهم عن عمد يريدون تخويفنا بالرأسمالية0 وقد قال زميلي "تشيرنيتشنكو" الحقيقة عندما قال أننا نعاني من الجوع، لأن نصف البضائع التي رأيتها هناك لم يسبق لي أن رأيتها في حياتي أبدا" ! واستشهد الأكاديمي تيخونوف بما رآه في اليابان من

ازدهار مبني علي تجربة الشركات الصغيرة المساهمة والشركات المتوسطة 0 وأخيرا لننظر فيما يقوله الأكاديمي "بيتراكوف" مساعد الرئيس في الشئون الاقتصادية، شارحا ماركس :" إن الاشتراكية هي في المقام الأول نظرية لتوزيع الدخل 0 ونحن الآن نقول أن كل شيء لدينا مسموح به ما عدا استغلال الانسان للانسان0 لكن ما هو الاستغلال ؟ إنه كما يقول ماركس الحصول علي فائض القيمة0 ولكن اذا كان هناك انسان مقعد منذ مولده ويحصل علي إعانة من الدولة دون عمل 00 الا يعتبر هذا الانسان مستغلا للآخرين ؟"

هذا هو المناخ الذي يحيط بصدور خطة الاصلاح الاقتصادي والذي أحاط بها0 بل وخلقها0 وهناك جانب آخر من الصورة سأحتفظ به إلي ما بعد عرض خطة ريجكوف التي أثارة كل هذا الحديث0

وقد بدأ ريجكوف ثقريره بقوله "الارجح أن حكومة الاتحاد السوفيتيلم يتحتم عليها منذ عشرات السنوات أن تقدم إليكم يمثل هذا التقرير الصعب والطاريء 0 لا أتوجه اليكم وحدكم كأعضاء في مجلس السوفييت الأعلي ، ولكن الي كافة مواطني الاتحاد السوفيتي، فالتحولات التي ستقوم بها ستحدد مصيرليس هذا الجيل فحسب بل والاجيال القادمة، وقد قطعت بلادنا حمس سنوات كاملة من البيرسترويكا لتقوم بخطوة الاصلاح الاقتصادي تلك" 0 وأستعرض ريجكوف الوضع الاقتصادي في الاتحاد السوفيتي قائلا :" لأول مرة منذ عشرات السنوات تنخفض معايير الحجم المطلق للانتاج بينما تتزايد الدخول النقدية للسكان0 انخفض الحل القومي خلال أربعة أشهر فقط بنسبة 7و1% وارتفع الدخل النقدي الي 4و13% وفي السنتين الماضيتين فقط ارتفع دخول السكان بما قيمته مائة وخمسين مليار روبل، أي بنسبة 23% ويعادل ذلك نمو دخول السكان في السبع سنوات الماضية وينتظر هذا العام أن ينخفض حجم الناتج القومي الاجمالي ب 12 مليار روبل عما كان مخططا له0 ويتسبب

الصراع القومي والإضرابات العمالية وغيرها من الأضرار بالاقتصاد، وعلي سبيل المثال فقد انخفض الانتاج – في الأربعة أشهر الماضية فقط – في أذربيجان بنسبة 18% وفي أرمينيا بنسبة 9%، وفي جيورجيا بنسبة 8% وعمت هذه الظاهرة جمهوريات بحر البلطيق ، ونتيجة للاضطرابات فأنه في الفترة من يناير إلي أبريل هذا العام بلغ حجم وقت العمل المفقود 5و9 مليون ونصف يوم عمل 0 وأدي انهيار قيمة الروبل الي تطور التبادل الطبيعي بين المؤسسات (مبادلة السلعة بالسلعة)، مما يعني العودة إلي الأشكال البدائية للتبادل التجاري، واتسع نطاق الأشكال المشوهة لتوزيع السلع، وفي نفس الوقت فإن الدولة بحاجة الي 17 مليار روبل لتنفيذ المشاريع المطلوبة منها والتي التزمت بها علي مدي حمس سنوات 0 هذا بينما أقر مجلس السوفييت الأعلي للانفاق علي هذه المشاريع لا أكثر من 4و13 مليار روبل 0 واذا اكتفينا بما أقره لنا مجلس السوفييت فإننا سننفذ تلك المشاريع في عشر سنوات علي الأقل "، ويمضي التقرير يناقش "الوضع العام والآثار المحتملة للانتقال إلي علاقات السوق الموجهة فيقول :" لقد حددنا طريقنا عام 1987 بالانتقال إلي علاقات السوق 0 لكن ذلك الانتقال سيسبب بعض المصاعب وستنجم عنه آثار علينا أن نتفاداها ،

وأولها أنه سيكون علينا أن نوفر حماية للمواطنين غي وجه تلك الصعوبات، ولإنشاء السوق لابد لنا من تأمين الاستقلالية الفعلية للمؤسسات، وذلك كله مرتبط بالموقف من تأمين علاقة جديدة بشأن قضية الملكية الخاصة، ولابد لنا من اصلاح نظام الأسعار ليستجيب لقوانين العرض والطلب، واشاعة المنافسة بين المؤسسات0 ويتطلب الانتقال للسوق أيضا انشاء نظام فعال للحماية والضمان الاجتماعي للسكان في مواجهة ارتفاع الأسعار، والبطالة 0 كما تلزمنا قوانين وتشريعات حقوقية تحمي علاقات السوق 0 وقد اقترح البعض من

الاقتصاديين علينا أن نطلق الأسعار وأن نسمح بحرية اقامة المشاريع الخاصة علي الفور ودون يقود، واقترح علينا أولئك الاقتصاديون مختلف الطرق لمواجهة التضخم الذي سينشأ حينئذ، ولكننا رفضنا ذلك الاقتراح لأنه فعليا يؤدي إلي الأخذ بمنهج علاج الاقتصاد بالصدمات، ولكن الحكومة تري أنه للمرحلة الراهنة لابد من الجمع بين رقابة الدولة وبين علاقات السوق للمضي بالتدريج نحو علاقات السوق 0 ولذلك نقترح المحافظة علي الأسعار الثابتة لبعض السلع الهامة التي تدعمها الدولة، وفي نفس الوقت تقل بالتدريج الطلبيات الحكومية الالزامية التي تلزم بها الدولة المؤسسات 0 وستكون خطتنا أن نعمل في اتجاه علاقات السوق علي مراحل ثلاث :

الأولي : هي المرحلة التحضيرية وتمتد إلي نهاية هذا العام ويجري فيها :

أ – إعداد وإقرار التشريعات الحقوقية التي تكفل حماية علاقات السوق0
ب – إصلاح نظام الأسعار التدريجي مع رقابة الدولة ودعمها لبعض السلع0
ج – إنشاء نظام مدروس يكفل الحماية والضمانات الاجتماعية للسكان وخاصة محدودي الدخل0

الثانية : وتمتد من عام 1991 حتي نهاية 1992 ويجري فيها :

أ – تعديل نظام الأسعار بحيث تقل رقابة الدولة بالتدريج00
ب – دعم التنويع المتزايد لأشكال الملكية الخاصة والمشاريع الخاصة0

ج – وضع الأسس للسياسة المالية والائتمانية والاقتراضية وتؤدي هذه المرحلة الثانية لخلق المقدمات الهامة لعلاقات السوق0

الثالثة : وتمتد من 1993 حتي 1995 ويجري فيها :

أ – تطوير علاقات السوق بصورة مكثفة وفعالة وتتقلص فيها علاقة الدولة الادارية بمختلف المؤسسات الإنتاجية 0

ب – تتزايد في هذه المرحلة عملية المنافسة في مواجهة احتكار الدولة ويكفل كل ذلك عملية انتقال تدريجية من احتكار الدولة للمؤسسات إلي حرية المؤسسات والمشاريع وتشكيل السوق التي تظل في المرحلة الراهنة سوقا موجهة بمعني أنها خاضعة بدرجة ما لرقابة الدولة 0

ويمضي ريجكوف للحديث عن أنه من الضروري إنشاء سياسة ائتمانية ومالية تستنهض الاقتصاد، وإنشاء نظام ضرائب تصاعدي يتناسب مع الدخول 0 ثم ينتقل إلي الحديث عن العجز في الميزانية قائلا : "إن ثلثي الميزانية تنفق في المشاريع العامة والدعم، ولكننا مع تشكيل السوق سنعتمد في الإنفاق علي المرافق والمشاريع العامة علي النظام الضرائبي، وتنظر الخطة في إنشاء نظام بنكي علي مستويين، الأول بنك الدولة وتنحصر وظيفته في ضبط حجم الكتلة النقدية، والمستوي الثاني من البنوك ويفترض أن تكون بنوكا متخصصة تقوم علي المساهمة مثل بنك للإنشاء والتعمير، ويفترض لها أن تمنح القروض وأن تكون مستقلة تماما 0 وتعد السوق المالية جزءا عضويا من السوق ونظامه، ويدخل فيها السوق الائتمانية والسندات والأوراق المالية، ويعني ذلك تأسيس شبكة من البنوك التجارية لمختلف الأغراض 0

وبعد ذلك ينتقل ريجكوف إلي نظام تعديل الأسعار الذي أشرنا إليه، من قبل ويقول : "ان نظام الأسعار الحالية هو بالتحديد ما يعرقل الانتقال إلي السوق، فهذه الأسعار لا تتناسب أبدا لا مع تكلفة السلع ولا مع الأسعار العالمية0 والمواد الغذائية تباع أقل من أسعارها بثلاث وأربع مرات، وعلي سبيل المثال فان كيلو اللحم البقري الذي يكلف الدولة خمسة روبلات و 88 كوبيك، يصل إلي المستهلك بسعر روبل واحد و 81 كوبيك وتدعم الدولة منتاجات الألبان بمبلغ 45 مليار روبل سنويا – واقترح ريجكوف – الذي يقف في وجه المدفع مذكرا بزكريا محيي الدين رافع سعر الأرز – رفع سعر الخبز ومشتقاته بدءا من يوليه هذا العام ، ورفع أسعار السلع الاخري بدءا من أول العام المقبل، وقدم ريجكوف خطة الحكومة لرفع الأسعار علي الشكل التالي :

1 - نسبة الزيادة للمواد الغذائية
230% (3و2 مرة) اللحوم ومشتقاتها 0
250% (5و2 مرة) الأسماك 0
200% (مرتين) منتجات الألبان 0
300% (ثلاث مرات) الخبز ومشتقاته 0
180% (8و1 مرة) السكر 0
170% (7و1 مرة) الزيت0

2 – نسبة زيادة السلع غير الاستهلاكية
من 30% الي 50% النسيج ومنتاجاته0
35% الأحذية 0
30% الادوات المنزلية 0
50% مواد البناء 0

3 – نسبة الزيادة سلع أخري
82% الكهرباء ومنتجات الطاقة الأخري0
71% منتجات الميتالوجيا (المعادن)0

64% المنتجات الكيماوية 0

في الوقت نفسه فقد قدمت خطة ريجكوف تصورا لمحاولة تعويض السكان عن رفع زيادة الأسعار علي النحو التالي :

التعويضات

مقدار التعويض للفرد بالروبل للسكان

30 روبل الأطفال أقل من خمس سنوات0
35 روبل الأطفال من 6 سنوات إلي 12 0
39 روبل الأولاد من 13 إلي 17 0
35 روبل طلبة المعاهد والمدارس الفنية 0
اقتراحان الأول :
تعويض ب 45 روبل شهريا 0 العمال 0
الثاني :
15% من الأجور علي الا يقل التعويض عن 40 روبل 0
35 روبل علي المعاش وليس له عمل آخر 0
20 روبل المعالون (باستثناء الأطفال) 0

وبالنسبة للتعويضات، فقد أثبن أحد نواب مجلس السوفييت الاعلي ، أثناء نقاش التعويضات أن زيادة سعر الخبز وحده ستقتطع من الأسرة المتوسطة الدخل 40 روبل شهريا، ومن ثم فإن هذه التعويضات لاتمثل قيمة فعلية 0 (خطاب ريجكوف والجداول مأخوذة من جريدة الايزفستيا في 25 مايو)0 وبالنسبة للقطاع الزراعي يحدد ريجكوف ثلاث نظم للأسعار أولا أسعار ثابتة تحددها الدولة، وثانيا أسعار موجهة من الدولة حيث تضع سقفا لايبيع المنتج بأكثر منه، وثالثا الأسعار الحرة التي تتشكل في عمليات العرض والطلب 0 ومع تشكيل علاقات السوق تتقلص الأسعار الموجهة المحكومة وتتزايد حرية

الأسعار، والمفترض أن تمضي عمليات التناسب هذه بين النظم الثلاثة للأسعار لتكون عام 1991 علي النحو التالي : 55% من السلع (التجزئة) بأسعار الدولة، 30% أسعار موجهة محكومة 0 ومن 10% إلي 15% أسعار حرة 0 ويقول ريجكوف أن الدولة ستحصل علي 8 و198 مليار روبل من رفع الأسعار، ستخصص للدعم منها 135 مليار روبل وهناك سلع لن تدعمها الدولة ولن تقدم تعويضا عنها مثل الخمور، والمصنوعات الذهبية، والسجائر، والأنواع الرفيعة من اللحوم والأسماك، والسلع الحديثة الستهلاكية، وبعض الادوات المنزلية، وتذاكر السفر بالقطارات والطيران 0

وفي باب "علاقات الدولة بالسوق" يقول ريجكوف أنه لكي لا تتعشر تجربة تشكيل السوق لابد من العمل في ثلاثة اتجاهات توفر ثلاثة شروط أساسية للسوق، وهي : كسر احتكار الدولة للموارد، وأشجار الغابات والاسمنت ومواد البناء والطاقة، فاستمرار الدولة في التحكم في تلك المواد يجعل من حرية المؤسسات الخاصة حبرا علي ورق، ثانيا كسر احتكار الدولة للانتاج (فعليا كسر الطابع المبرمج للافتصاد) وكانت الدولة تنفذ الخطة الاقتصادية بواسطة " الطلبيات الحكومية الالزامية" التي تلزم بها الفروع الانتاجية، وتقليص الطلبيات الحكومية (الخطة) بحيث تقتصر بالتدريج علي الفروع التالية: تغطية احتياجات الدولة الدفاعية، الثقافة، التعليم، والصحة، تطوير العلوم والتكنولوجيا، تنفيذ عمليات التصدير، وعلي أن تكون طلبيات الدولة بشروط مريحة للمؤسسات التي ستقوم بتنفيذها 0 وأخيرا كسر احتكار الدولة لعمليات التوزيع، وبعد ذلك تظل للدولة المجالات العامة فتشرف عليها وبهذا ينشأ التوازن المطلوب بين الدولة والسوق 0

هذه هي الخطوط العامةالتي طرحها ريجكوف خطة للتنمية، الخطة الثالثة عشرة كما يري القاريء مختلفة من أوجه كثيرة عن كل خطط التنمية الاثني عشرة التي أعتمد عليها الاتحاد السوفيتي فيما مضي 0 وأول ما لا

حظه الكثيرون علي الخطةهو طابعها التدريجي في الانتقال إلي علاقات السوق، والعبارات التي تفسر بأكثر من معني، والحلول الوسطية، لكن هذا الطابع التدريجي هو المخرج الوحيد الآن 0 فالانتقال الفوري للسوق قد يؤدي لخطرين الأول ما أشار اليه جورباتشوف، أي أمكانية خروج الجماهير للشوارع، والثاني وهو ما لم يرد في حديث جورباتشوف ، وهو خطر الصراع المكشوف الذي سينشأ حينئذ بين البيروقراطية ودعاة السوق الحرة 00 هذا بينما ينطوي الانتقال التدريجي علي خطر واحد هو صعوبة الأوضاع الاقتصادية واستمرارها لفترة أطول 0

وعندما اقترح ريجكوف في نهاية عرضه للخطة أن يتم نقاشها شعبيا علي مستوي الصحف والاجتماعات سأله أحد النواب : " أتظن أن هناك شعبا يقبل بالغلا ؟ ان رأي الناس معروف مسبقا "0

ولكن الدعوة لرفع الأسعار، لم تصب الناس وحدهم بالدهشة والفزع، بل أنهاقد أدهشت وأثارة غضب دعاة السوق الحرة أنفسهم 0 وقد علق علي ذلك "بافل بونيتش " النائب قائلا : "هناك علاج للاقتصاد بالصدمات00 لكن ذلك صدمة دون علاج" 0 وتساءل الكثيرون : "لماذا تبدأ الخطة التي تحاول إنشاء السوق برفع الأسعار بالذات ؟ لماذا لا تبدأ بخلق مقدمات السوق، ولتدع السوق نفسها لتحدد بنفسها الأسعار التي تناسبها" وتساءل البغض من النواب أثناء نقاش الخطة : "اذا كانت الحكومة تريد سد العجز في الميزانية فلماذا – كما دعا الأكاديمي جريجوري ارباتوف – لا تشرع الحكومة بتخفيض جذري للإنفاق الحكومي غير المبرر ؟ (بالمناسبة يصل عدد السيارات التي تؤمنها الدولة لكبار الموظفين إلي مليون سيارة، تكلف السيارة الواحدة سنويا حوالي عشرة ألاف روبل صيانة وراتب ووقود، وبذلك تنفق الدولة علي هذا الأمتياز وحده عشرة مليارات سنويا!) ولماذا لا تشرع الدولة في تخفيض النفقات

العسكرية وتحويل الصناعات الحربية إلي مجال الإنتاج المدني ؟

وفي حوار مع الأكاديمي "شاتالين" (الايزفستيا 24 / 3) قال : " لابد قبل كل شيء من تمهيد التربة وإعداد الهياكل الأساسية للسوق إعدادا دقيقا، أي إنشاء نظام نقدي – ائتماني جديد، وسياسة مالية ونقدية وسعرية وخزانية جديدة، ونظام مصرفي جديد، ونظم حماية اجتماعية لمحدودي الدخل000 وبدون ذلك لايقدم علي نظام السوق سوي الراغبين في الانتحار"0 ولكن الخطة تترك ذلك كله لترفع الأسعار، ومع وعود بالتعويضات التي قال عنها "شاتالين" في نفس الحديث : "كان بودي بالطبع أن أضمن تعويضا عن الخسائر لجميع السكان، ولكني كاقتصادي وعالم رياضي أعتقد أن هذا مسألة مستحيلة الحل عمليا" ويكتب القارىء "بارخانوف" من مدينة خاركوف إلي صحيفة الايزفستيا (15 / 6) قائلا : "وعدتنا الحكومة برفع مستوي المعيشة، فرفعت الأسعار وحدها"0 ويقول القارىء "لافرينكو" : "سيزداد الأغنياء غني، ويزداد الفقراء فقرا، وهذه هي الخطة" 0 ويسأل "ماسكالينكو" في نفس العدد من الايزفستيا : "هل أن قادتنا معزولون عن الشعب إلي هذه الدرجة ؟ إلي درجة أنهم لا يستطيعون أن يقدروا أو يتصوروا مدي الفزع الذي سيصاب به الناس برفع الأسعار في ظروف الاختفاء التام للسلع ؟ "0 ويقول الأكاديمي "تيجونوف" : "أن البرنامج – إذا نحينا جانبا صياغاته غير المحددة أو الواضحة – يقتصر فعليا على أجراء واحد هو رفع الأسعار، وليس ذلك سوي تحضير لدورة أخري من أسعار الدولة الاحتكارية " 0 ويري الأكاديمي "أجانيجيان " أن استمرا البيرسترويكا من عدمه يتوقف على الطريقة التى ستحل بها مشكلة الأسعار 0

وهناك جانب آخر من صورة أخرى تضم الذين يرفضون الدعوة للسوق من أساسها 0 وعلى سبيل المثال فقد رفض عمال المناجم في مؤتمرهم بمدينة" دونيتسك

"(13 / 6) خطة ريجكوف، وقالوا أن الحكومة تريد أن تحل مشاكلها على حساب العمال ويتناول الأكاديمي " لابتييف " المألة من ناحية أخرى، فيقول في اجتماع الاقتصاديين : " ينتشر الآن هوس لتصفية ملكية الدولة 00 فإذا سمحنا بالملكية الخاصة فاننا نسمح للمافيا بالاستيلاء على السلطة الاقتصادية " ويتسأل " يوزجالين " سكرتير مجموعة الماركسيين (تنظيم جديد) : " ماذا بعد الديمقراطية ؟ هل سنمضى على الطريق الرأسمالى الغربى ؟ وهل نصبح في هذه الحالة مثل السويد التي نحلم بها00 أم مثل بنجلاديش ؟ " 0

وأخيرا، تنشر الايزفستيا (15 / 6) بعضا مما دار غي مجلس السوفييت الأعلى عند مناقشة الخطة، فتورد حديث النائب " شرخوف " – وهو نائب شعبى لاتنفذ حيله فى التعبير عن رأيه – الذى صاح في البرلمان : " لا عودة للرأسمالية000 التى تصفق لنا من الخارج وتهدم بلادنا في الداخل0 إن القادة لا يعلمون كيف يعيش الشعب 0 وقد استلمت احدى المؤسسات الحكومية التي يعمل بها 120 شخصا، استلمت طردا من الحكومة بداخله عشر جوارب رجالى وخمسة عشر جوربا حريمي 00 وسألونى وأنا نائبهم المنتخب : كيف نقسم هذه الجوارب علينا ؟000 ردها من فضلك إلى مجلس السوفييت الأعلى ليتصرفوا هم فيها " واستدار النائب " سرخوف " إلى المنصة حيث تجلس رئاسة مجلس السوفييت، وأخرج لفة بها الجوارب0 وتركها لهم عند المنصة مواصلا حديثه ! حتي أن الايزفستيا طالبت باتخاذ إجراء ما مع " سرخوف " لأن ما فعله مع رئاسة المنصة لا يجرى فى أي بلد متحضر، وبالمناسبة فقد كان التليفزيون يذيع كل هذه الجلسات مباشرة دون حذف 0

ولم يتخذ مجلس السوفييت بعد قرارا باعتماد الخطة وانتهى إلى تأجيل النظر فيها لحين انعقاده بعد أجازته التي تبدأ في 15 / 6 0

وستكون الخطة الاقتصادية أحد المواضيع الرئيسية التي سيناقشها المؤتمر الثامن والعشرون للحزب، الذي سيفتتح أعماله في الثاني من هذا الشهر 0

تري هل كان جورباتشوف علي حق عندما قال أنها – من بعض النواحي – ثورة جديدة ؟ 0

يوليه 1990

(7)

المؤتمر الثامن والعشرون 00

ما الذي قدمته البيرسترويكا ؟

في 19 يونيه الماضي ألقى جورباتشوف كلمة مطولة في مؤتمر المنظمات الحزبية الروسية التي انبثق منها الحزب الشيوعي الروسي فقال : " غالبا ما يطرح السؤال التالي حتى الآن : ما الذي قدمته البيرسترويكا ؟ 0 ويتعجب الإنسان لذلك التناقض الواسع بين المواقف من البيرسترويكا والحكم عليها0 فبينما ينظر البعض إلي ما جري باعتباره حدثا ثوريا عظيما، يبدو ذلك في عيون

البعض الآخر وكأنه انهيار ودمار لكل شيء وكالاثة حقيقية "0 وبذلك مد جورباتشوف يده إلي السؤال الكبير المعلق كالدهشة في سماء المجتمع السوفيتي0 ما الذي قدمته البيرسترويكا حقا ؟ 0 هل أنها النيران التي التهمت المعسكر الاشتراكي فدمرته وجعلته لقمة سائغة 00 أم أنها حدث ثوري تاريخي يمكن – علي حد قول جورباتشوف – مقارنته : " بأكبر الانعطافات الثورية وأكثرها حدة في تاريخ العالم ؟ "0

ما بين هاتين الضفتين المتباعدتين في الحكم علي البيرسترويكا تموج أفكار كثيرة، وأسئلة بلا نهاية، وحيرى عميقة، حيرة يمكن القول أنها موقف الغالبية العظمي من الناس والمواطنين السوفييت 0 وما بين هاتين النظرتين احتشد المؤتمر الثامن والعشرون للحزب الشيوعي السوفيتي مثل جسد عملاق ومشلول 0

يتطلع الناس إليه ولا يدرون ما هو بالضبط ومن هو تحديدا 00 هل هذا هو حزب 1917 الذي قاد أعظم وأخطر ثورة في القرن العشرين وأكثرها إنسانية ؟ أم أنه حزب ستالين الذي لم يدع رأسا إلا وقطعه محولا الحياة إلي صورة مرعبة وكئيبة ؟ أم أنه حزب الإداريين والمرتشين والموظفين الذين جعلوا من الإمضاءات والتواقيع مصدر ثروة في عهد بريجنيف ؟ أم أنه حزب البيرسترويكا التي تقيم أعمدة البيت الأوروبي المشترك بيما تتهاوي أعمدة البيت السوفيتي المشترك ؟0 لقد اندمجت في ملامح " الحزب الشيوعي السوفيتي " عدة أحزاب 0 وكان السؤال الأول قبل انعقاد المؤتمر هو ما هو هذا الحزب ؟ 0 ولأن أحد لم يستطع الإجابة عن ذلك السؤال بدراسة واضحة وعميقة تلتقط من تلك التحولات خيطا واحدا مستمران فقد أصبح الحزب بالنسبة للناس عدة أحزاب تلت الصحف لخمس سنوات توجيه الضربات إليها جميعا، وسالت دماء التطبيق علي وجه النظرية ونجحت الحملات العنيفة علي الماركسية في اشاعة الحيرة وحدها ولا أكثر0 وفي هذا المناخ انعقد المؤتمر الثامن والعشرون الذي كشف عن

قدرات جورباتشوف المذهلة في التحالفات المؤقتة وكسب الخصوم وضرب الأعداء الميؤس منهم مثل " ايجور ليجاتشوف "ن وخلق مراكز قوي لموازنة مراكز قوي أخري، وتقبل أشد أنواع النقد برحابة صدر0 وما جري في قاعة المؤتمر هو ربع ما جري وراء الكواليس التي بدل الكثيرون وراءها مواقفهم مثل " جيداسبوف " الذي بدأ متشددا في البداية ضد جورباتشوف وانتهي بموافقته 0 وقد كشف المؤتمر عن أن أقوي القوي السياسية في الاتحاد السوفيتي هو جورباتشوف نفسه بالرغم من الضوضاء التي تصدر عن القوي الاخري مثل جماعة الاصلاحيين والتصلب الذي تبديه مجموعات اشتراكية ما قبل البيرسترويكا 0 ولا يستند أحد من هذين الجناحين إلي برنامج واضح كما يستند جورباتشوف 0 وليس من بينهم متحدث واحد مقنع مثل جورباتشوف، وعلي الرغم من أن اشاعات كثيرة كانت تروج حول أن جورباتشوف سيترك الحزب الا أن اهتمامه الشديد بالمؤتمر وما قام به يثبت أنه لن يغامر بترك 19 مليون عضو (عدد أعضاء الحزب الشيوعي) نهبا لاتجاه ما أو زعامة أخري 0

وقد سبقت المؤتمر عد أحداث هامة حددت الكثير 0 وأولها إنشاء مؤسسة الرئاسة التي تنقل فعليا مركز القرار السياسي إلي الرئاسة 0 وثاني هذه الأحداث إنشاء الحزب الشيوعي الروسي بزعامة "بولسكوف" وقد تمترست في هذا الحزب الكتلة البريجنيفية والتي يتجاوز عددها أكثر من نصف أعضاء الحزب السوفيتي كله0 وفي نفس الوقت فإن فوز " يلتسين " بموقع رئيس مجلس السوفييت لجمهورية روسيا قد عزز مواقع " الاصلاحيين الغربيين "0 وبذلك تبلورت فعليا قبل انعقاد المؤتمر كتلة جورباتشوف في الؤسسة الرئاسية ، وكتلة المحافظين في الحزب الروسي ، وتجمع الاصلاحيون حول يلتسين علاوة علي أنهم قد فازوا برئاسة مجلس مدينة " موسكو " (جابرييل بوبوف) ومجلس مدينة لينجراد (سابتشاك) 0 وبدا من عملية تجميع الصفوف هنا وهناك أن الصراع قد

ينفجر في المؤتمر 280 وقد خرجت بالفعل من الحزب مجموعة من كتلة يلتسين، لكن أثرها كان هزيلا، كما خرج – بمعني أدق اخراج – ليجاتشوف الذي اتضح أنه عديم التأثير هو الأخر 0

بيان برنامجي للمؤتمر 28 00

لقد أسقط المؤتمر 28 برنامج الحزب الشيوعي واعتبره غير موجود، واستعاض عنه بوثيقة أطلق عليها "البيان البرنامجي" سيظل الحزب يعمل علي ضوئها حتي عام 1991 فيعد برنامجا جديدا متكاملا يستقي هيكله العام وأهدافه من "البيان البرنامجي" وما قد يستجد عليه من تطوير 0

فما الذي تتضمنه تلك الوثيقة من أفكار ؟0 وما الجديد الذي جاءت به ؟0

اختارت الوثيقة لنفسها عنوانا هو "نحو اشتراكية ديمقراطية وانسانية" وقد أثار العنوان نفسه جدلا شديدا داخل المؤتمر، فطالب البعض – ما دام الهدف ليس الاشتراكية العلمية ولا الشيوعية – أن يبدل الحزب الشيوعي تسميته ليصبح الحزب الاشتراكي الديمقراطي، كما احتج البعض الأخر بأن الاشتراكية والشيوعية تتضمن – من تلقاء نفسها – المضامين الديمقراطية والإنسانية 0 ويقول البيان محددا طبيعة الأزمة الراهنة بأنها نتيجة ل "عجز النظام السلطوي البيروقراطي عن دفع البلاد إلي مجري التقدم الحضاري00 نتيجة للتصورات الخاطئة حول الاشتراكية باعتبارها مجتمعا يقوم علي احتكار ملكية الدولة وديكتاتورية القمة الحزبية الحكومية التي أدت لانتشار التعسف والظلم وتغريب الانسان" 0 ويحدد البيان صورة

للقوي السياسية التي نشأت في ظل البيرسترويكا علي النحو التالي :

1 – التيار الدجمائي المحافظ الذي يعتبر ممثلوه سياسة التجديد تطاولا علي مباديء الاشتراكية، ويرون المخرج من الأزمة في العودة لنظام التسلط، وتساندهم أقسام من البيروقراطية 0

2 – التيار الذي يرفض الخيار الاشتراكي من أساسه لوضع حصة الأسد من الملكية العامة في أيدي القطاع الخاص، ورفع الدعم عن التعليم والرعاية الصحية ليكون كل ذلك علي أسس تجارية بحتة 0

3 – التيار الاشتراكي الديمقراطي الذي يرفض الماركسية ولا يرفض الفكر الاشتراكي غي عمومه، ويدعو للتمسك بنظم الحماية الاجتماعية كما في الدول الاوروبية المتطورة، مع السير علي طريق الليبرالية الغربية 0

4 – قوي البيرسترويكا الديمقراطية التي تتبني الخيار الاشتراكي وتمثلها – علي حد قول البيان – غالبية أعضاء الحزب الشيوعي السوفيتي 0

فما هو برنامج قوي البيرسترويكا الديمقراطية وبمعني آخر برنامج الحزب حاليا؟ 000

الاشتراكية الانسانية الديمقراطية هي مجتمع "يكون هدف التطور الاجتماعي فيه هو الانسان ؟ وتسوده العدالة والحماية الاجتماعية علي أساس تنوع أشكال الملكية "0 ولا يضيف البيان شيئا أكثر من ذلك عند تعريفه لتلك الاشتراكية الانسانية 0 أما بالنسبة للتيارات السياسية الأربعة التي حددها آنفا، فأنها – اذا استثنينا "المحافظين" – تتحرك كافة في تفس الاتجاه وان كان ذلك بخطوات أسرع أو أبطا 0 فالتيار الثاني الذي يرفض الخيار الاشتراكي ، يلتقي مع الثالث الذي يرفض

الماركسية، ومع "قوي البيرسترويكا الديمقراطية" التي تتمسك بالاشتراكية لفظا لا يتجاوز " الخيار 00"0
ولا يزيد "برنامج عمل الحزب الشيوعي السوفيتي" كله عن 12 سطرا في تلك الوثيقة تتناول صرورة اجتهاد الحزب لتنفيذ مجموعة من الاهداف العامة للغاية0 ويطرح البيان في المجال الاقتصادي الالتزام بالسوق الموجهة التي عرضت في خطة ريجكوف0 أما في مجال السياسة الخارجية فيدعو البيان إلي "مواصلة تطبيع العلاقات السوفيتية – الأمريكية ونقلها إلي مجري الشراكة البناءة"0 وأخيرا في باب "اعادة بناء الحزب" ينص علي تخلي الحزب عن احتكار العمل السياسي وعلي تنافسه مع الأحزاب الاخري" واذا كان الحزب لا يحكم ولن يحكم، فما الذي يتبقي له ؟ 0 يقول البيان أن الحزب سيمارس عمله في مجال النظرية باعداد برامج التجديد الاشتراكي، والبرامج الاقتصادية والاجتماعية (وقد تأخذ بها الحكومة وقدلا تأخذ)0 أما في المجال الايديولوجي، فينص البيان علي أن الحزب يقوم في ظروف التعددية الحزبية ب : "نشر الدعاية لانجازات الفكر الاشتراكي العالمي" ؟ ! (البرنامج عن البرافدا في 27/ 6/ 90)0 ولم ترد في ذلك البرنامج المقدم للمؤتمر 28 كلمة "الاستعمار" ولا مرة واحدة، ولا "العالم الثالث" ولا كلمة "الماركسية اللينينية" ومرة واحدة جاء البيان البرنامجي علي ذكر ماركس ولينين علي النحو التالي : "الحزب مع الموقف الخلاق من نظرية وممارسة الاشتراكية وتطويرهما في طريق الاستيعاب البناء للخبرة التاريخية في القرن العشرون ولتراث ماركس وانجلس ولينين تنقيته من التأويلات الديماجوجية"، وعلي الرغم من أن المؤتمر قد أدخل بعض التعديلات علي هذا البيان البرنامجي، الا أن مجرد تقديم هذا البيان وصياغته علي هذا النحو يكشف عن المدي الذي تطمح إليه القيادة السياسية في تنقية تراث الاشتراكية من التأويلات الديماجوجية !0

وقد أفتتح المؤتمر أعماله في 2 يوليه واستمع أولا إلي تقرير اللجنة المركزية الذي القاه جورباتشوف بعنوان "السير إلي الأمام علي طريق البيرسترويكا" 0 وتساءل جورباتشوف في تقريره عن مكانة الحزب في الظروف الجديدة وكيف ينبغي أن يصبح سياسيا وفكريا وتنظيميا، وقال أن أحد أسباب المصاعب التي تواجه البيرسترويكا يعود إلي "المقاومة التي تبديها الفئة البيروقراطية والقوي الاجتماعية المرتبطة بتلك الفئة، فالبيرسترويكا قد مست مصالح الذين يمسكون بزمام السلطة، ويتصرفون في الثروات العامة باسم الشعب" 0 وعرض جورباتشوف مرة أخري القوانين الاقتصادية التي استرشدت بها خطة ريجكوف باعتبارها المخرج من الازمة الاقتصادية الراهنة0 ونادي ب : " توسيع رقعة العلاقات مع البلدان الرأسمالية والانتقال إلي الأسعار العالمية في نطاق مجلس التعاضد، ولنخراط الاتحاد السوفيتي في العلاقات الاقتصادية العالمية"، وأشار إلي أن ذلك يتطلب : "مراجعة وادخال التعديلات علي تعاوننا مع بلدان العالم الثالث" 0

أما عن دور الحزب والنظرية الاشتراكية فقد أشار جورباتشوف إلي أن هناك الكثيرين ممن ينتقدون القيادة علي أساس أنها "جرت البلاد إلي تجربة شاملة دون أن تكون لديها دراسات نظرية وتصور محدد للاصلاح" 0 "وردا علي تلك الفكرة قال : "انني بعيد كل البعد عن السعي لتصوير نظرية البيرسترويكا كشيء مكتمل من كافة جوانبه، كفانا مثل هذه الادعاءات والغطرسة 00 ولهذا حينما يقولون لنا هاتوا نظرية جديدة مكتملة للاشتراكية نجيب : لا يستطيع ملء مفهوم الاشتراكية بمضمون جديد الا الحياة نفسها00" وأضاف : "ومن المعروف أن مضمون النظرية الاجتماعية التي وضعها ماركس واتجلس ولينين قد صيغ علي أساس تحليل الحقائق في القرن التاسع عشر، وصاغ لينين ما صاغه علي أساس حقائق العقود الأولي من القرن العشرين 0 ومنذ ذلك الحين تغير العالم

تغيرا جذريا،" واختتم جورباتشوف هذا القسم من حديثه بقوله : "ولهذا سيكون من الصواب علي ما يبدو أن نعتبر – بعد اقرار البيان البرنامجي – أن برنامج الحزب الشيوعي السوفيتي الساري المفعول حاليا يعد فاقد المفعول، وأن ننطلق للأمام نحو برنامج جديد للحزب وتشكيل لجنة خاصة في المؤتمر لهذا الغرض"0

واذا تتبعنا مسيرة البيرسترويكا وموقفها من الحزب لوجدنا أن البيرسترويكا علي مدي الأعوام الخمس الماضية قد شنت هجومها علي أوجه الحزب الثلاثة : اللينيني ، والستاليني ، والبريجنيفي ،

فالماركسية اللينينة نظرية عتيقة اعتمدت علي حقائق القرن 19 والعقود الأولي من القرن العشرين، وتجاوزها الزمن،

أما الستالينية فهي نظام للقمع والتنكيل

والبريجنيفية هي نظام الفئة البيروقراطية 0

والاستنتاج الوحيد من ذلك كله أن كل ما جري هو تطبيق خاطيء – ولابد أن يكون كذلك – لنظرية عفي عليها الزمن 0

وقد قادة تلك الحملة إلي الغاء المادة السادسة التي تنص علي الوضع القيادي للحزب في المجتمع، والمادة السابعة التي تحدد للكومسومول دورا مشابها 0 ثم استحدثت مؤسسة للرئاسة لتصفية مواقع المكت السياسي للحزب0 ثم تم إلغاء برنامج الحزب الشيوعي واستبداله ببرنامج الاشتراكية الانسانية الديمقراطية، وقد اثبت جورباتشوف في المؤتمر 28 أنه أدري بطبيعة ذلك الحزب، الذي توفرت له كل الادوات ومع ذلك لم يتمكن من الدفاع عن موقعه، وأثبت جورباتشوف أيضا أنه لم يكن يصارع حزبا ليزيحه عن السلطة، ولكنه كان يزيح جزءا من السلطة نفسها0

وكل ما استطاعه المؤتمر في مواجهة المستجدات هو ادخال بعض التعديلات علي "البيان البرنامجي"، واتخاذ قرار بصدد التقرير الذي قرأه جورباتشوف باسم اللجنة

المركزية 0 وفي قرار المؤتمر استجمع الأوفياء لذكري الراحلين قواهم لينصوا في القرار علي : "يدين المؤتمر بحزم الهجمات علي شخصية لينين، ذلك أن حمايته كسياسي ومفكر من الافتراء والتشهير وكذلك من التبجيل والتمجيد الفارغين هي واجب كل شيوعي شريف"0 وأيضا النص علي أن المؤتمر : "يرفض محاولات غرس وتكريس العداء للشيوعية والسوفييت في المجتمع والتطرف تحت ستار نقد تشوهات الاشتراكية وأخطاء الحزب"0 كما طالب القرار – وهو ما لم يرد في أية وثائق لجورباتشوف – بتعميق العلاقات مع الاحزاب الشيوعية والعمالية والقوي السياسية الاخري 0 وما عدا ذلك فقد مضي المؤتمر فيما قدر له وبعد كلمة جورباتشوف المطولة (تقريره السياسي) استمع المؤتمر في اليومين الثاني والثالث إلي تقارير مفصلة من أعضاء المكتب السياسي عن نشاطهم في الفترة الماضية 0 وأشار "ميدفيديف" المسئول عن الشئون الايديولوجية إلي ضرورة "تشكيل مفهوم جديد للاشتراكية" والانتقال إلي "نمط جديد من العمل الايديولوجي" وإلي تبديل نظم تدريس العلوم الاجتماعية في المعاهد والجامعات 0 أما الكسندر ياكفلييف مسئول العلاقات الخارجية وعضو المجلس الرئاسي (من أكثر الناس تأثيرا في المجال الاعلامي والفكري) فقد أشار إلي أن : "الاتحاد السوفيتي قد عاش عصرا كاملا من الحرب الباردة والمواجهة والتحالفات العسكرية وقال : "ولست أنوي هنا استيضاح من كان البادىء بذلك، ومن الذي يتحمل الذنب فيها"0 ناهيك عن أنها قصة معقدة بحيث يفضل ياكفلييف عدم البحث في جذورها ! 0 أما ليجاتشوف – الذي خرج من الساحة عمليا فقد طرح موقفه بصورة محددة منذ البداية وبالذات من قضية الملكية الخاصة فقال : "لابد للتعاونيات في القري أن تتطور علي أساس الملكية الاجتماعية، فالملكية الاجتماعية توحد ما بين الناس أما الملكية الخاصة فتفرق ما بينهم، وهنا أسألكم : هل يعد

بيع المؤسسات للأفراد تفتيحا لامكانيات الاشتراكية ؟ كلا بالطبع0 ولا يقنعني بحال من الأحوال استحداث المفهوم القائل بالعمل الفردي الحر باعتباره آخر منجزات الفكر المعاصرا وأعتقد أنكم توافقون معي اذا قلت لكم أن نمط الملكية ليس قضية تكتيكية ولكنها القضية الاستراتيجية 0 واعتقد أيضا أن القيم الاشتراكية تتضمن وتشمل بطبيعتها علي القيم الانسانية" 0 وبذلك أوضح ليجاتشوف خلافه مع جورباتشوف في مسألة الاقتصاد، ومسألة ما يردده جورباتشوف من أولوية القيم الانسانية علي القيم الطبقية0 وقال ليجاتشوف وبما احساسا منه بأن تلك هي فرصته الأخيرة :أن الملكية الاجتماعية هي أحدي قيم الاشتراكية واحدي منجزاتها، ولا يجوز لنا أن ننسي – وهو ما نفعله الآن – المدخل الطبقي لمعالجة مختلف القضايا، وبسبب ذلك تحديدا ظهرت فكرة أنه لا معني إطلاقا للتمسك بالتركيب الطبقي لمجلس نواب الشعب وفي نهاية حديثي أقول لكم أن هناك في بلادنا قوي محددة تكافح ضد النظام الاشتراكي وضد الحزب الشيوعي وتمارس تلك القوي نشاطها البالغ معتمدة علي تأثيرها الشديد في بعض وسائل الأعلام الجماهيرية آملة أنها ستهدم الاشتراكية، والحزب، ولقد وضعت في مركز وبؤرة الصراع السياسي بسبب من صراحتي، وموقفي غير المتهاون من قضية الاشتراكية الحقيقية ومكانة ودور الحزب 0 واستخدمت ضدي كافة الأسلحة بما في ذلك الافتراء علي والتلفيق00 وكما لو أن الأوامر والتعليمات تصدر من جهة ما 00 من مركز ما 00تبدأ من بعدها الدسائس والمكائد ضدي وفقا للمبدأ المعروف من ليس معنا فهو ضدنا" 0 أما"شفيرنادذه" فقد أشار – مستشهدا بأقوال جورباتشوف – إلي أن التطور العالمي في الربع الأخير من هذا القرن لم يعد يجري تحت لواء الصراع بين النظامين الاجتماعيين المختلفين الاشتراكية والرأسمالية، ولم يعد التطور محكوما بالصراع الطبقي، وأشار إلي أنه لا ينوي ترشيح نفسه للمكتب السياسي

أو غيره، فليس من المحتم أن يكون الوزراء أعضاء في الحزب، وقال أنه من موقع عمله في الخارجية فد عرف أن المواجهة الفكرية وحدها مع الغرب قد كلفت الاتحاد السوفيتي 700 مليار روبل ! وأنه قد عرف بذلك أن : "للأكاذيب الايديولوجية ثمنا وتكلفة ! وأن الكثيرين ينتقدون السياسة الخارجية السوفيتية لما تقدمه من تنازلات في المجالات العسكرية والدفاعية00 ولكن المشكلة ليست في التسليح ولكن في السياسة نفسها، فإن كانت سياسة سلمية فأنها تضمن الأمن للبلد أكثر مما تضمنه الأسلحة، والدليل علي ذلك أن جورباتشوف قد قال لبوش في مالطا : " أن الاتحاد السوفيتي مستعد لكي يعتبر أن أميركا ليست عدوا عسكريا" والنتيجة أن بوش رد عليه في لقاء واشنطن بقوله : "بوسعكم أنتم أيضا أن تعتبروا أن أمريكا لن تهدد أمن الاتحاد السوفيتي أبدا" وقال أن نائبا قد سأله : الا تعتبرون أن انهيار الاشتراكية في أوربا الشرقية هو هزيمة سياسية شنيعة للدبلوماسية السوفيتية التي تنفذونها ؟ " فأجابه شفيرنادذه : " أن الدبلوماسية السوفيتية لم تهزم في أوربا الشرقية لأننا لم نحاول ولم يكن من أهدافنا التصدي لعملية إزاحة الأنظمة الإدارية الشمولية التي رفضت نفسها علي شعوب أوربا الشرقية0 بل وأننا كنا نعرف بإمكانية تطور الأحداث في أوربا الشرقية علي هذا النحو، وعندما يحل الوقت المناسب لفتح أرشيف رسائل جورباتشوف فسيجد من يشاء البرقيات التي كانت تصلنا تباعا من تلك البلدان وتحيطنا علما باتجاه الأحداث"0

وقد استمع المؤتمر إلي تقرير أخري من وزير الدفاع "يازوف" و "ريجكوف" وغيرهما وقد حاولت المجموعة الاصلاحية الغربية الاتجاه – منذ الساعات الأولي لإقرار جدول أعمال المؤتمر – أن تطرح قضية مسئولية الحرب مما جري في السبعين عاما الماضية ؟ وتجريد الحزب من المالية والدعم الحكومي، وتبديل اسم الحزب وغير ذلك 0

ويعتبر البعض أن المؤتمر 28 قد حافظ علي وحدة الحزب وهو المكسب الأكبر 0 فالوزن السياسي للانشقاقات هزيل، والعضويات التي هجرت الحزب (يقدرها البعض بمائتي ألف) تعد هزيلة أيضا اذا قيست ب 19 مليون عضو ولكن الانشقاقات السياسية (يلتسين وبوبوف رئيس مجلس مدينة موسكو، ورئيس مجلس مدينة لينينجراد، وياكفلييف وغيرهم)، وهجرة الأعضاء للحزب ليست المعيار الأساسي للحكم علي نتائج المؤتمر، ولا للحكم علي وجود الحزب حيا وفعالا، فالمعيار الأساسي هو تبديل خط الحزب، ومن هذه الزاوية فقد تلقي الحزب ضربة ليست هينة، بالرغم من تجمع المحافظين معا في الحزب الشيوعي الروسي الذي تزيد عضويته عن نصف أعضاء الحزب الشيوعي اسوفيتي كله، والمعيار الأساسي للحكم علي مستقبل الحزب هو الخط البياني لعلاقة البيرسترويكا، وهو خط معاكس لوجود الحزب وطارد له 0 وهناك معيار أخير وهو قدرة الحزب نفسه علي الدفاع عن نفسه، وهي قدرة لم تتضح بعد ولم تنبض في ذلك الجسد العملاق الساكن، وحتي إذا افترضنا أن ذلك الحزب سيتمكن من الخروج من أزمته الفكرية ببرنامج واضح، فسيكون عليه أن يدافع عن بقائه وسط شعب شوه الإعلام وعيه عن عمد، وقدم له الحزب – بدلا من السلطة – سببا لكل الأزمات 0

أغسطس 1990

(8)
قانون الصحافة الجديد بعد 73 عاما

من قانون الطواريء !

في العشرين من يونيه من هذا العام نشرت الصحف السوفيتية – أخيرا – قانون : "المطبوعات ووسائل الاعلام"، ولم يمض شهر حتي أصدر جورباتشوف مرسوما رئاسيا في 16 يوليه حول : "تطوير الاذاعة التليفزيون وإشاعة الديمقراطية فيهما" 0 وقبل صدور هذين القانونين لم تكن الحرية التي أتحتها البيرسترويكا للمواطنين في مواجهة السلطة سوي هبة ومنحة من السلطة نفسها، هبة لا ينص عليها أي قانون، وقبل هذين القانونين عاشت الصحافة السوفيتية والاعلام في ظل قانون للطواريء استمر 73 عاما كاملة، وهو قانون المطبوعات الأول الذي وقعه لينين بعد الثورة في 27 أكتوبر عام 1917 0 وحينذاك وعد لينين الواطنين السوفييت بأن ذلك "قانون مؤقت، تفرضه الظروف" وأنه ما أن تستقر الأوضاع للسلطة الشعبية الجديدة حتي يحصل الناس علي : "أكثر القوانين تقدمية" وترفع كافة أشكال العقبات والموانع الإدارية عن الصحافة، وقد نص ذلك القانون علي : "أنه القانون الذي يحدد سياسة الدولة السوفيتية بالنسبة للصحافة المعادية للثورة" وأقر بضرورة : "وقف نشاط الصحافة والمطبوعات المعادية باعتبارها احدي أخطر أسلحة البرجوازية التي لا تعني حرية الصحافة بالنسبة لها الا حرية الطبقات المالكة في تسميم العقول وتشويه الوعي" ودعا القانون لاغلاق

الصحف التي تدعو : "للمقاومة الصريحة لحكومة العمال والفلاحين والتمرد عليها، أو تقوم بتشويه الحقائق، أو تحض علي الأفعال المخالفة للقانون" 0

واحتجت الأحزاب الاخري علي ذلك القرار في حتنه احتجاجا واسعا ومنظما، فأتخذ مجلس مفوضي الشعب قرارا في 7 نوفمبر من نفس العام باحتكار الدولة للاعلام، وقامت الحكومة بمصادرة مطابع وأموال الصحف الاخري ونقلها لملكية الدولة 0 وتوالي الصراع بين السلطة الجديدة والأحزاب حتي أقامت الحكومة في 18 ديسمبر 1917 : "محكمة الثورة للصحافة"0 وبناء علي أحكامها تم إغلاق مائة وخمسين صحيفة في الشهرين الأوليين من عمر الثورة 0

واعتقد لينين أن الأوضاع المؤقتة لن تدوم، وأن قانون المطبوعات المؤقت لن يطول به الأمد، لكن الحرب الأهلية أججت حالة الطواريء واستمرت في العواصم الكبري من عام 18 حتي عام 20 وفي المدن النائية مثل عاصمة نركمينيا أستمرت حتي عام 24 أي إلي وفاة لينين 0 ولم يتمكن لينين من أن يفي بوعده لأن نشاطه العملي توقف عام 22 0 وكانت آخر كلمة يلقيها في اجتماع عام هي كلمته في 20 نوفمبر عام 22 ، وفي تلك السنة نفسها تمكن ستالين في المؤتمر الحادي عشر من استحداث منصب "سكرتير عام الحزب" والفوز به، ولم يكن منصب "السكرتير العام" موجودا من قبل0 وأحكم ستالين قبضته علي السلطة بينما ظل لينين لمدة سنتين – حتي وفاته – تحت رقابة ستالين الذي جعل من زوجته "ناديجيدا الليليوفا" سكرتيرة شخصية للينين في السنتين الأخيرتين0

وبوفاة لينين عام 1924 تحول القانون المؤقت للمطبوعات إلي القانون الوحيد للاعلام والصحافة في الاتحاد السوفيتي، وتزايدت عيوب ذلك القانون في ظل سيطرة حزبية وبيروقراطية، ولم يحاول أحد أن يمسه

بتعديل حتي صدر القانون الأخير الذي سري العمل به فعليا من الأول من أغسطس هذا العام0

وفي 8 أغسطس كتب "فيودوربورلاتسكي" رئيس تحرير "الليتيراتورنايا جازيتا" يقول عن القانون الجديد : "علي الرغم من أنني لست واثقا أننا قد تلقينا المرسوم "الأكثر تقدمية" الذي وعدنا به لينين فيما مضي، الا أن القانون الجديد يعد مع ذلك خطوة ضخمة لنشر الديمقراطية في بلادنا"0

وأهمية قانون جورباتشوف ليست في أهمية ما جاء به، ولكن في أنهالقانون الأول بعد 73 عاما من الطواريء تحولت فيها "السلطة الرابعة" إلي صفحات متكررة بعناوين مختلفة0 ويقع القانون الجديد في سبعة أبواب تشتمل علي 39 مادة، أغلبها تتصل بوضع الأسس الخاصة باجراءات صدور الصحف الخاصة غير الحكومية، وتحديد أسس العلاقة بين الناشر والجهة الممولة ورئيس التحرير، والجهة التي تنظر في الخلافات المالية والأدبية وكيفية تسجيل طلب تأسيس مجلة أو صحيفة، ونظم التظلم عند وقف الصحف أو الوسائل الاعلامية، وطرق توزيع الصحف، وحق التكذيب وضرورة نشره، والتعويضات التي تدفع في حالة إغلاق الجرائد وغير ذلك 0

واذا تركنا الجانب التنظيمي من القانون، سنري أنه ينص علي أن : "المطبوعات ووسائل الاعلام الاخري حرة0 ويمنع فرض الرقابة علي كافة الوسائل الإعلامية"، وتحدد المادة الأولي من القانون أن المقصود بحرية الكلمة والنشر هو : "حق التعبير والبحث عن المواد الإعلامية والحصول عليها بكل الطرق وتوزيعها ونشرها بكل السبل"، وتشمل المواد الإعلامية : "الأخبار والمواد الصوتية والمطبوعة والمرئية التي يجري نشرها علي نطاق عام"0 ويمنح القانو حق تأسيس الصحف وغيرها لكل مواطن تجاوز الثامنة عشرة ولكل الهيئات والمنظمات والروابط الاجتماعية 0 وينص القانون أيضا علي : "منع عملية احتكار أية وسيلة إعلامية في مجال الصحافة

والاذاعة والتليفزيون" وهو نص يتوافق مع ضرب احتكار الحزب الشيوعي للعمل السياسي 0 وتكاد المادة 24 أن تضع الدولة تحت رقابة السلطة الرابعة فيقول : "من حق المواطنين الحصول بالسرعة اللازمة علي المعلومات المؤكدة والصحيحة حول أوجه نشاط الدولة والاتحادات والمسئولين" 0 وتعترف المادة 33 بحق المواطنين في الحصول علي المواد الإعلامية من خلال المصادر الأجنبية، واخيرا تسمح المادة 34 للمنظمات الصحفية السوفيتية والاتحادات الفنية " بأن تبرم العقود مع المواطنين الأجانب والمنظمات الأجنبية"0

وقد أثار القانون مناقشات ساخنة معظمها علي "الرقابة" التي يذكرها القانون في صيغة مهذبة حين يقول : "يمنع استغلال وسائل الاعلام لافشاء المعلومات السرية الخاصة بالدولة أو التي ينص القانون علي سريتها كما يمنع الدعوة إلي اسقاط أو تغيير نظام الدولة القائم والنظام الاجتماعي بطريق العنف 00" 00 ويتخوف قسم كبير من رجال الإعلام من تلك المادة، لأن أحدا لا يدري كيف ستفسر "أسرار الدولة" ؟00 وقد كانت هناك – ومازالت – الإدارة المركزية لحفظ أسرار الدولة التي قال عنها الصحفي "نيكولاي أندرييف" في الايزفستيا أنها لم تكن : "تحفظ أسرار الدولة التي يقر الجميع بوجودها، لكن هذه الإدارة كانت كانت تدافع دائما عن الدجمائية والمصالح الخاصة ببعض الهيئات، وقد اعتبرت هذه الإدارة أن حياتنا كلها هي سر لا يجوز افشاؤه" 0

ويثير قانون المطبوعات الجديد عدة مشاكل سياسية واقتصادية وتنظيمية 0 فليس معروفا بعد كيف ستكون العلاقة بين الجمهوريات الاتحادية والمركز الاتحادي في ذلك المجال 0 كما أنه ليس معروفا بعد الكيفية التي "سيمنع بها احتكار الدولة للصحافة" وكيفية انتقال الصحف من جهاز الدولة – وكل الصحف حكومية – إلي أيادي الناشرين من الأفراد0

أما المشاكل الاقتصادية فكثيرة0 فعلي الرغم من أن القانون يمنح للمواطنين الحق في إصدار الصحف والقنوات التليفزيونية الخاصة والاذاعية، إلا أن الواقع لا يمنح أحد هذا الحق 0 فكيف يمكن في ظروف الانهيار الاقتصادي تلك لفرد واحد أو مجموعة أفراد أن تتوفر لها الامكانيات المادية لإصدار صحيفة ؟ 0 ومن أين لتلك المجموعة بالمطابع والتمويل والورق ؟ 0 والمطابع الوحيدة في الاتحاد السوفيتي كلها مطابع الدولة وهي قديمة إلي درجة أن تجديدها يحتاج إلي أكثر من مليار روبل ؟ وهناك مشكلة الورق، وهي مشكلة حادة توقفت بسببها بعض المجلات مثل مجلة "نوفي مير"، وقد حاولت وزارة صناعة الأخشاب حل أزمة الورق برفع سعره، فقررت زيادة أسعار الورق بنسبة 74% بدءا من عام 1991 0 ولا تستطيع الدولة أن توفر الورق لنفسها بالأسعار العالمية التي وصل في ظلها طن الورق إلي سبعمائة دولار 0

رغم أن الكثيرين قد ابتهجوا بصدور القانون وبما يمنحه من حريات، الا أن ظروف الإفلاس العامة قد جعلت من القانون فاكهة محرمة 0 ومازالت أحسن الفرص هي الفرصة المتاحة أمام الصحافة الحكومية مثل "البرافدا" وغيرها بحكم استقرار وضع تلك الصحف التي أخذت تحت وطأة الشعور بالمنافسة والخطر تتميز وتكتسب ألوانها وطعومها المختلفة 0

وفي 16 يوليه، بعد نصف شهر من سريان مفعول قانون المطبوعات، صدر مرسوم جورباتشوف حول : "نطوير الاذاعة والتليفزيون واشاعة الديمقراطية فيهما"0

ويشمل هذا المرسوم علي مقدمة وخمسة بنود 0 وتشير المقدمة إلي التعددية السياسية التي صارت واقعا وما تتطلبه من تعديلات في مجال الاذاعة والتليفزيون، وأولهما ضرورة أن يتخذ مجلس السوفييت الاعلي قرارا ينظم نشاط هذين الجهازين الإعلاميين ويحدد وضعية "لجنة الدولة للتليفزيون والاذاعة" ويفهم

من هذا ازاحة دور لجنة الدولة وكسر احتكارها للجهازين 0 وثاني التعديلات "توسيع حقوق وسلطات الجمهوريات الاتحادية علي التليفزيون والاذاعة داخل نطاق الجمهوريات" و "منح التراخيص للمواطنين والهيئات لإنشاء وتأسيس محطاك اذاعية وتليفزيونية وتأجير عدد من ساعات الإرسال وانشاء استديوهات خاصة وذلك بدءا من شهر سبتمبر هذا العام" وثالث التعديلات أقرار مبدأ أن "يمارس التليفزيون والاذاعة العمل المنوط بهما بدون تبعية لمنظمات سياسية واجتماعية00 ويمنع احتكار هذا الحزب أو ذاك لساعات الارسال" والتعديل الرابع هو النظر في امكانية واحتمالات أن يقوم هذان الجهازان بتمويل نشاطهما ذاتيا !0 أما التعديل الخامس والأخير وهو الأهم فينص علي "ضرورة استخدام النظم الفضائية مثل "جيلييكون" والأقمار الصناعية التي تنقل للسوفييت البرامج التليفزيونية العالمية" 0 وقد جري بالفعل في بعض مناطق أوكرانيا تركيب الأجهزة (الايريال) التي تلتقط بها بعض الهيئات البرامج الاميركية ومن ضمن تلك الهيئات الجامعات والمعاهد التعليمية 0

سبتمبر 1990

(9)
هلسنكي 00

علاقات القمة

عقد ميخائيل جورباتشوف في سنوات حكمه القليلة سبعة لقاءات قمة سوفيتية أمريكية، أربعة منها مع الرئيس السابق "رونالد ريجان" وثلاثة مع الرئيس الحالي

"جورج بوش" آخرها لقاء هلسنكي في 9 سبتمبر هذا العام 0 وقد شقت مباحثات تلك اللقاءات 0 مع ظهور "البيرسترويكا" ويدفع منها – مجري جديدا للعلاقات السوفيتية الأميركية، وكانت درجات النجاح في تلك المباحثات ودرجات التعثر مرتبطة بمدي وضوح الفكر السوفيتي الجديد عمليا ونظريا 0 ولكن تلك " العقلية الجديدة" لم تستطع أن تبلور أبعادها وخطوطها بشكل كامل مرة واحدة، وكان الكثير من انعطافاتها الحادة استجابة لمتطلبات تلك اللقاءات، للأزمة الاقتصادية الخانقة التي أدت في الشهرين الأخيرين فقط إلي غياب كل السلع تقريبا، وإلي اختفاء الدخان نهائيا، وانعدام الخبز لمدة ثلاثة أيام، ثم إلي غياب النقود الورقية والمعدنية لأن مطابع نقود الدولة لم تعد تجد الحبر اللازم لها0 وقد كانت "البيرسترويكا" مضطرة للظهور بصورة تدريجية لسبب آخر، وهو أن الانتقال بالعلاقات بين البلدين من المواجهة إلي التعاون لم يكن بالأمر السهل، فقد اتسمت تلك العلاقات علي امتداد تاريخها بطابع عدائي واضح استمد كل مقومات الخصومة من الطبيعة الاجتماعية لنظامين اجتماعيين متناقضين لدول تقدس "حرية رأس المال" ودول تقدس "القضاء علي حرية رأس المال"0

من أندروبوف 000 إلي جورباتشوف

وكانت البيرسترويكا مضطرة للظهور بصورة تدريجية لأن النظام الاشتراكي السوفيتي لم يكف عن طرح الحلول المتشددة والحلول الاصلاحية بعد موت ستالين، ولم تكف تلك الحلول عن العثور علي ممثلين بارزين لها يشتبكون في صراع داخل قسم السلطة 0 وكان وصول "اندروبوف" إلي السلطة انتصارا لجناح متشدد يري أن حل الأزمة الاقتصادية ممكن بالتركيز علي "زيادة انتاجية

العمل والانضباط وعدم التسيب"، والضرب بيد من حديد علي أشكال الفساد والرشوة، والتحديث التكنولوجي للتصنيع، وفي ستة أشهر فقط أعدم "اندروبوف" عددا كبيرا من مديري المحلات والمصانع المرتشين، وكان رجال البوليس يمسكون بالناس في الشوارع ليراجعوا إن كانت معهم شهادات طبية تسمح لهم بأجازات أم لا وفي تلك الفترة زاد الاتحاد السوفيتي كمية السلاح لسوريا ورفع نوعيتها، وللمرة الأولي ألغي "اندروبوف" كافة التعهدات التي تقيد بها الاتحاد السوفيني من جانب واحد الخاصة بالتجارة والاسلحة النووية 0 وهدد بإقامة صواريخ ذات مدي أبعد علي أراضي تشيكوسلوفاكيا والمانيا ردا علي نشر الصواريخ الاميركية في أوربا0

وكان المتشددون يرون أن سبب الأزمة هو في التخلي عن "الستالينية" في عهد بريجنيف، وأن المجتمع بحاجة للزعيم القوي، وأن الفساد قد بدأ يدب في المجتمع بسبب محاولة "جورباتشوف" الاصلاحية الأولي0 وبوفاة "اندروبوف" السريعة، برز ممثلان جديدان، الأول هو "جورباتشوف" زعيم المجموعة الاصلاحية، والثاني "رومانيوف" سكتير منظمة لينجراد ومعه "أوستينوف" وزير الدفاع وآخرون من المتشددين0 لكن موازين القوي داخل المكتب السياسي وأجهزة الحكم لم تستطع أن تحسم الصراع حينذاك لصالح أحد الجناحين مما دفع جورباتشوف ورومانوف ذات لحظة للقبول باختيار "تشيرنينكو" سكرتيرا عاما للحزب (خريف 84) كحل وسط مؤقتا ترقبا لساعة أخري حلت عندما تغيب " رومانيوف" في رحلة سياسية إلي اثيوبيا وحينذاك تمكن "جورباتشوف" من ازاحته هو و "اوستينوف" وغيرهما من رجال الحرس القديم0

وبوفاة "تشيرنينكو" الذي حكم 15 شهرا، تولي جورباتشوف الحكم مدركا أن المعركة مع ذلك الجناح لم تنتهه بعد، وأن أرضية النظام السوفيتي ستخرج عليه

رومانيوف آخر في صورة "ليجاتشوف"، وليجاتشوف آخر في صورة "بروكفييف" وهكذا0

وفي ابريل 1985 عرض جورباتشوف برنامجه في وثائق اجتماعات اللجنة المركزية ولكن الخطوط العامة للبيرسترويكا في تلك الوثائق كانت مضغوطة وموجزة وتحتمل أكثر من تفسير وكان جوهر "الفكر الجديد" كامنا تحت عبارات التشدد القديم وتبجيل لينين الذي تتحطم تماثيله الآن في مدينة بعد الأخري والذي تخرج المظاهرات في مواجهته رافعة شعارها المفضل "لينين عدو الشعب" !!

الطريق إلي "كيافيك"

وبعد ستة أشهر من إعلان البيرسترويكا في أبريل 85 عقد جورباتشوف أول لقاء قمة له في جنيف مع الرئيس "ريجان" في نوفمبر 1985 ، متخيرا لحركة الأولي ما بين، الأول هو القضاء علي السلاح النووي، والثاني اشاعة الديمقراطية والتصحيح في الداخل، وكانت قمة البيرسترويكا الأولي في جنيفاللقاء توصل الزعيمان إلي نقطة ارتكاز مشتركة من التأكيد علي أن " أحدا لن يسعي للتفوق العسكري علي الجانب الآخر"0 وفي ذلك اللقاء عرض جورباتشوف فكرته الأساسية وهي أن القضية المركزية في العلاقات بين البلدين الآن هي "قضية الأمن، وأن التناقض لم يعد قائما بين الاشتراكية والامبريالية بل بين البشرية وخطر الحرب النووية" التي لن تترك علي حد قوله "جذع شجرة ليجلس إليه متفاوضان اثنان"، وهي فكرة الرئيس "كيندي" التي صرح بها في الستينات عند وقوع أزمة خليج الخنازير، والتي عبر عنها بقوله : "إن هذه الحرب اذا وقعت فلن يكتب لها من مؤرخها، فالنصر فيها لن يكون الا رمادا في فم المنتصر"0ولم تكن "جنيف" الا القمة الأولي التي خرج

بعدها "ريجان" مصرا علي أن الاتحاد السوفيتي "امبراطورية الشر" وخرج بعدها جورباتشوف ليتحدث عن "السياسة الامبريالية" و "السادة القدماء لصوص العالم" الذين لا يأبهون الا بمصالح الاحتكار العسكرية0

ولم ينقضي شهران علي تلك القمة حتي طرح جورباتشوف في يناير 1986 برنامجا مدته خمسة عشر عاما لإزالة كافة الأسلحة النووية عند نهاية القرن العشرين 0 ثم انصرف إلي الاصلاحات الداخلية فعقد المؤتمر السابع والعشرين للحزب الذي دفع العالم إلي الحديث عن "ثورة جديدة"، وفيه طرح مشروع صياغة جديدة لبرنامج الحزب في مارس 1986 0 وفي ذلك المؤتمر طرح جورباتشوف للمرة الأولي ضرورة حذف مفهوم "التعايش السلمي كشكل من أشكال الصراع الطبقي"، واكتفي بضرورة "التعايش السلمي بين الأنظمة المختلفة"، وحذف أيضا تحديد التناقض الرئيسي للعصر بين الاشتراكية والامبريالية، ليجعل التناقض الرئيسي بين البشرية والفناء النووي الذي لن يميز بين "الشيوعيين والرأسماليين"0

وبإسقاط التناقض بين الاشتراكية والامبريالية، وإسقاط الصراع من التعايش السلمي بدلت السياسة السوفيتية من وضع واتجاه قدميها العملاقتين لتتجه إلي عالم يقول عنه جورباتشوف أنه "ينشأ بصعوبة وإلي حد ما علي نحو أشبه بالتلمس في الظلمة"0

وأخيرا فقد ضمنت التعديلات عبارة أخري هامة تقول "أن الحزب إلي جانب اقامة علاقات طبيعية ومستقرة بين الاتحاد السوفيتي وأميركا"0

وقد مهد ذلك كله للقاء القمة الآخر بعد أحد عشر شهرا في "ريكيافيك"غي أكتوبر 86 0 وفيه جري التركيز علي قضية السلاح النووي، لأن الأسلحة هي أشد مظاهر العداوة0 وقدم جورباتشوف تنازلين هامين الأول التخلي عن أن تشمل المعادلة الاستراتيجية " الصواريخ الاميركية المتوسطة المدي"، والثاني تجاهل القوات

النووية الانجليزية والفرنسية من المعادلة 0 واتفق الطرفان علي الأزالة الكاملة للأسلحة الاستراتيجية خلال خمس سنةات0 ومع ذلك فقد تعثرت "ريكيافيك" بسبب تمسك "ريجان" بنظام حرب النجوم0 والرغم من هذا فقد حققت القمة نجاحا وصفه جورباتشوف بأنه : "تحطيم النمط القديم من المباحثات، واخراج الحوار من الضباب والديماجوجية السياسية وأضاف : "لقد أنجزنا الكثير نحو بناء جسر الاتفاق التاريخي"0

أساطير الايديولوجية 00 !

في أكتوبر 1987، قبل أن يسافر جورباتشوف للقمة الثالثة في واشنطن بشهرين أصدر كتابه الوحيد والمعروف : " البيرسترويكا تفكير جديد لبلادنا والعالم أجمع" 0 وتخاطفت دور النشر العالمية الكتاب وقامت بترجمته علي الفور، وكان الكتاب بتوقيت صدوره، وتوجهاته العامة أشبه ما يكون برسالة خاصة وهامة للرأي العام الأوربي، رسالة تسبق سفرة جورباتشوف لواشنطن وتمهد لها، وفي الكتاب تؤكد جورباتشوف أن انقاذ الحضارة الانسانية والجنس البشري أمسي مصلحة عامة تؤلف بين المجموعات الدولية الثلاث (المجموعة الاشتراكية، والمجموعة الرأسمالية، ومجموعة دول العالم الثالث)، مصلحة تعلو علي أية تناقضات قومية أو طبقية أخري 0 ولهذا يؤكد جورباتشوف : "أن سياسة المواجهة العسكرية والتصارع الشامل أصبحت عديمة الجدوي"، ولما كان الأميريكيين قد طرروا كثيرا أن دولة تكون عقيدتها "التناقض" مع الرأسمالية لا يمكن أن تحيا في سلام أو تعايش مع ا لرأسمالية، وأن الشرط الأهم لتطبيع العلاقات هو التخلي عن الايديولوجية الماركسية ، لذلك تضمن الكتاب توضيحا لتلك المسألة فيشير إلي اسقاط "ديكتاتورية البروليتاريا" من برنامج الحزب، مكتفيا بالدور الرائد للطبقة العاملة، ويشير إلي تنحية الصراع

الايديولوجي الذي كان "القسم الأهم المكون للصراع الطبقي" مكتفيا بالاشارة إلي "أضرار الايديولوجية الرأسمالية"، ويستخلص جورباتشوف من كل ما قدمه النتيجة التالية : "لا يمكن المضي نحو علاقات أكثر انسجاما مع أميركا اذا ما تركنا للأساطير الايديولوجية السيطرة" وأنه "من غير الجائز سحب التناقضات الايديولوجية علي مجال العلاقات الدولية"0 ويقترح الفكر الجديد بدلا من ذلك "توازن المصالح الذي يستتبع الارتفاع فوق الخلافات الفكرية"0 وحتنما ينقل جورباتشوف هذه الأفكار إلي مجال التطبيق يقول – في حالة الشرق الاوسط مثلا - : " أن طابع العلاقات الحالية بين الغرب والبلدان النامية غير مقبول لنا، ولكننا لا ندعو لتفجير أو نسف تلك العلاقات000 ونحن لا نريد علي الاطلاق لحركة وشكل التسوية في الشرق الاوسط وأهداف هذه التسوية أن تمس المصالح الطبيعية للولايات المتحدة والغرب" ولا أدري ما الذي يضفي علي المصالح الأميركية سمة "طبيعية" وكأنها من بديهيات الشروط اللازمة للحياة علي الكوكب الأرضي ؟0

وقد قابل الغرب وأميركا الكتاب باعجاب شديد، ودار الحديث عن ثورة جديدة وزعيم من طراز جديد وسياسة جديدة دولية ستجنب العالم ويلات الحرب0

وفي ديسمبر 87 عقد جورباتشوف قمته الثالثة مع ريجان في واشنطن، بعد صدور كتابه ذلك بشهرين، وهذه المرة تم التوقيع علي معاهدة لتصفية الصوايخ المتوسطة والقصيرة المدى، التي حذفت من ترسانة كلا البلدين نظاما متكاملا من السلاح النووي، يمثل 4% من مخزون السلاح لدي البلدين0 ولكن تلك القمم في كل مرة كانت تتنا ول جوانب أخري عند المباحثات، وركز فيها الأميريكيين علي فكرة واضحة وهي أن السياسة – لا الاسلحة – هي التي تكفل الأمن 0 وهي الفكرة التي كررها شفيرنادزه فيما بعد مؤخرا، ولذلك لابد من تبديل سياسة الاتحاد السوفيتي والعلاقة مع أميركا، لأنه عندما

تزول العداوة يزول الخطر، أما تقليص المخاطر علي أرضية العداء فلا يعطي ضمانا بألا تتجدد تلك المخاطر0

وقد أشار الرئيس الآميركي السابق "نيكسون" ذات مرة إلي فكرة هامة حين قال أن تدمير كافة الأسلحة النووية لن يعني تدمير فكرة وتصميمات تلك الأسلحة ولا القدرة علي اعادة انتاجها مرة أخري 0 ويذهب بعض الخبراء السوفييت إلي ذلك الرأي مثل "ايجور سيرجييف" الذي يقول : "من الصعب تصور العالم بلا أسلحة نووية، ولكن يمكن فقط خفض مستوي الخطر النووي" 0 وربما لهذا قال الرئيس "ريجان" بعد قمة واشنطن : "أن الاتفاقيات المنفردة لا تضمن بحد ذاتها مسيرة متصلة للأمام000 ومن الضروري أن ندرك واقعيا أهداف ونوايا بعضنا البعض" 0 أما جروباتشوف الذي قال : "فليكن الثامن من ديسمبر يوما يدخل التاريخ" فقد أضاف : "ومع ذلك فأن الوقت مازال مبكرا 00مبكرا بعد للحديث عن انعطاف جذري في علاقتنا" 0 والعجب أن ذلك الانعطاف قد تحقق – ليس في مجال نزع الأسلحة وهو ما جري التركيز عليه – وانما في مجال السياسة، التي قامت بأكبر عملية – لفك الاشتباك التاريخي بين الدولتين علي امتداد خط المواجهة فيما بينهما 0 فوقع الجانبان في أبريل 88 اتفاقية حل النزاع الافغاني، ووقف الصراع الذي استمر أكثر من تسعة أعوام بين فيتنام وكمبوديا والشروع في المفاوضات بين نيكاراجوا وجبهة "الكونترا" وغير ذلك0 أما في مجال التسليح النووي، فقد تزايدت نسبة ما تنفقه أمريكا علي أسلحة المستقبل المتطورة من 4و23% عام 1984 إلي 34% عام 1990 أي بزيادة 6 ، 10% خلال خمس سنوات !0

وبعد نصف عام شهدت موسكو في يونيه 1988 القمة الرابعة مع "ريجان"، والأخيرة 0 واكتفت تلك القمة ببيان مشترك يعكس تقدم تلك العلاقات إلي الأمام، ويعكس صعوبة ذلك النقدم بين تجربة تاريخية رائدة وتجربة الرأسمالية العريقة المتمرسة 0 وجاء في البيان

أن الزعيمين يؤكدان من جديد "عزمهما علي الحيلولة دون أن تقع أي حرب بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة 0 سواء نووية أم تقليدية" 0 والتأكيد والتشديد علي الحيلولة دون وقوع أي حرب بين البلدين ولو كانت تقليدية أقرب ما يكون إلي صياغة حلف مشترك يتجاوز مهمة اتقاء الحرب النووية إلي حالة جديدة من العلاقات الدولية، وقد بدت تلك الفكرة بوضوح أكبر فيما بعد حينما جري الحديث عن حلف وارسو وحلف الاطلنطي والدعوة السوفيتية لانشاء : حلف الحلفين "الذي يضمن نظاما للأمن الأوروبي"0 وبالغم من ذلك فقد أشار البيان إلي : "الاختلافات الحقيقية في مجال التاريخ والتقاليد والايديولوجيا التي تميز وستميز العلاقات السوفيتية الاميركية"0 ولم تكن صدفة بطبيعة الحال أن يتم طمس "الايديولوجية" وأن توضع علي قدم المساواة مع "تاريخ"، و "عادات" بحيث تبدو جزءا من مكونات فكرية وليست موقفا سياسيا0 ولكن نتائج القمة كانت أبعد من حدود البيانات المشتركة فقد ثبتت – علي حد قول جورباتشوف - : "نوعا من جدول أعمال الحوار بين البلدين"، وهو جدول تناول كافة قضايا العلاقات بدءا من : حقوق الانسان (اليهودي فقط)، إلي حلف وارسو 0 إلي قضايا تعديل التركيبة الاقتصادية داخل المجتمع السوفيتي وغير ذلك0

وأوجز جورباتشوف نتائج اللقاءات الأربعة مع ريجان حين قال : "كان كل لقاء من تلك اللقاءات الأربعة صعبا، ومع ذلك فقد كان بحثا مستمرا عن توازن المصالح00 رفع العلاقات إلي مستوي أعلي"0

الانتقال للسوق الحرة

ثم شهدت السنة والنصف سنة التالية الأحداث العاصفة في أوروبا الشرقية والانقلابات التسارعة في المانيا والمجر وبولندا وغيرها وتخلل تلك الفترة انعقاد المؤتمر الأول لنواب الشعب السوفيتي في 25 مايو

1989 والذي بدل هياكل الدولة السياسية وفتح النيران علي تاريخ التجربة السوفيتية بأكملها، وكان المواطنون السوفييت يتغيبون عن عملهم خصيصا لمتابعة جلساته ويحملون معهم أجهزة الراديو في المترو والأتوبيسات ليتابعوه0 وكان جورج بوش الذي أصبح رئيسا لاميركا (وكان نائبا لريجان في لقاءات القمة السابقة وشارك فيها) كان قد بدأ يعبر عن موقفه الايجابي الذي يتجاوز العقبات قائلا ومكررا "لابد من مساندة ودعم البيرسترويكا"، ولكن أميركا والغرب ظل لمدة طويلة يعبر عن دعمه لفظا، في انتظار المزيد من التحولات وضمانات التحولات، ومنذ ثلاثة شهور فقط، شهر 6، صرح الرئيس بوش في مؤتمر بولاية "هانتسفيلي" بقوله : "الادارة الأميركية غير مستعدة – علي الأقل في المرحلة الراهنة- لتأييد اقتراح "ميتران" بدعم الاقتصاد السوفيتي، فمازال علي الاتحاد السوفيتيأن يقوم بالكثير من التغييرات" ! وحتي هذه اللحظة لم يدخل الغرب بمشروع استثماري واحد ذي قيمة إلي الاتحاد السوفيتي، وأقصي ما تم التوصل إليه هو افتتاح مطعم لسندوتشات "الهامبورجر" في موسكو، وهي السندوتشات التي عجز الخبراء السوفييت عن تصنيعها طويلا !0

وكانت هناك قمتان في الطريق إلي هلسنكي، قمة ملطا في 2 ديسمبر 1989 وقمة واشنطن في يونيه 1990 ، وفي ملطا طرحت عمليات التجديد في أوروبا الشرقية، ونزع السلاح، والوضع في أميركا الوسطي واللاتينية، والموقف السوفيتي من كوبا واللوم الاميركي علي المساعدات لكوبا، والشرق الأوسط، وضرورة هجرة اليهود السوفييت، وعلي حد تعبير الصحفي السوفيتي "فلاديمير سيميونوف" فان مالطا قد كشفت عن أن الرئيس "يوش" قد انتقل من : حب البيرسترويكا العذري إلي الأفعال التي تخفف من حدة الصعوبات في المجنمع السوفيني"0 وبعد نصف العام علي تلك القمة بدأت في يناير 1990 أكبر موجة هجرة يهودية سوفيتية وصل فيها

عدد المهاجرين إلي مائة وخمسين ألف من يناير إلي يوليه من نفس العام0

وكان بوش في تصريح لاحق قد قال "لقد كنت صريحا مع الرئيس جورباتشوف في لقائنا بمالطا، وقدمت له حينذاك قائمة بالاجراءات التي قد تحسن علاقاتنا0"

وبعد موجة الهجرة التي أعقبت مالطا، اجتمعت اللجنة المركزية اجتماعا موسعا في مارس تقدمت بعده باقتراحها بحذف المواد الدستورية التي تحدد للحزب والكومسومول "دورا قياديا في المجتمع"0 وفي منتصف مارس انعقد المؤتمر الثالث الطاريء لنواب الشعب للنظر في حذف المادتين واستحداث مؤسسة رئاسة0 وحينذاك قال "سيرجي الكسييف" رئيس لجنة الرقابة الدستورية : "أن منصب الرئاسة يعد في هذه الظروف الوسيلة الواقعية الوحيدة لنقل السلطة الفعلية من البني الحزبية إلي بني الدولة" وبتشكيل تلك المؤسسة تمت تنحية صلاحيات المكتب السياسي واللجنة المركزية والمؤسسات الحزبية 0 وبعد ذلك حل الدور علي دورة مجلس السوفييت الاعلي التي استمرت حتي يونيه والتي طرحت فيها قوانين الملكية الخاصة، والاستئجار، ولرستثمار، والمشاريع الخاصة، وفي 24 مايو من نفس العام وقبل قمة واشنطن بشهر واحد أعلنت الحكومة علي لسان " ريجكوف" رئيس الوزراء عن خطتها الاقتصادية للانتقال بآليات المجتمع الاشتراكي إلي السوق الحرة ورفع الأسعار0

الأزمة 0000 الأزمة

وقد مهدت قائمة التعديلات تلك كلها للقاء القمة في واشنطن في 2 يونيه 1990 وتم فيها مواصلة الحوار السياسي بين القوتين العظميين، وتوقيع أكثر من 15 اتفاقية والاتفاق النهائي بشأن وحدة المانيا، ومناقشة قضايا الاصلاح الاقتصادي داخل الاتحاد السوفيتي،

والوعود بالمساعدات الاقتصادية الأوربية، ورغم أن بوش قد أعلن قبل القمة عن أنه سيطرح بكل الوسائل قضية جمهوريات البلطيق، وخاصة ليتوانيا، الا أنه في القمة تحاشي القضية البتوانية باعتبار أنها لم تكن الا ورقة للابتزاز0

وبعد قمة واشنطن بخمسة أيام أعلنت اللجنة الاستشارية السياسة لحلف وارسو عن "استعدادها للتعاون البناء مع حلف الاطلنطي، وقبل ذلك كان مجلس التعاضد الاقتصادي بين الدول الاشتراكية قد انحل فعليا بنقل المعاملات فيهإلي العملة الصعبة 0 وازدادت الأزمة الاقتصادية في داخل الاتحاد السوفيتي وبلغت حدا لم يتوقعه أحد، وارتفعت الأسعار فعليا إلي أكثر من 300% و 400% تبلغ سعر كيلو اللحم خمسة وعشرين روبلا، وعلبة الدخان خمسة روبلات، واختفت مع ذلك السلع وطفت علي السطح فئة من السماسرة المستعدين لتقديم كافة الخدمات وأعمال الوساطة والتسهيلات، وبعد قمة واشنطن بشهر واحد عقد الحزب مؤتمره الثامن والعشرين في شهر يوليه، والذي اسقط برنامج الحزب نهائيا، معلنا عن "الاشتراكية الديمقراطية الانسانية"، ومحولا المكتب السياسي إلي ما يشبه المجلس الاتحادي الذي يضم ممثلا عن كل جمهورية، واقر المؤتمر وثيقة عامة باعتبارها برنامجا مؤقتا لم ترد فيها كلمة "الاستعمار" مرة واحدة0

وفي الشهور الأخيرة التي سبقت قمة "هلسنكي" انقطع الخبز من المحلات في موسكو، واختفت الزيوت، والبيض، واللحوم، والكبريت، وأخذت موسكو بطاقات لسكانها يتم بموجبها الحصول علي السكر والسلع الغذائية، ووصلت الحالة إلي درجة اختفاء العملة الورقية والمعدنية من السوق لأن مطابع الدولة لا تجد الحبر اللازم لطباعة النقود، وقام المدخنون بمظاهرة ضخمة أمام مجلس السوفييت الاعلي يطالبون فيها بعلب السجائر0 ومع ذلك فأن المساعدات الأوروبية المنشودة

لم تظهر في الافق، اللهم إلا نوع من الكفتة الرديء ملفوف في تعبئة أميركية كتب عليها " لقد أحسنتم الاختيار بشرائكم هذه الكفتة التي تتميز بنكة اللحوم" ! وتباع العبوة الواحدة (80 جراما) بروبلين وهو المبلغ الذي كان المواطن يشتري به كيلو لحم بأكمله قبل البيرسترويكا 0

وما بين نوفمبر 1985 "قمة جنيف" وسبتمبر 1990 " قمة هلسنكي" قطع جورباتشوف طريقا طويلا ومنهكا فقد فيه بالنسبة للمواطنين البسطاء بريقه، وأصبحوا يرددون شيئا واحدا :الغني سيزداد غني والفقير سيزداد فقرا، وهو ما تأكده حكومة "ريجكوف" يوما بعد يوم برفع الأسعار دون الاعلان عن ذلك 0 ولتهدئة الناس تعدهم الحكومة بالبرامج التي تكفل الحماية للسكان محدودي الدخل في ظل الانتقال لقوانين السوق 0 وعلي حد تصريح "شيرياكوف" رئيس لجنة العمل والشئون الاجتماعية في 6/ 8/ 90، فأن عدد المواطنين الذين يحتاجون لدعم اقتصادي لا يقل عن تسعين مليون مواطن ! وهم أولئك الذين يقل دخلهم عن الحد الادني للمعيشة، أي 84 روبل ويتساءل الناس : "لماذا يتحتم علينا القبول بنظام اقتصادي لابد لنا في ظله من قوانين حماية اجتماعية ؟" وتتوقع الحكومة أن يصل عدد العاطلين عند الانتقال النهائي للسوق الحرة إلي خمسة وثلاثين مليون عاطل عن العمل !0

وعلاوة علي الأزمة الاقتصادية تنتشر في كافة الجمهوريات السوفيتية مختلف أنواع الأسلحة الثقيلة والخفيفة بحوزة المنظمات القومية والشعبية والتي لم يستطع جورباتشوف أن يسحبها أو يستردها مما يهدد جديا في ظل الصراعات القومية بحرب أهلية واسعة النطاق 0

في هذه الظروف توجه الزعيم السوفيتي إلي هلسنكي، وفي هذه الظروف اندلعت أزمة الخليج التي قلبت كل الحسابات الدولية رأسا علي عقب0

النظام الدولي الجديد !!

قال الرئيس " بوش " بعد قمة "هلسنكي" بيومين اثنين : "أننا نعيش لحظة غير عادية، وفريدة من نوعها فقد خلقت أزمة الخليج امكانية نادرة للتقدم نحو عهد جديد من التعاون الأميركي السوفيتي، ويكتب "كوندراشوف" في الايزفستيا : "كان يمكن لأزمة الخليج أن تكون قشرة الموز التي تنزلق عليها مباديء السياسة الدولية الجديدة، لكن ذلك لم يحدث لحسن الحظ"0 وكتبت "البرافدا" تقول : كانت نتيجة قمة "مالطا وواشنطن بحاجة إلي اختبار 00 وكانت أزمة الخليج هي الاختبار الذي تجاوزته هلسنكي0"

وركزت الصحافة السوفيتية علي أن نجاح هلسنكي هو في "الموقف الموحد الذي أتخذته الدولتان ونجاح النظام الدولي الجديد في اثبات وجوده وفاعليته"0

وعلي الرغم من أن قمة هلسنكي قد وصلت إلي مبعاد تقريبي لتوقيع اتفاقية تقليص الأسلحة الاستراتيجية بنسبة خمسين بالمئة، وفتحت الباب لاحتمالات المساعدات الاقتصادية الأميركية الجادة، الا أن ذلك كله لا يعد النتيجة الأساسية التي خرجت بها القمة، ولنقرأ ما يتصور "قنسطنطين بليشكوف" أنه انجاز هلسنكي الرئيسي : "لم يعد تقليص الأسلحة اليوم هو القضية الأولي، بل أن الكثيرين قد اعتبروا أن التوصل لاتفاقية تقليص الأسلحة هو حدث بديهي ومتوقع لقد جري في هلسنكي شيء أهم من هذا فقد اختفي الخصم نفسه، وبذلك فأن قمم البيرسترويكا السوفيتية الأميركية التي بدأت في جنيف وانتهت في هلسنكي، قطعت طريقا طويلا بدأته بتقليص الأسلحة في ظل الخصومة واختتمته بتقليص الخصومة في ظل الأسلحة 0 وللمرة الأولي بعد الحرب العالمية الثانية تقف الدولتان موقفا موحدا من قضية شائكة ومعقدة، وبينما كان القضاء

علي الفاشية الالمانية يمثل مصلحة مشتركة للاتحاد السوفيتي والحلفاء، فأن الغزو العراقي للكويت – وأن كان عملا اجراميا – يختلف كثيرا بل وتكاد المصالح فيه أن تتعارض، وقد تضمن البيان المشترك الصادر عن المباحثات أشار إلي : أن الخطوة التالية ستكون اقامة هياكل أمنية اقليمية للحفاظ علي الأمن في المنطقة"، وهو اقتراح أميركي ومطلب أميركي، وتضمن البيان ضرورة "العمل بنشاط من أجل تسوية جميع النزاعات المتبقية في الشرق الأوسط" 0 وهي عبارة استهلكتها الدبلوماسية السوفيتية دون قدرة علي بعث الحياة فيها 0 كما فتح البيان الباب لاتخاذ خطوات إضافية بغض النظر عن خلط الأوراق، فاذا كان الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة قادرين ومستعدين لخطوات واجراءات عملية، فلماذا يتفقان علي ما ينلسب الولايات التحدة فقط، ولا يتفقان علي حل أزمة الشرق الأوسط ؟0

لقد كانت الصحافة السوفيتية علي حق عندما أكدت أن "هلسنكي" هي بزوغ للنظام الدولي الجديد، من زاوية تمتين العلاقات بين البلدين في موقف موحد من العدوان العراقي، لكن هلسنكي قد كشفت عن طبيعة ذلك النظام الدولي الجديد الذي يكيل بمعيارين، مرة حينما يضع العراق يده، علي نفط الكويت فيصحو الضمير العالمي، ومرة حينما تدمي أقدام أطفال الانتفاضة ثلاث سنوات دون حل أو بارقة أمل في حل 0

أكتوبر 1990

قصة (ابالكين)

وقصة (شتاليني)

انقطاع الخيط الأخير

حينما ينتهي جورباتشوف من محو آخر الوان الصور السوفيتية سيجد أن الوقت قد أزف لرحيله هو الأخر، لأنه سيكون الملمح الوحيد المتبقي من زمن مضي، ولأن اللوحةالجديدة ستحطم الريشة القديمة وتلفظها0 وعندما يغادر جورباتشوف المبني الذي أقامه سيترك وراءه أسئلة كثيرة لا تتعلق بشخصيته الحيوية وقدراته، ولكن بمستقبل الاشتراكية وخاصة في العالم الثالث، حيث نمت الحركات اليسارية علي ضوء "النموذج" مستندة إلي أفق من العلاقات الاقتصادية الاشتراكية في العالم، كان بوسعه أن يحتضن حركتها 0 والآن يطرح مرة أخري السؤال القديم الذي تعاني كوبا من وطأته الآن : كيف يمكن لاقتصاد اشتراكي في بلدان غير متطورة أن ينمو وسط شبكة من العلاقات الاقتصادية الحالية ؟0

وتتعدد احتمالات رحيل جورباتشوف، فأما أن يكون وداعا مصحوبا بموسيقي الشرف في انقلاب مدني حيث تركز وسائل الاعلام الغربي علي تلميع يلتسين (رغم أن جزءا كبير من تلميعه للضغط علي جورباتشوف)، وأما انقلاب عسكري، وقد أشار وزير الدفاع السوفيتي في 26/ 9 إلي أن : "التحركات التي قامت بها ثلاث فرق عسكرية في ضواحي موسكو لا علاقة لها بمحاولة الانقلاب علي جورباتشوف، وهو ما كرره شفيرنادذه للتليفزيون الأميركي في 2/ 10 ، وأما انتفاضات شعبية بلا برامج محددة 0 فقد وجدت القيادة السوفيتية بعد خمس سنوات نفسها أبعد ما تكون عن الهدف الذي سعت إليه وهو : انقاذ الوضع الاقتصادي0 وكل خطوة نحو

تلك المهمة كانت في واقع الأمر تراجعا عنها، مما أشاع حالة من التشاؤم وسط الناس 0

وتكشف الرسالة المفتوحة التالية والتي توجه بها الأدباء السوفييت إلي جورباتشوف في 12 / 10 (لمجلة الأدب الموسكوفي) عن مدي الاستياء الشعبي، فيقول : "أنكم بصفتكم رئيسا للاتحاد السوفيتي تدعون لبعث الرأسمالية دعوة مقنعة بالعبارات الاشتراكية، ونظرة علي سنوات حكمكم تؤكد شيئا واحدا : المسافة الكبيرة بين أقوالكم وأعمالكم فأنتم – بالكلام – مع الاشتراكية، والفعل فقد سلبتم المواطنين السوفييت كل ما حققوه من مكاسب بتضحياتهم الهائلة وأنتم – بالكلام – مع وحدة الدولة السوفيتية، وبالفعل فأنكم لم تحركوا ساكنا للمحافظة علي وحدة دولتنا0 وأنتم – بالكلام – مع المساواة بين الشعوب، والفعل فأنكم قد أشهرتم شرعية الصهيونية، كما يضطهد الشعب الروسي بصورة لم يسبق لها مثيل وأنتم – بالكلام – مع حرية الأراء، والفعل فأن مجموعة محددة هي التي تسيطر علي كافة وسائل الاعلام، وأن المباحثات السرية التي تقومون بها والمصافحات الدافئة بالأيادي مع ساسة أوربا الذين لا يعترفون الا بقانون القوة لا تدعو الا للشكوك والمخاوف 0 وبينما تزيد الولايات المتحدة من نفقاتها العسكرية فأننا نهبها حقول النفط السوفيتية التي كتشفت مؤخرا عند "الاسكا"0 فهل أن ذلك لتقوية قدرات أميركا الدفاعية ؟ 0 واذا كنا نضحي بثروات بلادنا من أجل "سلام عالمي" في ظل رماح أميركية مشرعة 0 فهل سيكون بوسعنا أن نحمي المصالح الوطنية لشعوبنا ؟ 0 ولكل ذلك فأن من حق شعبنا أن يطالبكم بالاستقالة00"0

ولكن التركيز علي شخصية جورباتشوف – رغم أهمية دوره – لا يحل الأزمةالمتعددة الأوجه التي مدت جذورها إلي كل ركن قبل البيرسترويكا ثم انفجرت مطالبة بحل في ظل قيادة نشأت في الدواوين وشقت طريقها لاعلي بالوساطة وما شابه 0 ولم يكن لتلك القيادة أن

تعكف علي دراسة المشكلات العويصة أو تحرك الجماهير بالديمقراطية، ولم يكن أمامها الا مخرج وحيد : السوق0

ومشكلة محصول القمح هذا العام هي مثل لأزمة الاقتصاد المتخلف والعاجز فالقمح عادة لا يكفي الاتحاد السوفيتي، لكنه هذه السنة كان وفيرا بحيث لو تم جمعه لفاض وزاد، لكن الدولة عجزت عن ذلك لأن وسائل الجمع بدائية وتهدر نصف المجموع، ولأن وسائل النقل لا تكفي كما أن أماكن التخزين معدومة ! 0 واضطرت الدولة لبيع جزء كبير من الذهب لشراء القمح من الخارج وهو ملقي تحت قدميها، فتاريخ البيرسترويكا كله ليس في حاضرها ولكن في ماضيها 0

وقد وصلت، ما قال عنه د 0 فؤاد زكريا (المقامرة الكبري)، إلي لحظتها الحرجة، عندما يضع اللاعبون كل ما لديهم فوق المنضدة ويجلسون في انتظار النتيجة 0 فاذا استطاعت الحكومة حل الأزمة الاقتصادية فأن الأوضاع ستنفرج، لكن ذلك للأسف أمر مستبعد في ظل برنامج حكومي قال عنه البعض أنه "مجرد ابتهال للرب لكي تقع المعجزة" 0 وقد تعددت وتضاربت البرامج الاقتصادية للانتقال إلي السوق بينما يشهد الاتحاد السوفيتي ليل نهار حملة – لم تحدث في أي بلد في العالم – علي الاشتراكية والماركسية من كافة الأجهزة الاذاعية والتليفزيونية والصحفية، وهي حملة لم يكن لاميركا نفسها أن تخصص لها كل تلك الأوراق وساعات الارسال، وفي الوقت نفسه ترتفع الأسعار ارتفاعا جنونيا، تقدرها صحيفة "الكومسومولسكايا" (4 أكتوبر) بأنها تشكل زيادة بنسبة 400% فقد وصل كيلو الجبن إلي عشرة روبلات، واللحم إلي حمسة وعشرين 0 والبيضة الواحدة إلي روبل، والطماطم إلي ستة روبلات، والبطاطس ما بين 3و5 روبلات (كان الكيلو بثلاثين كوبيك منذ عام !) والتفاح من 6 إلي 10 وتقوم الحكومة برفع الأسعار دون الاعلان عن ذلك والجدول التالي يوضح الزيادات الحكومية مقارنة بما كانت عليه الأسعار والسوق 0

أسعار الحكومة منذ عام الآن	أسعار الحكومة أسعار السوق
التفاح (60 كوبيك) من 6 إلي 10 روبل	روبل (وغير موجود)
البطاطس (20 كوبيك) موجود)	40 كوبيك (وغير من 2 إلي 4 روبل
البصل (50 كوبيك) موجود)	70 كوبيك (غير من 2 إلي 3 روبل
عشر بيضات(90كوبيك) موجود)	3 روبل (غير 10 روبلات
الجبن (روبل ونصف) 10 روبلات	روبل (غير موجود)
اللبن الكثيف (روبل ونصف) موجود)	روبل ونصف (غير 10 روبلات
خيار مخلل (60 كوبيك) 12 روبل	60 (غير موجود)
السمك الأحمر (3روبل) موجود)	3 روبل (غير 30 روبل
اللحم (2روبل) موجود)	2 روبل (غير 25 روبل
البطيخ (30 كوبيك) موجود)	30 كوبيك (غير روبل
معلبات الخضروات 100%	زيادة رسمية ----------
ملابس داخلية (2روبل) موجودة)	6 روبل (غير من 10 إلي 15 روبل
الجوارب (روبل) موجود)	6 روبل (غير من 10 إلي 12 روبل
كافة أنواع العصائر 100%	زيادة رسمية -------

الصحف والمجلات زيادة رسمية أكثر من الضعفين -----
الدخان (كوسموس) 70 روبل 3 روبل العلبة 5 روبل العلبة
الدخان (يافا) 40كوبيك 1 روبل العلبة 3 روبل العلبة
الاحذية الصيفية (50 روبل) 50 (غير موجود) 120 روبل
الشتوي (60 – 80 روبل) 60 – 80 (غير موجود) 300 – 700 روبل

واذا أضاف القاريء إلي تلك الأسعار أن المرتبات ظلت علي ما كانت علي (200 روبل في المتوسط) لأدرك خطورة الوضع، ومازال البعض يحمدون اللهعلي غلاء السلع مع وجودها، ذلك لأن هناك سلعا لا يعرف أحد سعرها بالضبط لأنها غير موجودة من الأساس واختفت بقدر قادر مثل : الأرز، الدقيق، الزيوت، السكر، الحبوب بكل أنواعها، القهوة، الأقمشة، الأدوات الكهربائية، اللامبات الكهربائية0 كما ارتفع أيضا سعر الخدمات العامة، علي سبيل المثال كانت الأسرة تدفع لدور الحضانة عن الطفل 13 إلي 15 روبل شهريا فصارت تدفع 130 روبل وقررت الحكومة خفض التدفئة المركزية داخل البيوت من عشرين درجة إلي خمسة عشر درجة وهو فارق كبير جدا في شتاء روسيا0 ولذلك كله تكتب الصحف عن أنه في أبريل القادم – حينما تتم البيرسترويكا عامها السادس – سيحل شتاء من المجاعة والبرد 0

وفي تلك الظروف يناقش (أندريه أورلوف) رئيس اللجنة الحكومية لشئون الاصلاح الاقتصادي (13 / 10 / سوفيتسكايا روسيا) امكانية أن يتقدم الغرب بمشروع "مارشال" لمساعدة السوفييت اقتصاديا، عاقدا أمله علي الدول السبع الصناعية، منوها بأن الاتحاد السوفيتي فيما مضي كان يعتبر ذلك المشروع "مشروعا استعماريا"

أما الآن فيمكن بالمارشال انقاذ التجارة السوفيتية التي أمست علي حافة الانهيار، كما يمكن بالمارشال :
"مساعدة الدولة علي الاندماج في الشبكة الاقتصادية العالمية وانشاء هياكل السوق الحرة في الداخل ويشير "أندرويه أورلوف" إلي أن العجز في الميزان التجاري قد بلغ هذا العام ستة أضعاف ما كان عليه العام الماضي 0 وأن العجز في الميزانية وصل إلي مائة وعشرين روبل (يقدره الاخرون بثلاثمائة مليار وهو رقم يساوي ايرادات الدولة من الميزانية العامة00) كما انقلبت علاقة الروبل بالدولار، وانعكس الوضع، وينتظر في هذا الشهر صدور قرار بحيث يساوي الدولار الواحد روبلين، بعد أن كل الروبل الواحد يساوي 60 و 1 دولار0 وفي الحوار بين الاقتصاديين السوفييت والأميركان، يذكرهم السوفييت بأن أحد أسباب تفاقم الأزمة هو عودة القوات العسكرية السوفيتية من البلدان الاشتراكية وما تتطلبه القوات من نفقات ومساكن وغير ذلك 0 لكن الأميركيين عادة ما يصابون بصمم في تلك الحالات، لأن رؤوس الأموال الأميركية والأوربية لا ترحب بازاحة العوائق الايديولوجية الا كمقدمة للحصول علي الأرباح، والمشاريع المريحة أمر مشكوك فيه في ظل الظروف الحالية 0 وقد كانت حركة التجارة السوفيتية مع الغرب أنشط وأقوي في عهد بريجنيف، وبذلك تثبت أوروبا أن من الأفضل لها أن تتعامل مع "شيوعيين أغنياء" عن "رأسماليين فقراء" !0

سبع خطط اقتصادية تفشل في عشرة شهور !

قد يعتقد من يتابع الأوضاع الاقتصادية السوفيتية أنه قد أهمل حلقة ما في سلسلة ما يجري ولذلك تختلط عليه المشاريع والبرامج والأسماء (أبالكين)، (آشتالين)، (خطة ال 500 يوما)0 (خطة الحكومة) الخ0 ولكن الوضع المعقد والصراعات السياسية قد أشاع البلبلة ونشر أكثر من خطة للخروج من الأزمة الاقتصادية التي تم وضعها

ونقاشها ورفضها قد بلغت سبع خطط خلال عشرة شهور0 أي بمعدل خطة كل أربعين يوما تقريبا ! وقد صرح أبالكين ذات مرة بأن : "أحدي مشاكلنا الأساسية أننا لا ندري ما الذي نريده بالضبط من الاقتصاد"0

الخطة الأولي

هي التي طرحتها البيرسترويكا وهي خطة الأكاديمي "أبالكين" واطلق عليها : "خطة الاستقرار الاقتصادي" وذلك في نوفمبر 1989 معلنا أنه لابد من الوصول لاستقرار اقتصادي في نهاية عام 89 0 ثم يبدأ من يناير 1990 عملية التحول لمدة عامين لانشاء هياكل السوق0 وقد قبل مؤتمر نواب الشعب بالخطة واستمر العمل بها شهرين واتضح في الواقع فشلها الذريع لأن الأوضاع ازدادت سوءا، واعترف (أبالكين) نفسه بذلك 0 وعاد المؤتمر فرفضها مؤكدا أنها لا تصلح ولم تثبت نجاحها0

الخطة الثانية

هي التي أعدها أبالكين مرة أخري وقدمها ريجكوف رئيس الوزراء في 24 مايو 1990 ، وفي العدد الخامس "اليسار" عرض لتلك الخطة واتجاهاتها العامة 0 وقد رفض البرلمان السوفيتي الخطة وطالب بإقالة ريجكوف، ثم طالب الحكومة بتعديل هذه الخطة بمراعاة ملاحظات النواب والعودة بالصيغة الجديدة للخطة إلي البرلمان في أول سبتمبر هذا العام0

الخطة الثالثة

أثناء دورة البرلمان التي رفضت الخطة الثانية كان برلمان روسيا مجتمعا، ورفض هو الأخر تلك الخطة في

25 مايو، وقرر تكليف مجموعة اقتصادية برئاسة الأكاديمي "شتالين" ومعه "يافلينكسي" (المستشار الاقتصادي لجمهورية روسيا) بوضع خطة أخري بحيث تصلح للتطبيق في الاتحادبكافة جمهورياته ولروسيا0 وتم اعداد تلك الخطة في ظرف شهر واحد وعرفت باسم (خطو ال 400 يوما) ثم سميت (خطة ال 500 يوما)0

الخطة الرابعة

مع ظهور خطة روسيا البديلة، قرر البرلمان تشكيل مجموعة عمل برئاسة الأكاديمي : "أجانبيجيان" وذلك في يونيه لدراسة خطة "أبالكين" الحكومية وخطة "شاتالين" الروسية والتوصل لخطة أخري من مجموع الخطتين والملاحظات عليهما وفي نفس الشهر يونيه أعلنت روسيا "بيان السيادة" مما ضاعف من خطورة وضع "يلتسين" السياسي باعتباره رئيسا لأكبر الجمهوريات ومزايدا علي جورباتشوف0

الخطة الخامسة

حين لمس جورباتشوف بروز "يلتسين" السياسي وبروزه ببرنامج اقتصادي مع تركيز تاغرب علي تلميع يلتسين، دعاه جورباتشوف بوثيقة وقعها الاثنان في 2 اغسطس إلي وضع يرنامج مشترك للانتقال إلي السوق، ووضع تلك الخطة الأكاديمي "شنالين" وكان الاتفاق أن تشتمل الخطة علي العناصر الأساسية في خطة روسيا، ونشرت الخطة في الصحف تحت عنوان "الانسان، الحرية، السوق" ليتعرف القاريء إلي خطوطها العامة وذلك في 6 سبتمبر0

الخطة السادسة

في 10 سبتمبر افتتح البرلمان السوفييت دورة أعماله الرابعة ليناقش :

1 – خطة ريجكوف أبالكين المعدلة بعنوان (البرنامج الحكوميلتشكيل هياكل وطرق عمل السوق)0
2 – الخطة التوفيقية التي أعدها "أجابينجيان" كحل وسط بين برلمان روسيا السوفيتي0
3 - الخطة التي أتفق عليها جورباتشوف ويلتسين وأعدها "شتالين"

وفي تلك الدورة لم يكن لدي النواب في البرلمان السوفيتي تفاصيل خطة الحكومة (أبالكين) ولا خطة (شتالين) ولا (أجانبيجيان) ! وكان عليهم أن يختاروا من بين تلك الخطط الثلاث، فرفضوها جميعا بناء علي ما لديهم من المام بالخطوط العامة !
وفي تلك الدورة صرح جورباتشوف بأنه لو ترك له الاختيار لاختار خطة (شتالين)، (في مواجهة ريجكوف رئيس الوزراء الذي قال فيما بعد أن تصريح جورباتشوف ذلك كان مفاجأة له)0 ولأن جورباتشوف يمثل حلا وسطا بين خطة الحكومة التدريجية وخطة يلتسين فقد اقترح لتفادي الأزمة البرلمانية 00 والوزارية أن يشكل لجنة لإعداد خطة سابعة ! وتم تشكيلها برئاسة (بيتراكوف) علي أن تقدم اللجنة الخطة الجديدة في موعد أقصاه 15أكتوبر الحالي0 وأن تضع في اعتبارها كافة ملاحظات البرلمان والجمهورياتالاخري والبرامج السابقة عليها 0 ولكن "يلتسين" من باب معاكسة جورباتشوف أقر في برلمان روسيا خطة شتالين باعتبارها الخطة الصالحة له0

الخطة السابعة

بدأ البرلمان السوفيتي في نقاشها (وهي لم تنشر بعد)، وقال يلتسين عنها : "أن تنفيذها يعني تنفيذ

الكارثة الاقتصادية"، وأن الخطة الجديدة ليست الا محاولة للجمع بين (الافعي والقنفذ) في سلة واحدة، كما أعلن أن روسيا لن تلتزم بتلك الخطة مما يهدد بمصاعب في العلاقات الاتحادية بين روسيا وبقية الجمهوريات0

وأول ما يمكن التوقف عنده في كل تلك الخطط أن واضعيها : (أبالكين،شتالين، بيتراكوف) كلهم هم أعضاء في مجلس الرئاسة الذي استحدثه جورباتشوف، وأنه هو الذي أختارهم بنفسه 0 وأن تلك الخطط قد فشلت لأسباب موضوعية، ولأسباب ذاتية تتعلق بالصراع السياسي بين يلتسين (الداعي للسوق الحرة فورا) ويجكوف (السوق ولكن بالتدريج) وجورباتشوف (السوق ولكن دون انفجارات تهدد وضع السلطة الحالية)0

ولهذا يمكن الحديث عن ثلاثة اتجاهات وسبع خطط0 الاتجاه الأول الذي يبلوره (شتالين) والثاني يبلوره (أبالكين) والثالث محاولة للجمع بين الطرفين0

الاتجاه الأول

يمثل هذا الاتجاه الأكاديمي "شتالين" الذي حبذ جورباتشوف برنامجه بينما أيده يلتسين بحرارة وقد استحسن علماء الاقتصاد الأمريكيون أيضا هذا البرنامج الذي وضعه شتالين مرتين، مرة في صيغة (برنامج 500 يوما) لروسيا، ثم مرة أخري للاتحاد ككل بعنوان (الانسان 0 الحرية 0 السوق) وقالوا عنه أنه برنامج : "التجديد الشامل الذي يتفق مع المواصفات العالمية رغم بعض النواقص هنا أو هناك "وتشير مجلة (أجنيوك العدد 37 سبتمبر) في مقالة للاقتصادي المعروف "نيقولاي شيمليوف" إلي أن برنامج شتالين يخلو من الرطانة الاشتراكية ولا يحمل بقايا التقاليد الايديولوجية التي عفي عليها الزمن وتنوه الكومسومولسكايا في 6 / 10 أن هذا البرنامج تخلص نهائيا من التقيد بالايديولوجية والاشتراكية وتلك ميزته الرئيسية0

الاتجاه الثاني

هو اتجاه مجموعة الاقتصاديين التي يقودها الأكاديمي (أبالكين) ويمثل علي حد قول البعض : "سياسة متذبذبة للانتقال إلي السوق، والتمسك اللفظي ب : الخيار الاشتراكي والتمسك الفعلي بدور الدولة ومصالح الفئات المرتبطة بالأجهزة، وبينما يطرح برنامج "شتالين" فعليا علاجا بالصدمات والانتقال للسوق خلال سنة وأربعة أشهر فإن برنامج أبالكين
يري ضرورة الانتقال التدريجي وعلي مدي ثلاث سنوات ويري (أبالكين) ضرورة أشراف الدولة علي عملية التحول لكي لا تنفلت 0

ما هو المشترك بين البرامج الاقتصادية المتعددة ؟

يجمع كافة الاقتصاديين السوفييت علي أن هناك أمرا أساسيا يجمع بين البرامج المختلفة ويوحد الاتجاهين الأساسيين وهو : ضرورة الانتقال للسوق الحرة، والاعتراف بدرجات وأشكال مختلفة بالملكية الخاصة 0 وضرورة نقل ملكية الدولة إلي المؤسسات الخاصة والافراد ولذلك تكتب صحيفة (سوفيتسكايا روسيا) 17 / 10 قائلة : في الحقيقة فأن الفرق بين البرنامج الحكومي وبرنامج شاتالين هو في الإيقاع الذي يجب أن يتم به التحول، وما عدا ذلك فإننا لا نجد فروقا أخري جوهرية وعلي الرغم من صحة تلك الملاحظة الا أن التضارب والتعددية والبرامج الحكومية وشتالين كل ذلك يعكس درجة من التصورات المختلفة لكيفية اقتسام المصالح الجديدة التي ستنشأ مع نشوء السوق نفسه0

الخلاف بين شاتالين وأبالكين

أو بين الدولة و الدولة

لقد أقرت الدولة والحزب – من أعلي – الاتجاه للملكية الخاصة والسوق، فالأكاديمي "شتالين" وإن بدا أنه يقف في الجانب المناوىء للحكومة الا أنه يمثل الدزلة نفسها، ولا تعكس معارضته الاقتصادية طابعا شعبيا أو ديمقراطيا والصراع بينه وبين (أبالكين) هو حوار العين اليمني مع اليسرى لنفس الوجه 0 وينطلق برنامج شتالين من السوق أولا باعتباران وجودها هو الذي سيحرك الإنتاج ويطوره ولذلك يجب البدءبانشاء اليات السوق (البورصة المالية – الأسهم والسندات – بورصة العمل – البنوك المتخصصة – اطلاق منافسة السلع الأجنبية – اقامة المناطق الحرة – استخدام قوة العمل المأجورة) والسوق عنده هي التي تحدد كل شيء : الانتاج ونوعياته وكمياته وأسعاره والأجور وغير ذلك، وباختصار فإنها كما قال الأميركان سوق : تطابق المواصفات العالمية 0 والسوق اقتصادها عند شتالين ينطلق من مبدأ "أدم سميث" المعروف : "مهمة الاقتصاد أن يكون فعالا لا عادلا" والسوق عنده لابد أن تبدأ وتتشكل في كل جمهورية علي حدة ثم تتشابك مع الأسواق الاخري لينشأ من كل ذلك "سوق سوفيتي مشترك" لا العكس0

وحينما يلفت البعض نظر "شتالين" إلي أن خطته هذه كفيلة بهدم الاتحاد السوفيتي كدولة اتحادية وتفكيكها كوحدة اقتصادية، يقول : "إن تشكيل وحدةاقتصادية من أسفل إلي أعلي هو فرصتنا الأخيرة للحفاظ علي الاتحاد، أما الاستمرار في الوضع الحالي فهو حل للاتحاد، فقد حصلت روسيا واكرانيا وبيلاروسيا والبلطيق علي سيادتها، وقريبا يكون لها عملة خاصة وجمارك وغير ذلك0

أما السوق عند "أبالكين" والحكومة فإنها تحتل – مع أنها الهدف – الدرجة الثانية بعد محاولة إنقاذ الاقتصاد برفع الأسعار أولا، والضرائب وتنشأ السوق بالنقل

التدريجي لملكية الدولة إلي المواطنين والمؤسسات الخاصة مع التركيز في البداية علي الشركات المساهمة وخاصة بالنسبة للمشاريع والمصانع الكبرى، والبدء بالمقاهي والمحلات وورش التصليح والاكشاك وغير ذلك والسوق عنده لابد وأن تتوازن بدور الدولة وأجهزتها، والأستمرار في برمجة الاقتصاد – وهو ما يرفضه شتالين نهائيا – ويعترف أبالكين في الوقت نفسه بأن تنفيذ خطته : "غير ممكن دون رفع الأسعار والانتقاص من مكاسب الكادحين" (جريدة العمل) ويلوم أبالكين خطة شتالين لأنها : "تنفي عمليا المحافظة علي وضع الدولة السوفيتية"0 فالسوق عند أبالكين تبدأ من أعلي ، من السوق الاتحادية ثم تتفرع إلي الجمهوريات الاخري، والعمل الموجه والمنظم هو المركز ويقول إن خطة شتالين ستؤدي لاختفاء الاتحاد السوفيتي واختلال موازين القوي العالمية0 وبينما ينص أبالكين علي ضرورة أن يقدم المشتري لمؤسسات الدولة بيانا عن مصدر دخله، فإن شتالين يطالب باعلان العفو العام لكل من تمت محاكمته علي أساس المواد الدستورية التي حرمت المضاربة والتجارة أي الأفراج الرسمي عن رؤوس أموال السوق السوداء وبينما يركز أبالكين علي التعويضات (وهي هزيلة جدا) والمعاشات، فإن شتالين يتجاهل ذلك من الناحية الفعلية منطلقا من أن : "علينا أن ندفع ضريبة التقدم والسوق" ويخشي برنامج الحكومة من انفجرات الاضطرابات، بينما لا يخشاها شتالين معتبرا أن الأوضاع الاقتصادية الحالية هي التي ستقود للإضرابات والانتفاضات، وأن الناس يعانون في ظل أسعار حكومية ثابتة (مع غياب فعلي للسلع) أكثر مما سيعانون فيما بعد0

الملكية الخاصة وملكية الأرض

ينطلق برنامج "شتالين" بوضوح من أن الحديث عن السوق، والاقتصاد الفعال، وكل ذلك أمر مستحيل طالما لم تحل مشكلة الملكية الخاصة بوضوح وبنصوص تشريعية ولابد من النص عليها بصورة مطلقة باعتبارها الشكل الأساسي للملكية ويقول برنامجه : "الحق في الملكية يتجسد عبر حل وتفكيك قطاع الدولة ونقله للملكيات الخاصة، ليس من باب الثأر أو الانتقام، ولكن لتثبيت حقوق الانسان ونصيبه في الثروة القومية، فالمالك الخاص ذو مصلحة في استقرار المجتمع، كما أن خبرتنا المحزنة تؤكد أن ما لا يملك شيئا يصبح عنصرا خطرا علي المجتمع، ويقرح جرد ثروة البلاد القومية والبدء في توزيعها بشكل أو بأخر أما في المجال الزراعي، فيطالب بتمليك الأرض للفلاحين بما في ذلك حق بيعها ورهنها وتوريثها وتتحفظ خطة أبالكين والحكومة في ذلك المجال، فتشير إلي الملكية الخاصة باعتبارها شكلا من أشكال الملكية تقف علي قدم المساواة مع ملكيات الدولة 0 وفي المجال الزراعي تطالب الحكومة بتأجير الأرض للفلاحين والبدء بالسومخوزات غير النتجة في الرحلة الأولي وهو ما تعتمد عليه الحكومة في إقامة التوازن بين السوق والدولة ويقترح برنامج (أبالكين والحكومة) هو الآخر بيع 70% من ممتلكات الدولة مثله مثل برنامج شتالين ولكن علي مدي أطول0 ويتفق الاثنان في ضرورة سد العجز في الميزانية عن طريق تخفيض المساعدات الخارجية 75% وتخفيض الميزانية العسكرية وتقلي صالدعم للمؤسسات الحكومية الخاسرة0

لماذا تفشل الخطط ؟

وعلي الرغم من الفروقفي المدخل للاتجاه نحو السوق الا أن البرنامجينالرئيسيين يتفقان علي حل القطاع العام، وعلي أن الطريق الوحيد هو الانفتاح الاقتصادي والملكية الخاصة 0 وتنص علي ذلك الخطة

السابعة التي تقدم بها جورباتشوف في 16 / 10 ونشرت في 17 / 10 ، ويقول جورباتشوف : "سوف تشرف علي عملية نزع ملكية الدولة علي المستوي الاتحادي هيئة تسمي : "صندوق الممتلكات الحكومية للاتحاد السوفيتي" علي أن تنشأ هيئات مماثلة في الجمهوريات الاخري ويشير البرنامج في المرحلة الأولي إلي : "تمليك الافراد واجراء اصلاح زراعي"0

والسبب في الاخفاق المتوالي لتلك البرامج هو الأزمة نفسها0 فالدولة التي تعرض مؤسساتها للبيع لا تجد المشتري فبينما تبلغ قيمة ممتلكات الدولة (3 تريليون روبل)، فإن المدخرات والأموال في السوق السوداء لا تتجاوز ال (300 مليار روبل) 0 ولحل تلك المشكلة تقترح بعض الآراء إقراض المواطنين من بنوك الدولة ولكن الدولة نفسها تعاني عجزا في الميزانية ولا يسعها الإقراض ؟ ومن ناحية أخري يعود الفشل إلي أن الخطط كلها لا تحدد اليات واضحة لنقل ملكيات الدولة للمؤسسات والأفراد00 هل يكون ذلك بنقل الملكية مجانا كما يري البعض ؟ ببيعها بأسعار السوق ؟ ببيعها بعض التنازلات ؟0 وأخيرا فإن تلك البرامج تفتقد قوة التنفيذ ولا تجد صدي لها في التشريعات والدستور والقوانين0

وتفشل البرامج المتعددة باتجاهيها الرئيسيين نتيجة للصراع السياسي بين مختلف القوي، وهو صراع لا يستنكف اللجوء إلي الحوادث المصطنعة لإحاطة الزعماء بهالة جماهيرية، فمرة يصاب ريجكوف رئيس الوزراء في حادثة سيارة مجهولة، ومرة أخري يصاب يلتسين في حادثة سيارة أخري 0

وتخفق البرامج أيضا لاسباب موضوعية، منها أن الحكومة (أبالكين) تريد أن تضمن موطأ قدم لنفسها في السوق الذي تقيمه، وتود لو أقامت نوعا من الشراكة مع رجال السوق 0 وعلي سبيل المثال فأن مصنع (كاماز) لصناعة سيارات النقل قد أمسي شركة مساهمة، ولكن أحدا من سكان المدينة المقام فوقها المصنع لم يحصل

علي سهم واحد في تلك الشركة 0 فقد تقاسمت ادارة المصنع والعاملون فيه مع المسئولين في وزارة النقل والمواصلات الأسهم كلها ! 0 وخطة الحكومة التدريجية (التي تنطلق من رفع الأسعار) تسعي لأن تكون الوزارات والمصالح الحكومية طرفا مباشرا ومالكا مستفيدا بالتديج عند التحول للسوق 0 ويتضح ذلك أيضا من حالات المشاريع الخاصة التي تنشأ كلها تحت جناح الدولة وبرعايتها0 اذ تقوم المؤسسات الحكومية بتوفير (المقرات والإدارات والتسهيلات ورؤوس الأموال الجامدة) للمشاريع الخاصة باعتبارها جزءا من رأس مال المشروع، وبذلك ينقلب الذين يوقعون علي تلك التصاريح إلي رجال أعمال يتلقون حصة لأنهم قدموا ما لا يملكونه لمن لا يستحقونه ! 0

وهناك مثال آخر، فقد رفض مجلس الوزراء إدراج بعض فروع الإنتاج في الأشكال القابلة للملكية ما لم تملك الحكومة 51% من الأسهم وكانت فضيحة بيع الطائرات الحربية (آنت) شكلا من الشراكة بين الدولة في ثوبها القديم والدولة في ثةبها الجديد، أو بين الدولة والسوق وكانت فئة الموظفين تحصل فيما مضي علي دخولها المميزة من المكافئات والجوائز والتسهيلات والهدايا فأخذت تحاول الآن الحفاظ علي وجودها باعتبارها من أصحاب المشاريع الحرة0

والآن فقد رفض يلتسين الخطة السابعة، وتوجه للبرلمان الروسي – رغم مرضه – ليقول للبرلمان : "أن تنفيذ تلك الخطة يعني كارثة اقتصادية ويدفعنا ذلك رفضها والالتزام بخطتنا السابقة بغض النظر عن أي شيء " كما استقال (يافلينسكي) مستشار روسيا الاقتصادي ، أما جورباتشوف فقد توجه (19 / 10) إلي البرلمان السوفيتي الاتحادي لينهال بالنقد والغضب علي يلتسين الذي يوجه الانذارات للدولة وكأنه الرئيس الوحيد للجمهورية الوحيدة في اتحاد يتألف من 15 جمهورية أما

يلتسين فقد أصر علي العمل بخطته، وصك عملة روسية، واقامة حواجز جمركية، كما طالب بإقالة وزارة ريجكوف0
وقد يتساءل البعض : وأين الحزب في هذه القضية ؟ وما تصور السلطة لدوره الآن ؟ لقد حدد جورباتشوف دور الحزب في كلمته في 8 / 10 في الأجتماع الموسع للجنة المركزية حين قال لهم "إن قدرة الحزب علي المحافظة علي وضعه كحزب حاكم تتوقف الآن علي طبيعة أعماله في ظروف الانتقال إلي السوق، وأن استمرار التفكير القديم خطر يهدد وجود الحزب" ما الذي يمكن أن تسفر عنه هذه الأزمة ؟00 خطة ثامنة ؟

نوفمبر 1990

(11)
" حزب نينا أندرييفا "

في خطاب لجورباتشوف في أوديسا (18 / 8 /90) قال : "إن السمة المميزة لنموذج الاشتراكية الذي نتقدم نحوه هي – كما قلت ذات مرة : خطوبة الاشتراكية علي الحرية"0
لكن هناك امرأة عنيدة ترفض هذه الخطوبة وتأبي الا أن تشير كافة المنغصات، بل ووصل الأمر بها حد تشكيل حزب سياسي تتزعمه وتقول أنه : "حزب البلاشفة الذي سيتصدي لبعث الرأسمالية"000 أنها "نينا أتدرييفا" السيدة التي توجه للبيروسترويكا أعنف الاتهامات، بابتسامة رقيقة ودافئة وكأنها تقدم الحلوي لضيوفها، وهي السيدة التي شنت علها اذاعات الغرب

حملة متصلة لمدة ثلاثة أشهر باعتبارها صاحبة أشهربيان سياسي قالت عنه البرافدا أنه "بيان القوي المحافظة المعادية للبيرسترويكا"، وبسببها عقد المكتب السياسي اجتماعا خصص لمناقشة ما نشرته في "سوفيتسسكايا روسيا"0

والسيدة التي أثارة هذه الضجة مدرسة متواضعة في معهد للعلوم التقنية في لينينجراد، أتمت في أكتوبر من هذا العام الثانية والخمسين، من أسرة عمالية فقيرة، ولم تشغل أبدا موقعا بارزا في الحزب أو الدولة 0 وقد بدأت قصتها بمقالتها التي نشرت في 13 مارس عام 88 في "سوفيتسكايا روسيا" تحت عنوان : "لن أتنازل عن مباديء" ! 0 وكانت تلك الصحيفةفي حينه لسان حال اللجنة المركزية للحزب، وكان جورباتشوف في زيارة ليوغسلافيا، وكان "ليجاتشوف" هو المسئول الايديولوجي حينذاك، ولهذا قيل فيما بعد أن ليجاتشوف هو الذي أوعز اليها بكتابة تلك المقالة، وقيل أنه هو الذي كتبها، وقيل أنه ليس هناك من تدعي "نينا أندرييفا" أصلا0 وأنه اسم مستعار تختفي من ورائه القوي المحافظة0

وفي تلك المقالة تهاجم نينا أندرييفا سعي الصحافة لتشويه تاريخ الاتحاد السوفيتي، والحملة التي شنها الاعلام علي ستالين، وعلي لينين، والثقافة التي راجت، والطريق الذي تقترحه البيرسترويكا لتطوير المجتمع 0 وتقول آن أحدا لم يقدم دليلا علي صحة الاتهامات التي تكال لستالين وأهونها أنه أمر باغتيال تروتسكى، وكيروف، وغيرهما 0 وتقول أن الجميع يردون تدهور الزراعة إلي "المزارع الجماعية" وإلي أن ستالين قد صفي "الكولاك" (أغنياء الفلاحين) بقسوة، ويتناسون أنه لم يكن بوسع ستالين – مهما فعل – أن يلحق بالزراعة ما ألحقته بها الحرب العالمية التي سوت المدن بالأرض وهدمت كل شيء 0 وتقول "أن الأكاديميين الآن يشيعون أن الصراع، والدور القيادي للطبقة العاملة، مفاهيم قد عفي عليها الزمن 00 وأن العلاقة بين دول

النظامين الاجتماعيين المختلفين قد فقدت محتواها الطبقي "وتتساءل نينا أندرييفا : الا تتناقض الأن مصالح الطبقة العاملة في العالم مع مصالح الرأسمالية العالمية ؟ والا يتجسد هذا التناقض في دول وهيئات سياسية" وتتساءل : "أية طبقة أو فئة تقف الآن وراء البيرسترويكا وتدفعها للأمام ؟" وتمضي قائلة : "يجيب عن الؤال الكاتب "بروخونوف" فيقول أن وراء البيرسترويكا تيارين اجتماعيين الأول هو التيار الذي يطمح لاشتراكية ليبرالية، والثاني هو الذي يود العودة بالمجتمع إلي الوراء 00 وإن الاتجاهين يتصارعان لكسب البيرسترويكا "وتقول إن طرح القضية علي هذا النحو يتجاهل المسألة الأساسية وهي : الاعتراف أو عدم الاعتراف بالصراع الطبقي، الاعتراف أو عدم الاعتراف

بدور الطبقة العاملة، الاعتراف أو عدم الاعتراف بالملكية الخاصة0

وكانت تلك أولي المقالات الجريئة والواضحة التي دفعت الصحافة السوفيتية كلها للصمت ثلاثة أسابيع تحسست خلالها الأوضاع، واجتمع حينذاك المكتب السياسي بحضور جورباتشوف، ثم خرج الرد علي نينا أندرييفا بعد ثلاثة أسابيع في البرافدا في مقالة افتتاحية مطولة في 5 أبريل بعنوان : "مباديء البيرسترويكا :ثورية العمل والفكر" 0 توالت من بعدها المقالات والهجوم والأقلام التي سجل أحدها : "لقد عشنا في فزع خلال تلك الأسابيع خشية أن تعود البلاد إلي ما كانت عليه" ! وأصبحت نينا أندرييفا علامة علي موقف متكامل وتيار واسع، وراحت مختلف المنظمات الحزبية تتناقل مقالتها وتستنسخها وتوزعها في كل مكان، ولم يمر وقت طويل الا وكان زوج نينا أندرييفا – رئيس قسم الفلسفة بأحد معاهد لينينجراد – قد فصل من عمله، أما هي فقد زادتها الحملة تصميما علي التمسك بما حعلته عنوانا لمقالتها : "لن أتخلي عن مبادئي"0

وتجمع حول نينا أندرييفا عدد كبير من الحزبيين والمثقفين فقامت في 18 مايو 1989 بعقد المؤتمر التأسيسي الأول لمجموعة "الوحدة" في موسكو 0 وحضره مندوبون عن ستين مدينة سوفيتية من مختلف الجمهوريات 0 وأقر المؤتمر برنامج "الوحدة" والهيكل التنظيمي، والعضويات والاشتراكات، واسم الجريدة، كما انتخب بالاجماع نينا أندرييفا رئيسة لمنظمة الوحدة 0 وأنشأت ثلاثة أقسام : الايديولوجية، والتنظيم، والسكرتارية 0 وهيئة قيادة تتكون من ممثلين لتلك الأقسام الثلاثة 0 وقد ضمت "الوحدة" حفيد ستالين، ويشير البرنامج إلي أن "المستقبل الذي تدعونا إلي البيرسترويكا ليس سوي بعث للرأسمالية، كما أن علاقات السوق تتنافي مع مباديء الاشتراكية، وما من مخرج لبلادنا الا بالاقتصاد الموجه، والملكية الاشتراكية لوسائل الإنتاج 0 وتأكد منظمة الوحدة علي تمسكها بالدور القيادي للطبقة العاملة وحلفائها" 0 (مجلة الحقائق والوقائع 1 سبتمبر 1990)0

وحينما تناقش نينا أندرييفا قضية "السوق" فإنها تقول : "لقد كانت السوق موجودة دائما، سواء السوق الرأسماليةأو السوق الاشتراكية 00 لكن السوق في البلدان الاشتراكية تتميز عن السوق الرأسمالية بأمرين أثنين :

1 – اليد العاملة 0

2 – وسائل الإنتاج لا يمكن أن تكون سلعة في بلد اشتراكي0

نحن نري ونثق أن النظرية الماركسية لا تعاني من أزمة، فالأزمة كلها في القيادة"0

وفي أبريل 1990 تعقد نينا أندرييفا المؤتمر الثاني لمنظمة الوحدة وتتخذ فيه قرارها الثاني بتحويل منظمة "الوحدة" إلي "حزب البلاشفة"0

وحينما تنشر صحيفة "الكومسومولسكايا برافدا" في 14 / 11 الحالي صورا من لينينجراد يافطات يرفعها

متظاهرون وقد كتب عليها : "فلتخرج القوات الأجنبية من الخليج والعالم العربي"،ويخمن القراء علي الفور أن وراء تلك الشعارات هذه السيدة العنيدة التي تتزعم البلاشفة الجدد وتمارس مع أنصارها العمل السياسي بالكتابة للصحف، وبالمظاهارات، والاجتماعات، وداخل البرلمان0

وقد تحدثت نينا أندرييفا عبر شاشة التليفزيون السوفيتي وقتا طويلا، أضاعت القسم الأكبر منه في الدفاع عن ستالين، وعن عصر الاشتراكية الذهبي الذي أمتد من بعد الحرب 1947 حتي 1954، وعلي الرغم من الجاذبية الخاصة لسيدة لم تشغل مواقع في الحزب أو الدولة، وعلي الرغم من الصدق المتهدج في صوتها، الا أنك لا تدري إن كانت وجها للمستقبل القادم، أم ملمحا من الماضي العزيز00

ديسمبر 1990

(12)

تبديل مناهج التعليم 00

والأجيال الجديدة

في مايو 91 – بعد أن تتم البيرسترويكا عامها السادس بشهر – ستحتفل الجامعات والمعاهد السوفيتية بتخريج الشباب الذين التحقوا بها عند بداية البيرسترويكا 85، وهو جيل من الشباب يعوزه روائي عبقري وصادق ليصف حالته وبنيانه الفكري والنفسي، جيل التحول والانسلاخ الذي تمزقت ملامحه بين ثمانية عشر عاما من المسلمات الراسخة وخمسة أعوام التهمت كل شيء0 جيل قيل له : كل ما وراؤك ضلال 00

وأمامك مجهول، فزلزله شعور غامر بالحرية ويقين من الضياع0 فالهزات الفكرية والسياسيةالعاصفة لم تقتصر علي مجتمع وحياة أولئك الشباب، لكنها إمتدت إلي الكتب التي يدروسنها، والبرامج التعليمية، ومناهج التدريس، وما كانت تلتزم به الدولة من تعيين الخرجين وحمايتهم 0 والأخطر من هذا أن عصا البيرسترويكا السحرية قد مست بالتبديل والتغيير حجر الزاوية في حياة ذلك الجيل أي الفلسفة التربوية والتعليمية التي قام علي أساسها التعليم في الدول الاشتراكية0

وقد تضافرت مهمة التربية والتعليم في كل المجتمعات الحديثة، فالتعليم يربي، والتربية تعلم، لم تفلت التربية –منذ أن عرف الانسان الدولة والمدرسة والجامعة – من الإطار العام للتوجهات السياسية والطبقية لهذا المجتمع أو ذاك، أي أنها لم تفلت من ايديولوجية ذلك المجتمع 0 وقد قامت التربية في المجتمعات الرأسمالية والطبقية علي ثنائية التعليم : تعليم للصفوة، وتعليم للعامة، وقامت علي أساس القطيعة بين المعارف النظرية والتطبيق العملي، وكان علي المتعلمين في ظل تلك القطيعة أن يعرفوا ما يشاؤن، وأن يخدموا الدولة كما تشاء هي0 وقامت التربية علي التبرير بمختلف الوسائل والبراهين لعمليات التفاوت الاجتماعي 0 كما أشاعت تلك التربية أن المفاهيم الاخلاقية هي مفاهيم خارج إطار المجتمعات والمصالح، وأنها مفاهيم أبدية0 وقد ضربت التجربة الاشتراكية ثنائية التعليم، فوحدت البرامج الدراسية، وجعلت العلم مجانا للجميع، وربطت المعرفة النظرية بمهمة السعي المتصل لانشاء مجتمع عادل، واستهدفت بالعليم والتربية الاشتراكية مهمة تطوير الوعي والسلوك الاشتراكي 0 ولذلك كله كان التعليم والتربية مهمة ايديولوجية تنمي في الانسان قيما معينة وموقفا من الحياة والمجتمع 0 وقد تخلل ذلك المفهوم التربوي الاشتراكي كافة مراحل التعليم والتدريس في الاتحاد السوفيتي بدءا من دور

الحضانة وانتهاء بالجامعات 0 ولذلك نصت وثائق وزارة التربية والتعليم السوفيتية علي أن الهدف من التعليم هو : "تشكيل وتربية الرؤية الاشتراكية للتلاميذ والدارسين"0

ومع إشاعة موجة الاستقلالية المالية، ونظام الحساب الاقتصادي الذاتي، أدخلت تعديلات كثيرة علي علاقة الدولة بالتعليم، فحصلت الجامعات والمعاهد العليا علي "استقلالية مالية"، فأصبحت الوزارة تمنحها نفس الميزانية السابقة علي أن تتصرف فيها الجامعة بمعرفتها، فتقلص عدد المدرسين أو تزيده، وتفصل من تشاء أو تستبقيه 0 وأصبح هذا السلاح مسلطا فوق رؤوس المدرسين الذين تخصصوا في تدريس "الفلسفة الماركسية"، و "الشيوعية العلمية"، و "الاقتصاد السياسي"، وأخيرا "تاريخ الحزب" 0 كما أصبحت هذه الاستقلالية المالية سيفا علي رقاب الشيوعيين وأعضاء الكومسومول0 وفي مجلة "أنباء الحزب الشيوعي" (عدد 12) يقول سيلزنييف "رئيس تحرير مجلة العلمين"، وعضو اللجنة المركزية : "يستغل الكثيرون الظروف التي نمر بها لتحويل التعليم العام إلي رأس جسر لإعلان الحرب علي الشيوعيين، فيقومون بالتضييق علي المنظمات الحزبية في المدارس والجامعات، ويرفعون شعار : لا تسييس للتعليم، بينما يقومون بتسييس التلاميذ بطريقة أخري، وتحويل الطلبة إلي قوة ضاربة ضد الحزب والدولة ويصرون علي منع أي نشاط للحزبيين ويحصرون تدريس المواد السياسية، ويطردون اللجان الحزبية من المعاهد، واذا شرع مدرس في شرح موقفه فإنهم يصرخون فيه : لا تفتح فمك بهذه العادات الشيوعية"0

ولم يفقد المدرسون وحدهم حماية الدولة وضماناتها، بل وفقدها الطلبة أيضا، فلم تعد الدولة – كما كان في الماضي – ملزمة بتعين الخرجين بعد حصولهم علي شهاداتهم0 ويتجه التعليم تدريجيا ليصبح للقادرين وحدهم وليس لكافة أبناء الشعب0 وسيكون علي الطلبة

السوفييت أن يتقدموا لاجتياز امتحان قبول وفقا لنظام الدرجات، فمن لا يحصل علي أعلي الدرجات يصبح عليه أن يعثر علي مؤسسة خاصة تنفق علي تعليمه مقابل أن يشتغل عندها فيما بعد0 فإن لم يجد مثل هذه المؤسسة دفع من جيبه مصاريف التعليم إن كان قادرا 0 وعادة ما يتزاحم علي المقعد الدراسي الواحد ما بين 15 إلي 20 طالبا سوفيتيا0 وسيتعين علي الطالب الأجنبي أن يدفع 4 الآف دولار، وطالب الدراسات العليا 8 الآف دولار، مع التقليص المستمر لعدد المنح التعليمية المجانية وعدم قصرها علي "الأحزاب الصديقة"0 وربما لذلك كله يكتب "جيرنيوف" في كومسومولسكايا برافدا (29 / 11) عن قضية التعليم فيقول : "يبدو أننا مازلنا نعيش كما كنا نعيش سابقا00 أما الدولة فقد هاجرت وتركتنا"0

وكان طلبة الجامعات والمعاهد العليا يدرسون أربعة مواد أساسية تصوغ الرؤية الاشتراكية لدي الطلبة وهي : الفلسفة (المادية الجدلية والمادية التاريخية)، الاقتصاد الاشتراكي ، الحزب، وأخيرا الشيوعية العلمية 0 وكانت هناك أقسام بكل الكليات لكل مادة من تلك المواد وكان المألوف أن تةجه وزارة التربية والتعليم تعميما مع مطلع العام الدراسي علي الجامعات والمعاهد ب إضافة ما يجب أضافته، أو حذف ما تقدم من المادة، أو مواصلة التدريس وفقا للكتب والبرامج السابقة كما هي 0 ولكن الوزارة منذ عام 1986 لم تصدر تعميما رسميا للجامعات، ولم تطالب بتبديل الكتب، مكتفية بارشادات عامة تنطلق من : "الاستعانة بالصحافة ووسائل الإعلام وما تنشره"، و "قيام المدرسين باختيار المواد التي يرونها مناسبة" مع التركيز علي "البيرسترويكا والقيم الانسانية والتوجه للسوق الحرة، ودخول العلاقات الدولية مرحلة التعاون والوفاق"0

ولكن عمدا الجامعات والمعاهد الذين يدركون تماما اتجاه الرياح، قد قاموا بإلغاء الأقسام التي كانت تدرس المواد الأربعة المذكورة (الفلسفة والاقتصاد

والحزب والشيوعية)، وتبدلت أسماء تلك المواد واختلف مضمونها0

وقد تخلص التعليم العالي من مادة "الشيوعية العلمية" وكانت خلطا من مباديء الفلسفة الماركسية وتاريخ حركات التحرر الوطني المعاصر ومقتطفات من تصورات عن قيام المجتمع الشيوعي 0 وبدلا من هذه المادة حلت مادة أخري هي "النظريات الاجتماعية والسياسية" وسميت في كليات أخري "علم الاجتماع السياسي" 0 وفي حالات أخري سميت "نظريات الاشتراكية"0 وينطلق الكتاب الذي صدر العام الماضي من دراسة النظريات الاشتراكية الماركسية وغيرها دون التحيز لفكرة محددة، أو تبني موقف معين، معتبرا أن النظام الرأسمالي العالمي لم يستنفذ بعد قدراته، وأن الشيوعية هي احتمال من احتمالات التطور إلي جانب الاحتمالات الأخري المطروحة مثل المجتمع الصناعي المتقدم الذي يتجاوز النظامين الاجتماعي بالتطور التكنولوجي0 ويشير الكتاب إلي ضرورة التعاون مع الدول الرأسمالية الوثيق، والكف عن التمسك بالايديولوجية، والاتجاه للاندماج في الاقتصاد العالمي، أما القضايا المطروحة علي التطور البشري فهي : تفادي الحرب النووية، المشاكل البيئية تقليص التسلح، والإرتقاء بطابع التقدم التكنولوجي في العالم، حل مشكلات العلاقات بين الشرق والغرب والجنوب، وأيضا : مكافحة الإرهاب الدولي0 ويشير الكتاب ص 363 إلي أن تحقيق الأهداف يشكل منعطفا ثوريا هائلا في التطور التاريخي، وأن هذه هي الصيغة الأساسية للتطورات الثورية في العالم المعاصر !

واذا كان علي مادة "الشيوعية العلمية" التي لم تعد لا شيوعية ولا علمية أن تستعين بما تكتبه الصحافة ووسائل الاعلام، فإن بعضا مما تكتبه هذه الصحافة الرسمية – مثلا في مجال العلاقة مع العالم الثالث – هو الدعوة المتصلة لتمزيق لحم هذه العلاقات، والقول بأن

مراكز الخطر علي النظام العالمي هو بلدان العالم الثالث وتحديدا كوبا، وليبيا ومنظمة التحرير والعراق، وأن تلك هي بؤر الإرهاب الدولي0

الفلسفة00

قامت أغلب الجامعات والمعاهد العليا بإلغاء أقسام الفلسفة الماركسية اللينينية، وإحلال أقسام : تاريخ الفلسفات 0 واختفي المدخل الفلسفي الطبقي ليحل محله عرض تاريخي لتطور مختلف المدارس الفلسفية : الوجودية، والبنيوية، ونظريات المجتمع الصناعي الذي تشكل التكنولوجيا فيه القوة الأساسية للتطور، وتروج بالذات نظرية "فوكو ياما" (أميركي من أصل ياباني) المعروفة باسم "نهاية التاريخ" والتي يقول فيها إن التطور التاريخي قد وصل إلي نهايته، لأنه عثر علي الصيغة المثلي للتطور وهي الديمقراطية الغربية القائمة علي السوق الحرة، وأن هذه الصيغة هي الطريق الذي ستمضي عليه كافة المجتمعات البشرية الآن 0 وبينما يستمر التدريس في مجال "المادية الجدلية" يختفي التدريس تماما في مجال "المادية التاريخية" التي تعتبر انجاز الماركسية في الإنتقال بقوانين الجدل من الطبيعة إلي المجتمع0 وقد راجت أيضا الفرويدوية، والانثروبولوجيا الانسانية التي ترد التطور الاجتماعي إلي العلاقات الشخصية بين الأفراد المحكومين بطبائعهم البيولوجية، ويتم وضع هذه البرامج والناهج – بما في ذلك الإستعانة بالكتب – بالإشتراك مع علماء الجامعات الأميركية في مؤتمرات علمية، ينصح فيها الأميركان بما يجب تدريسه وما لا داعي له0 وقد صدر هذا العام كتاب جديد يفترض أن يكون المرجع للجامعات عنوانه مدخل للفلسفة، ويقع في جزئين، وتزيد صفحاته عن الأف صفحة، كان مناب الماركسية منها هو ستين صفحة فحسب، ويقد الماركسية باعتبارها إحدي الفلسفات الحديثة، وباعتبارها

"نظرة للعالم" وليست نظرة طبقة معينة ودليل للحركة الثورية، فيغيب منها أنها موقف طبقي، ويشير ص 275 إلي أن : "الدجمائية التي سادت طويلا في فلسفة وايديولوجية بلادنا قد لقنت الرأي العام ان الفلسفة الماركسية هي الفلسفة الوحيدة الصائبة، علي حين أن هناك أشكالا واحتمالات متعددة للفلسفة الماركسية مثل " البنيوية" و "المادية الاجتماعية التكنولوجية"، والماركسية الهولندية الخ، ويطرح الكتاب ضرورة السعي لإنشاء اشتراكية جديدة انسانية تسعي لحل الخلافات (لم يقل أية خلافات والأغلب أنه يقصد الطبقية) في تلك الحدود التي تليق بالانسان المتحضر 0 وبما أن التوجيه الوحيد من وزارة التعليم هو الإستعانة بما تنشره الصحافة فإن الكثيرين يركزون علي الفلسفات المعادية للماركسية اللينينية0 فاذا أردنا التعرف علي نموذج مما تنشره الصحف، وهو قطرة من بحر، فإن مجلة "أجنيوك" الأسبوعية تنشر في العدد 47 مقالة للسيد : "تسيبكو" عنوانها : "احذروا البلشفية"0 يقول فيها : "إن البلشفية هي حالة خاصة من انانية المثقفين، وهي لا تمثل مجرد شهوة الإستيلاء علي السلطة والشهرة، ولكنها علاوة علي ذلك تدعي أنها تحتكر معرفة طريق التطور الصحيح، كما أن البلاشفة لا يتعففون عن استغلال كافة نقاط الضعف في البشر وأولها : الحقد والكراهية والحسد، ولهذا فإن الماركسية كفلسفة لم تجلب علي البشرية ألا الكوارث والمعاناة"0

أيضا فقد أدخلت أغلب الكليات الفلسفية والمعاهد مادة جديدة يدرسها الطلبة وهي "تاريخ الديانات" أو باسم آخر "مكانة الديانات في الثقافة الانسانية"0

الاقتصاد السياسي 00

ظلت هذه المادة نحمل اسمها القديم باعتبار أن هناك مادة مماثلة بنفس الاسم في الجامعات الأوروبية

ولكن مضمونها اختلف نهائيا،فلم تعد معنية بدراسة الاقتصاد الاشتراكي والاقتصاد الرأسمالي، ولكن بدراسة البرامج الاقتصاديةالمطروحة علي المجتمع السوفيتي للخروج به من أزمته0 ويتم التركيز علي قوانين السوق الحرة، والبورصة والسندات المالية، قوانين العرض والطلب، وأراء العلماء الاميركيين في كيفية الانتقال للسوق الحرة، والتجربة البولندية في التغلب علي المصاعب الاقتصادية، وتجربة المجتمع السويدي، وفي كل هذا يتم الانطلاق صراحة من فشل التجربة الاقتصادية الاشتراكية، ويجري تدريس نظريات علماء الاقتصاد الأميركيين ومنهم "كيسي انستوفا"، و "جيلبرت" وغيرهما0 وتتم الإستعانة بكافة المفكرين الذين اختلفوا مع لينين مثل "بوخارين" و "تروتسكي" وغيرهما0

تاريخ الحزب 00

ألغيت أيضا كافة الاقسام التي كانت تتخصص في دراسة وتدريس هذه المادة، كما ألغيت المادة نفسها وتبدل اسمها إلي "التاريخ السياسي" للبلاد، وأحيانا "التاريخ السياسي" فقط0 ولم يعد موضوعها الأساسي هو تاريخ الثورة ودور الحزب الشيوعي فيها، لكن تاريخ الحركات والتنظيمات السياسية كافة بدءا من أوائل القرن التاسع عشر، وللمدرسين الحق في التركيز علي ما يرونه جديرا بالتركيز عليه 0 وقد قلصت أغلب الجامعات ساعات تدريس هذه المادة من مائة وسبعين ساعة في العام الدراسي إلي ثلاثين ساعة 0 ويستعين المدرسون بالحرية المتاحة لهم، وبما تنشره الصحافة0 وعلي سبيل المثال فقد نشرت "المجلة العسكرية التاريخية" في عدد نوفمبر مقاطع مختارة من كتاب هتلر "كفاحي" وهي المقاطع التي تركز علي مهاجمة الاشتراكية والشيوعية وغير ذلك حتي أن جريدة النجم الأحمر (5 / 12) وهي الصحيفة الناطقة بلسان الجيش قد اضطرت للتعليق

علي ذلك بقولها : "أيا كان الهدف من نشر تلك المقاطع فإن مثل هذه الخطوة غير مقبولة لا من الناحية الاخلاقية ولا من الناحية التاريخية" 0 ولم يصدر بعد كتاب جديد ليصبح مرجعا وزاريا عند تدريس التاريخ0 ولكن الشائع هو الإستعانة بما تسميه الصحف هنا "إعادة قراءة التاريخ"، وبما تنشره عن التاريخ الحقيقي للاتحاد السوفيتي0 ومن العجيب أن تلك الصحف لا تجد من يؤدي لها ذلك التاريخ الحقيقي إلا مجموعة الجواسيس التي سافرت من الاتحاد السوفيتي للتعامل مع المخابرات الأميركية في الخارج، مثل مذكرات "باجانوف" وكان رئيس سكرتارية اللجنة المركزية ثم هرب إلي الخارج عام 27 ، ونشرت مجلة "أجنيوك" مذكراته بعنوان " الكرملين في العشرينات" وفيها لم يترك أحدا من رجال الثورة إلا وانهال عليه بالتشويه والتلويث 0 وهناك حوار مع سكرتير بريجنيف الذي كان يكتب المقالات نيابة عنه، ثم هرب خارج البلاد0 وقد نشرت صحيفة "الثقافة السةفيتية" ذلك الحوار بعنوان : "لست يهوذا00 ولكني ضحية" وكله دفاع حار عن اضطراره للتعامل مع المخابرات الأميركية 0 كما نشرت الصحف مذكرات "ارليوف" سكرتير ستالين الذي هرب أيضا إلي الخارج 0 وتعد كل تلك المراجع مادة أساسية الآن لمعرفة ودراسة التاريخ، علاوة علي كتب رخيصة تهاجم لينين هجوما مبتذلا مثل كتيب صغير أصدره الروائي "فلاديمير سالوخين" 0 وتؤكد كل تلك المراجع العلمية (1) أن الثورة الاشتراكية كانت عملا ارهابيا لا يغتقفر0

التعليم في المدارس 00

كانت هناك ثلاث مواد تدرس في المدارس السوفيتية وهي "التاريخ" "القانون"، و "المجتمع"، وهي المواد المشبعة بالرؤية الاشتراكية السوفيتية وكانت هناك ثلاثة تنظيمات علي مستوي التلاميذ أولها (اطفال

أكتوبر) ويلتحقون به من سن سبع سنوات حتي عشر سنوات، وثانيها (تنظيمالرواد) من سن عشر سنوات حتي الرابعة عشرة، وثالثها هو الكومسومول0 ولقد ألغيت تلك التنظيمات فعليا، بدعوي وقف تسييس التعليم العام 0 وفي جريدة "الحقيقة للرواد (يكتب) س 0 اكسيموف (29 / 11) : انهم في مدينة ساتكي قد لجأوا ببساطة إلي تقليص عد الوجهين السياسيين الذين كانوا يشرفون علي تربية الأولاد، وبذلك كافة منظمة "الرواد" عن التوجد فعليا، وهو ما ينطبق علي أغلب المدن السوفيتية الأخري وأغلبية المدارس" 0 وبدلا من المواد الثلاث السابقة تقترح المجلة المتخصصة "تعليم التاريخ" في عدد يناير تبديل الأسس التي قامت عليها تلك المواد 0ويقول كاتب تلك المقالة "بروخروف" : "كان المألوف أن الاشتراكية تزدهر بفضل تعميم ملكية وسائل الانتاج، ولكن الواقع يثبت أن ذلك غير صحيح،فتعميم ملكية وسائل الانتاج هو الذي أدي بنا إلي حافة الهاوية الاقتصادية"0

ويقول : "كان المتعارف عليه أن التاريخ هو تعاقب التشكيلات الاجتماعية والاقتصادية، وهذا أيضا غير صحيح، فالتاريخ هو حركة مستمرة لاستكمال الجوانب الانسانية في الشخصية الاجتماعية"، يقول : "كان المألوف أن إرادة الشعب قانون تخضع له الأقلية، وهذا أيضا غير صحيح، فحملة مشاعل التقدم كانوا دائما أقلية" !0واقترح المجلة علي المعلمين كتابا أميركيا لتدريس التاريخ الروسي اسمه : "من روسيا إلي الاتحاد السوفيتي" المؤلف يدعي "جورج فايلنت" وتنشر المجلة فصوله مترجمة إلي الروسية، ومن ضمن ما جاء فيه : "لقد تحددت بشكل ساطع طبيعة النظام الجديد (ثورة أكتوبر) التسلطية الظالمة والمتعسفة، نتيجة لاستهانة البلاشفة الوقحة واحتقارهم لنتائج الانتخابات الديمقراطية وسيعيهم لاغتصاب السلطة" ! 0 وهذا ما يدرس للأولاد0 وبدأ من العام الدراسي القادم ستدرس

في المدارس مادة "تاريخ الأديان" وذلك بطلب من "فسيولوف" وزير التعليم وسيقوم بتدريسها رجال الكنيسة أو مدرسو مادة التاريخ 0 وتشير ندوة لرجال التربية والتعليم في عدد من مجلة "تعليم التاريخ" إلي المحاور التي ستنطلق منها المادة الجديدة هي : موقف الدين من نظرية النشوء والارتقاء لداروين، لماذا يعد اليهود شعب الله المختار، وأخيرا لماذا لم يغفر الله لآدم وحواء رغم أنهما قد أعلنا التوبة 0

يقول "سيلزنييف" رئيس تحرير مجلة "المعلمين" : "حينما أري تماثيل لينين وهي ملقاة علي الأرض في المدارس ودور الحضانة، وأري كيف يجري الأطفال قربها وفوقها، فإن خوفا فظيعا يتملكني من مصير أولئك الأطفال00 تري ألسنا نغامر بأن ينشأ لدينا جيل هو أكثر الأجيال ضياعا وتمزقا علي امتداد تاريخنا كله ؟ "0

ويقول "الكسي الثاني" بطريرك روسيا : "إن عزائي الوحيد الآن هو أن كثيرا من الأطفال صاروا يترددون علي مدارس "الآحاد"المسيحية، وكل أملي أننا لن نفقد هذا الجيل" !

ولكن كيف تتم الآن صياغة ملامح ذلك الجيل الذي يتصارع عليه "سيلزنييف" عضو اللجنة المركزية، والبطريرك "الكسي الثاني" ؟00

وتقول نينا تشوجونوفا في مقالة لها بعدد نوفمبر في مجلة "أجنيوك" أنها قد حاورت صبيا عمره عن احدي عشرة سنة، وإنها بنشرها لذلك الحوار لا تسعي لتقديم صورة الطفل الجديد، ولكنها ببساطة تحاول تقديم طفل أعجبها لذكائه وبساطته0 وتسأل السيدة نينا الصبي : "ما هي الدولة التي يفضلها ؟ فيجب : "الدولة الرأسمالية، وتسأله : " هل كنت تثق في الاشتراكية ؟ فيجب : "أبدا عمري ما وثقت بها" وتسأله : "هل تحب لينين فيجب : "لا أدري00 ولكن اليس هو الذي اخترع نظام تسليم المحاصيل الزراعية بالقوة للحكومة ؟ " 0 وتسأله : "قل لي ما الذي أفسد ثورة أكتوبر ؟ " ويجيب : "إن لينين قد

سحق حركة الاشتراكيين الثوريين، تلك كانت غلطته الفظيعة، بل إنها لم تكن غلطة ولكن جريمة 00 انظري إلي أميركا ونظامها الديمقراطي00 هذا لأنهم لا يسحقون الأحزاب الاخري "ويمضي الصبي المعجزة: "ثم لماذا أصدر لينين أمره بقتل القيصر ؟ لماذا قام بهذه الحماقة المخجلة ؟" 0 وتسأله : "هل تفكر في المستقبل ؟" فيجيب : "نعم00 علينا أولا أن نقيم الرأسمالية في بلادنا" !0 وبالمناسبة فإن الاشتراكيين الثوريين هم ممثلي تيار إرهابي، وكانت منهم السيدة "كابلان" التي حاولت اغتيال لينين باطلاق النار عليه عام 1918 0

هذه هي صورة الولد التي يروج لها الآن 0 بعد تبديل الأسس الفلسفية والسياسية والإدارية لنظم ومناهج وبرامج التعليم الاشتراكي0 وتوضع الآن الأسس الجديدة لصياغة ملامح الجيل القادم، وهو جيل سينشأ منذ نعومة أظافره علي قيم أخري، وسيكون مصيره – أيا كان – أهون من مصير جيل البيرسترويكا الذي تشكل من دخان الذكريات المحرمة وهزات الصدمات العنيفة0

يناير 1991

(13)

أشجار أعياد الميلاد

نشرت صحيفة "الكومسومولسكايا" (18 يناير 1991) مقالة تضمنت شهادة لأحد الطيارين الأميركيين

الذين شاركوا في قصف العراق من الجو 0 يقول أنه رأي كيف كانت بغداد كلها تتوهج بالأضواء مثل شجرة عيد الميلاد0 وقد أشاعت ألفاطلعة جوية يومية هذا الوهج المميت الذي تثقب به أميركا في المنطقة مكانا لاستقرار النظام العالمي الجديد الذي يعتمد علي : "الإرادة الأميركية"، وقد لفت جورج بوش النظر إلي تلك الحقيقة عندما كتب إلي صدام حسين : "ينبغي عليك ألا تقلل، كما فعل آخرون قبلك من الإرادة الأميركية" 0 وهي إرادة لم تترك سماء الأماني العربية الا وسحت فوق شعبها بمطر الموت الأسود0 وهي الإرادة التي عندما شاءت جعلت بيروت تحترق وتتوهج ثلاثة شهور كاملة علي كف الرأي العام العالمي المتحضر والشرعية الدولية0

وقد هزت الأزمة التي انقلبت إلي حرب أرجاء العالم، منبهة إلي حقائق جديدة0 فلم يحدث من قبل أن تزامنت علي هذا النحو لحظتان متنافرتان ومترابطتان كما تزامنت أزمة الخليج وحربها مع أوسع دعاوي الإنفراج الدولي، ونزع السلاح مع رفع السلاح، واختفاء شبح الحرب الباردة وابتداء الحرب الساخنة، والدعوة لنظام عالمي جديد مع تأجج الظاهرة الاستعمارية بهذا العنف، فالمعطيات في عهد الوفاق الدولي تأكل بعضها الآخر، بحيث لا تظل إلا الحقيقة العارية0

وقد كتبت الصحافة السوفيتية مع بداية الأزمة، وبعد قمة هلسنكي، أن أزمة الخليج كانت اختبارا للعلاقات السوفيتية الأميركية، لكن هلسنكي أكدت تجاوز البلدين للاختبار0 إلا أن الاختبار ظل يطارد الطرفين بعد أن تجاوزاه !0 ليدفع بهما إلي مزيد من التفاهم، الذي بلغ ذروته عندما صوت الاتحاد السوفيتي في مجلس الأمن لصالح إعلان الحرب علي العراق، وقد صرح شفير نادزه (30 / 1990) لشبكة تليفزيونية أميركية بأن : "الاتحاد السوفيتي سيرسل بالعسكريين السوفييت إلي المنطقة إذا اقتضي تطور الأحداث ذلك "وعاد فأكد علي ذلك المعني في تصريحين آخرين فيما بعد، وكانت تلك أحد

أسباب إقامته بضغوط من العسكريين السوفييت الذين دافعوا عن الحفاظ علي العلاقات مع العراق 0 كما أعلن السوفييت مرارا أنهم مع إقامة النظم الأمنية في المنطقة وعلي استعداد للمشاركة فيها0

وبينما تعاقب العلاقات الدولية الراهنة النظام العراقي لعدوانه علي الكويت، فإنها تتناسي أن هذا النظام العراقي هو ثمرة تلك العلاقات نفسها 0 العلاقات التي ألتزمت الصمت ثمانية أعوام متصلة أثناء الحرب العراقية الايرانية دون أن تتخذ خطوة دبلوماسية أو فعلية ذات شأن لوقف تلك الحرب طالما أن قتلاها من الشعبين لا يعنون أحدا، وطالما كان البلدان سوقا للسلاح 0 وهي العلاقات التي أغمضت عينيها طويلا عن مجازر النظام العراقي وسط الأكراد العزل، والمواطنين، وغيرهم 0وقد تصور صدام حسين أن من حضر القسمة فلابد أن يقتسم، وأن يخرج بشيء 0 فكف عن حربه الطويلة المنهكة مع إيران – وقد خاضها هي الأخري بدعوي تحرير الأراضي العربية – ليلتفت إلي غنيمة أسهل، متصورا أن بوسعه الاتفاق بصورة أو أخري مع أميركا بشأن النفط الكويتي 0 وفاته أ، أميركا لا تعادل اسرائيل بأي نظام آخر، وأن أوضاع المنطقة لابد أن ترتب علي ضوء الأمن الاسرائيلي أولا ، ولذلك فإن تصفية القوة العسكرية العربية هدف ثابت 0 ولتعقيد قضية الإنسحاب من الكويت، استدعي صدام حسين عوامل الصراع العربي الاسرائيلي، لأنه يعلم تماما ان تلك هي أقوي أسلحته وأشدها تأثيرا0 وماذا لو أن أميركا اتفقت مع العراق علي النفط الكويتي ؟ هل كان الرئيس العراقي سيظل متمسكا بمؤتمر دولي للقضية الفلسطينية ؟ وهي القضية التي نساها ثمانية أعوام أهدر فيها قوة ونفط العراق في مواجهة الثورة الايرانية التي اتسمت بداياتها بالعداء لأميركا ؟ وعندما يتحدث صدام حسين عن " إعادة توزيع الثروة" فإنه يقصد علي الارجح توزيع النفط الكويتي علي العراق لا أكثر 0

وإلا فلماذا لم نسمع منه – قبل غزو الكويت – حديثا عن إعادة توزيع "الثروة العربية العراقية ؟"0

ويقف الكثيرون ضد "غزو الكويت" 0 و "ضد الوجود الأجنبي" أما المنطق الشعبي فيقف مع الفرصة، الفرصة التي يشكلها الصدام العراقي ألأميركي، وما قد يتولد عنها من تفاعلات، وهو يترقب هذه الفرصة، ويرفض أن تخنق أو أن يجري وأدها قبل الوصول بتلك التفاعلات إلي نهايتها0

وقد عرت الأزمة الخليجية التي افجرت في حرب كافة اطراف الأزمة محليا وعالميا وعرت أيضا النظام العالمي الجديد، ولم تترك أصداؤها ركنا إلا ودوت فيه0 ويشير وزير خارجية روسيا الاتحادية "اندريه كوزريف" في حديث مع صحيفة "الجريدة المستقلة" (17 / 1 / 1991) إلي أن أحدا في أزمة الخليج لم يقم بدور مستقل إلا العراق وأميركا، أما الدبلوماسية السوفيتية فقد انجرت إلي السلبية وإلي السياسة الاميركية، مما أدي – علي حد قوله – إلي أن القوي المحافظة بكل حنينها للماضي قد قررت استغلال الأزمة لشن هجوم شامل علي التفكير السياسي الجديد الذي يعتمد علي الوفاق الدولي 0 وقد أشارت صحيفة "سوفيتسكايا روسيا" (17 / 1 / 1991) إلي أحدي العلامات الهامة التي توضح طبيعة ذلك الوفاق0 إذ أجرت حديثا مع "كريفولين" سكرتير اللجنة السوفيتية المناهضة للصهيونية، سألته فيه عن مدي صحة ما تدعيه بعض الدوائر العربية من وجود اتفاقية سرية بين الاتحاد السوفيتي وأميركا واسرائيل بشأن الهجرة اليهودية0 فأجابها "كريفولين" : " إن بين يدي الآن الوثيقة التي أعدتها اللجنة الدولية "للحدود المفتوحة وقد جاء فيها بخصوص هجرة اليهود السوفييت ما يلي : "إن الحكومة الأميركية هي أحد الأطراف الثلاثة التي وقعت الاتفاقية السرية الخاصة بالهجرة، والأطراف الاخري هي الاتحاد السوفيتي وإسرائيل، وجري توقيع الاتفاقية في جنيف وموسكو عام 1988، ثم صدق عليها الطرف

السوفيتي والأميركي في لقاء القمة بمالطا عام 1989 0 واتفقت الأطراف الثلاثة علي :

1 – فتح حدود الاتحاد السوفيتي للهجرة اليهودية

2 – السماح لإسرائيل والمنظمات التابعة لها بتنظيم عمليات الهجرة والإشراف عليها

3 – تقديم بعض المزايا الاقتصادية والسياسية للاتحاد السوفيتي عبر الوسطاء بشرط المعاونة في تهجير السوفييت

4 – العمل علي تقليص عدد اليهود السوفييت المهاجرين للولايات المتحدة0 ولهذا فإن ما يفترضه وزير الخارجية الروسي "كوزريف" سلبية دبلوماسية بالنسبة لأزمة الخليج هو في واقع الأمر أبعد بكثير من حدود السلبية0

وبينما تأسي الرئيس جورباتشوف علي : "الآثار الصعبة لتلك الحرب علي الشعوب العربية والشعب الأميركي" في بيانه بعد اندلاع الحرب، فإن بيانا آخرا رسميا قد صدر قبل ذلك عن مسئول سوفيتي كبير (رفض الإفصاح عن اسمه) جاء فيه : "إن العراق وشعوب المنطقة تدفع ثمنا باهظا نتيجة للإجراءات الرعناء من جانب قادتها" وبذلك فإن بيانا سوفيتيا واحدا لم يشر إلي الفارق بين العدوان العراقي علي الكويت، وبين القصف العنيف الأميركي الذي انهمر علي بغداد، ولم يطالب بيان واحد أيضا بسحب القوات الأميركية من الخليج0

ولكن الديمقراطية التي صارت تتمتع بها الصحافة والإعلام السوفيتي قد مكنت من بروز الرأي الآخر المعارض للموقف السوفيتي الرسمي في الأزمة 0 ويكتب "إدوالاد فولودين" في صحيفة "سوفيتسكايا روسيا" تحت عنوان "قبيل العاصفة" (11 / 1 / 1991) فيقول : "إن ما جري خلال وقفة حسن النية (مهلة مجلس الأمن) يثير الشكوك، ولتحكموا بأنفسكم 00 فعلي المستوي الدبلوماسي راحت الولايات المتحدة تشدد نهجها وتملي شروطها0 وبوسعي أن

أقول أن الدبلوماسية الأميركية قد بذلت كل ما في وسعها لإحباط المفاوضات،أو لجعلها تجري في ظل التفوق الكاسح للجانب الأميركي0 ولتضليل الرأي العام العالمي أثيرت مسألة حيازة العراق للأسلحة النووية دون ذكر أية معلومات محددة، وشنت حملة مكثفة لتشكيل صورة المعتدي القوي الذي يستحق العقاب المناسب 0 بينما لم يدر أي حديث خلال فترة "الوقفة" عن حيازة إسرائيل أو باكستان للأسلحة النووية، ناهيك عن وجود تلك الأسلحة فعليا لدي القوات الأميركية المرابطة عند شواطيء السعودية 0 وقد استغلت الادارة الأميركية سخط الرأي العام العالمي علي العراق للإحتلاله الكويت، لحل مشكلة أهم بكثير لدي اميركا وهي تحييد العراق في المواجهة السياسية في الشرق الأوسط 0 يقول ادواردفالودين : "والهدف النهائي للحرب إذا نشبت هو إقامة نظام موال لأميركا في العراق مما يسهل علي إسرائيل حل مشاكلها بما في ذلك استيطان الأراضي العربية المحتلة" ويقول : "كان من الممكن خلال هذا الشهر إعداد برنامج موسع لحل النزاع بالطرق السلمية 0 أما موقف الاتحاد السوفيتي فغني عن الكلام 0 فقد ترافقت بيانات كبار المسئولين عن وقوفنا إلي جوار السلام مع مساعي ترحيل الخبراء السوفييت من العراق0 وهذا عمل طيب، ولكن00 هل هذا هو المستوي الذي كان ينبغي أن تتحرك فيه سياسيا دولة تعتبر عضوا في مجلس الأمن ؟

وقبل ذلك تكتب هذه الصحيفة "سوفيتسكايا روسيا" في (3 / 1 / 1991) تحت عنوان : "هيروشيما جديدة"، ويقول "يوري جفوزدييف" إن "الخامس عشر من يناير يقترب، دون أن يقوم أحد بخطوة جدية لوقف خطر الحرب القادمة، لماذا لا يتحرك أولئك الذين يصرخون بأعلي صوت مدافعين عن السلام العالمي والمصالح الانسانية المشتركة ؟ 0 إن هناك أحاديث صريحة في الولايات المتحدة حول تجربة أسلحة نووية جديدة في الشرق

الأوسط، ومع ذلك يسود الصمت أثناء الإعداد للمأساة القادمة0 وتأتي هذه البربرية والوحشية ممن يدعون أنهم عالم متحضر 0 وأكثر ما يثير دهشتي هو موقف المسئولين السوفييت عندنا، الذين لا يعلنون صراحة عن وقوفهم ضد استخدام الأسلحة النووية في هذه الحالة المحددة، بدلا من الكلام العام0 أما عن مجلس الأمن فإن دوره هو الآخر غريب للغاية فبدلا من أن يقوم بدوره في مجال السلام، إذا بوحدته تجتمع علي الحرب، ولماذا إذن لا يستخدم مجلس الأمن قرارات كهذه بالنسبة لفلسطين ؟ ولماذا يستخدمون الفيتو عندما يدور الحديث عن الإحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية ؟ أم أنهم يتبعون "تعددية الاخلاق والقيم" ويمضي كاتب المقالة فيقول : "ومن المؤسف أن يجد الاتحاد السوفيتي نفسه جنبا إلي جنب مع أولئك المتعطشين للحلول العسكرية 0 وإنني أتساءل : إذا وقفت دبابة علي جبين الانسان، فهل يجب عليها لكي يطردها، أن يضربها بأعنف مطرقة ؟ علي الرأي العام السوفيتي أن يعرب عن احتجاجه لعملية التحضير لحرب قذرة كهذه في الخليج"0

ولكن هناك صورة أخري، وأقلام أخري، فتكتب السيدة "جالينا سيدروفا" في مجلة "العالم المعاصر" (الأزمنة الحديثة) تحت عنوان "منتخب العالم ضد صدام حسين" فتقول : "اليوم كانت الكويت هي الضحية، ولا ندري علي من يحل الدور غدا 0 فالقضية الآن هي ضرورة الإنصياع لمعايير وميادىء المجتمعات المتحضرة والقانون الدةلي 0 ولابد من وضع نظام لعقاب المعتدي" وتقول : "لقد التقيت مع مسئول أميركي وتحدثت معه عن أن العالم الثالث الآن يشهد فراغا في ظل غياب الصراع والتنافس السوفيتي الأميركي0 وقد تحاول قوة إقليمية أن تشغل هذا الفراغ 0 "أما عن أمكانيات المفاوضات والمباحثات للعثور علي حل سلمي فتقول عنها الكاتبة : "إن موقفي أقرب إلي موقف الذين يعتبرون أن الحوار مع مجرم دولي (تعني صدام) يعد موقفا لا أخلاقيا0

ويكتب "بيوتر جلادكوف" بنفس المجلة تحت عنوان : "لا أكاد أصدق" فيقول في نفس الاتجاه السابق : "وفي كل الحالات، فإن بلدان العالم الثالث ستصبح من الآن فصاعدا أكثر عدوانية في سعيها لإملاء شروطها علي المسرح الدولي"0 ولم تذكر المقالتان كلمة واحدة عن إسرائيل0 أو ترسانة الأسلحة التي لديها0

لقد احترقت بيروت ذات مرة كشجرة عيد الميلاد وها هي بغداد تشتعل هي الآخري كشجرة عيد الميلاد، وسوف لا تكف هذه الأشجار العربية عن النماء وسنقرأ علي وهج المأساة كتاب هذا العصر0

فبراير 1991

(14)

الناس والفلوس

والحرب والسياسة

في لقاء تليفزيوني مع بعض العمال السوفييت العائدين من بغداد قال أحدهم :

"لقد عشنا في بغداد فترة المقاطعة الاقتصادية والاستعداد للحرب، ومع ذلك كان كل شيء تقريبا متوفرا في المحلات والأسواق، والآن بعد عودتنا، فإننا لا نجد شيئا هنا، رغم أننا لا نعاني من حصار اقتصادي، ولا نتوقع الحرب"0

والناس هنا مشغلون حتى النخاع بالطاحونة التي دارت، والتي تشدهم معها إلي أعلي وإلي أسفل 0 وبينما وصل عدد المتظاهرين في بعض دول أوروبا إلي مائتي ألف يحتجون علي حرب الخليج، فإن الاتحاد

السوفيتي لم يشهد مظاهرة واحدة شعبية كبيرة ضد الإبادة الأميركية المنظمة للشعب العراقي 0 مظاهرتين رمزيتين قامت بهما مجموعة محدودة لا تتجاوز الخمسين شخصا0 بينما قام الجناح الديمقراطي بزعامة يلتسين شخصيا في 19 / 1 / 1991 بمظاهرة ضخمة ضمت حوالي الربع مليون، ولكن للاحتجاج علي التدخل السوفيتي في ليتوانيا، ولم يتسع ضمير أولئك الديمقراطيين لنبضة أخري، لأن قلوبهم لا تخفق إلا للسوق الرأسمالية وديمقراطية "هايد بارك" 0 وقد كتب أحدهم وهو "بافل فيلجينجاوير" في جريدو "الصحيفة المستقلة" (22 / 1 / 1991) يقل أن مصير الديمقراطية في الاتحاد السوفيتي رهن بالانتصار الأميركي علي العراق وعلي حد قوله فإن : "نجاح الحلفاء في الشرق الأوسط - حيث يحترمون القوة والجبروت أكثر من المباديء – سيحسم مصير الديمقراطية عامة لدينا"0 ذلك لأن هزيمة العراق ستمثل هزيمة للسلاح السوفيتي، وبذلك لا تحصل المؤسسة العسكرية السوفيتية علي عملة صعبة من بيع السلاح فتتدهور إمكانياتها الاقتصادية، ويمكن حينئذ القيام بواجهة تلك المؤسسة وفرض التغييرات عليها0 ويختتم مقالته بقوله : ولا يبقي أمامنا الآن، إلا أن نصلي، وأن ندعو الله، من أجل النصر الأميركي العسكري الحاسم والسريع" !0

وقد رد علي هذه المقالة المعلق السياسي للايزفستيا، الصحفي المعروف :" ستانسيلاف كوندراشوف" في 26 / 1 / 1991 تحت عنوان : "لا يمكن النهوض دون شعور بالكرامة" 0 فقال : "إن الشعور بالكرامة أمر غير ملموس، ومع ذلك فمن دون هذا الشعور لا يمكن للمرء ولا للأمة، ولا للدولة أن تنهض واقفة علي قدميها0 أحيانا أفكر في ذلك وأنا أتابع تغطية حرب الخليج في صحفنا، وهي تغطية يصعب عادة أن تميزها عن التغطية الأميركية، والمواد المنشورة والمرئية تغفل من الحرب عادة أهم ما فيها، وهو الموت والدم الذي لا يبدو

في الصور 0 وأنا شخصيا لا أعرف "بافل فلينجنجاور" 0، ولمني أشعر – إذا لجأنا لكلمة مهذبة – بالخجل من أناشيد المديح التي أطلقها في تمجيد الآلة الغسكرية الأميركية، وبالخجل من الصفعات التي أنهال بها علي كل ما هو سوفيتي 0 وهذا السلوك، الذي صار قاعدة الآن للصحافة الجديدة، لا يكشف إلا عن انعدام الكرامة لدي أصحابه0 ولست ضد النقد، وليكن النقد كاسحا، ولكن باحترام لشعبك، لأنه من دون ذلك لا يمكن للمرء أن يحترم نفسه0 نعم00 نحن نمر بأزمة طاحنة، لكن أرضنا وبلادنا مازالت بين أيدينا وبوسعنا إصلاح ما فسد 0 لكن البعض يؤكدونلنا أن الحرب الأميركية في الشرق الأوسط هي التي ستقرر مضيرنا، وأنه إذا نجح الأميركان في حربهم الخاطفة ضد صدام حسين فستأتينا الديمقراطيةويحل الرخاء علينا ! وكنت يوما مراسلا للايزفستيا في واشنطن، حينما كانت أميركا تحارب في فيتنام، وحينذاك أطلق عقيد أميركي – دون قصد – عبارة مثلا، وذلك حين قال : "كان ينبغي تدمير هذه المدينة لكي ننقذها" 0 وكان يقصد بالطبع مدينة فيتنامية0 ولا ضير في أن نذكر من يهللون للانتصارات الأميركية بهذه العبارة"0

وكانت حر بالخليج مختبرا للسياسة السوفيتية، فتدافعت من حولها وتشكلت مختلف التيارات الفكرية والسياسية الداخلية0 فالحرب التي تحس من ناحية أنها بعيدة عن الاتحاد السوفيتي، تحس من ناحية أخري أنها قريبة جدا منه، وأن السياسة السوفيتية الجديدة تنصهر في قيظ الخليج، وتتشكل في الصحاري البعيدة 0 فالموقف من الحرب موقف من العلاقة مع أميركا، والموقف من الحرب يعني أن تصل المساعدات الغربية أو لا تصل للاتحاد السوفيتي، وموقف من الحرب هو موقف من العالم الثالث بكل ما قد يحركه ذلك من تداعيات أيديولوجية من دعم وساعدة العالم الثالث 0 وبهذه المناسبة ذكر البروفيسور "كيريلوف" في ندوة عن الخليج في 6 / 2 / 91 بأن معاهدة الصداقة السوفيتية العراقية

الموقعة عام 72 تشتمل علي بند رابع ينص علي الكفاح المشتركلطرفي المعاهدة ضد كافة أشكال الصهيونية والإمبريالية0

وقد عكست التيارات المختلفة مواقف قوي متعددة – ليس من الحرب بحد ذاتها – وإنما من الحرب بالقدر الذي تمثل فيه عاملا هاما يشكل مسيرة المجتمع السوفيتي الجديد 0 وبقدر ما شكلت الأوضاع الداخلية المتدهورة عاملا لتحديد التوجه في الاقتصاد، بقدر ما شكلت حرب الخليج عاملا لتوضيح التوجه في السياسة، وقد تضافر هذان العاملان واختلطا بحيث جرت في نفس اللحظة تقريبا الإطاحة برأس شيفرنادزه مبدع سياسة التنازلات الكبري المجانية، ورأس أخيه ريجكوف مصمم خطط الغلاء المقنع بعبارات الضمان الاجتماعي0

وقد تحمس قسم كبير من الكتاب والصحفيين والسياسيين للحرب في الخليج، انطلاقا من حرصهم علي النظام العالمي الجديد، وعلي الموقف السوفيتي الأميركي الشترك، وعلي الاندفاعة السوفيتية نحو ما يسمونه هنا "العالم المتحضر" وكانوا في ذلك يؤيدون سياسة وخط الدولة الحريصة علي العلاقات مع دول الغرب الرأسمالية 0 ولم تكن الحربالنسبة لأولئك إلا موقف يؤكد علي التوافق السوفيتي الأميركي0

ووقف قسم آخر من الكتاب الروس ضد الحرب، باعتبارها تمثل خطرانجرار الجيش السوفيتي للمشاركة فيها، وطالب ذلك الجناح القومي الروسي بعدم الزج بأبناء الشعب الروسي في الحرب لا ناقة له فيها ولا جمل، ولا يمثل دخول الجيش السوفيتي فيها إلا ترضية لطموح الدولة للهيبة العسكرية0

ووقف بعض رجال الدولة ضد الحرب انطلاقا من حساب المصالح الاقتصادية وغيرها، وتأسف بعضهم لأن دول الخليج لم تطلب من الاتحاد السوفيتي المشاركة رسميا بقوات عسكرية، ومادام الحال كذلك، فمن الأفضل

إذن استمرار المحافظة علي العلاقات مع العراق، وخاصة أنها كانت توفر للاتحاد السوفيتي مليار دولار سنويا0

أما الكتاب الصهاينة، فقد دقوا طبول الحرب، وطالبوا الدولة بالتدخل الحاسم ضد العراق، وقطع العلاقات الدبلوماسية معه ومع منظمة التحرير باعتبارها تناصر صدام حسين، ووجدوا في الحرب فرصتين، الأولي أن يردوا الدين للولايات المتحدة التي شملت الحركة اليهودية السوفيتية برعايتها، والثانية أن يتم تصفية أهم قوة عسكرية عربية قد تعرض أمن إسرائيل للخطر مستقبلا0 واستدرت أقلام كثيرة عطف القراء علي الجنود الأميركيين الشباب الذين أرغمهم الإجرام العربي علي مفارقة ذويهم دفاعا عن الحرية أينما كانت ! 0 واستعانوا في هذه الدعاوي المجموعة للقضاء علي النظام العراقي بمختلف الحجج، بدءا من أهمية النظام العالمي الجديد، إلي خطورة التسليح النووي (حينما يكون لدي العرب فقط)0 ويكتب "بوريس بوليفوي" في العدد 35 من مجلة الأزمنة الحديثة فيقول : "إن لصوص بغداد لا يتورعون عن مختلف السرقات الرخيصة لمكونات انتاج الأسلحة الكيميائية من الغرب 00لتطور أسلحتهم، الأمر الذي يتنافي مع كافة القوانين الدولية، ولنذكر أن هتلر نفسه لم يتجاسر علي استخدام الغازات المحرمة أثناء الحرب العالمية، بينما تنتج بغداد أكثر من أربعة أطنان من هذه الغازات شهريا"0

ولا يخفي الصهاينة فيما يكتبونه خشيتهم من الآمال القومية العربية التي قد ينجح صدام حسين في تحريكها، ولا يخفون أيضا انزعاجهم من طرح لقضية الوحدة، وتحرير الأراضي العربية المحتلة0 ويكتب "ليونيد فاسيلييف" في "الأزمنة المعاصرة" في عدد 9 فبراير1991 فيقول : "كان لابد للنظام العراقي الشمولي والمسلح حتي قمة رأسة والمعادي لكل ما هو قومي أن يبدأ الحرب" (وكأن إسرائيل ليست نظاما عنصريا مسلحا وشموليا)، ويقول : "إن أحد الأسباب الهامة لاستقالة شيفرنادزه هو

المطاردة العلنية لسياسته في الشرق الأوسط ، واتهامه باتخاذ موقف مستسلم للغرب" ويقول : "إن المطالبة بإيقاف إطلاق النار، ووقف الحرب، لا يعني في الحقيقة إلا استمرار الاحتلال العراقي للكويت" ويمضي بعد هذا فيدعو للقضاء علي "الأصوليون المسلمون" الذين أيدوا صدام، لأن "الأصولية الإسلامية تتميز بعدوانية واضحة" 0 ويحتج "ليوند فاسيلييف" علي التحفظات السوفيتية علي الحرب، وعلي ما تحاوله السياسة الخارجية من إعلان للحياد في تلك الحرب، ويحتج أيضا لأن التليفزيون لا يبث بصورة كافية المظاهرات المؤيدة للحرب !0

وتكتب الايزفستيا في 17 / 8 عن الزعيم العراقي أنه : "قاتل نافذ البصيرة، بارد الدماء ولد والمسدس بيده"، وتشبه الزعيم العراقي بهتلر وإنه : "إنسان يبعث علي الرعب في بلاده"، وتنتهز الفرصة للتعرض بالزعيم المصري عبد الناصر في سياق الحملة علي زعامات العالم الثالث، فتقول : "إن صدامقد هرب إلي سوريا في فترة من حياته، واعتقل هناك ولكن عبد الناصر ساعده علي الهروب واللجوء للقاهرة"0

أما الجناح التقليدي (ما يسمي الآن بالجناح المحافظ) فيطالبون الاتحاد السوفيتي بالخروج من دائرة التأثير الأميركي،والوقوف مع النظام العراقي، ويصل حماسهم للعراق حد أنهم يؤكدون أن العراق سينتصر في تلك المعركة علي الولايات المتحدةمعددين أسباب ذلك وأولها أن العراق يحارب علي أرضه ودفاعا عن وطنه، ومؤكدين أحيانا أن الكويت ليست إلا محافظة عراقية خضعت للتقسيم البريطاني الاستعماري0 ويتخذ هؤلاء من حرب الخليج فرصة للهجوم علي السياسة السوفيتية الجديدة، ويقول الجنرال "فيلاتوف" رئيس تحرير المجلةالعسكرية في 6 / 2 / 1991 : "إن تاريخ دولتنا الحديث كله لم يعرف وزارة الخارجية بمثل غباوة وزارة شفيرنادزه، وأن الحسابات العسكرية الأميركية في حرب الخليج حسابات

خاطئة ونتيجة لها منيت القوات الأميركية بهزيمة واضحة حتي الآن"0

وإن الوجود الأميركي في الخليج قد وضع العرب بين كفي كماشة وبين نصف مليون جندي أميركي، ونصف مليون جندي إسرائيلي، وأن ميزان المصالح الدولية يختل بوضوح عند الحدود الجنوبية السوفيتية 0 وأن القيادة العسكرية قد تنبأت بطابع الحرب باعتبارها حربا جوية، أساسا، وهو الأسلوب الأميركي المتبع منذ حرب "دريذدن" في ألمانيا، ثم الحرب الكورية، ثم الفيتنامية 0 وأن الجيش السوفيتي قد نبه القيادة السياسية إلي أن حربا جوية مثل هذه، لن تعني إلا عملية إبادة جماعية للشعب العراقي0

ولكن هيئة أركان شفيرنادزه ضربت عرض الحائط بكل ما قلناه لها0 أمادور الحزب الشيوعي السوفيتي فقد كان باهتا، وغير واضح، أو علي الأقل غير مؤثر 0 وقد أشار "اليج فومين" – من القسم الايديولوجي في الحزب – إلي أن دور الحزب وموقفه يختلف قليلا عن موقف الدولة الرسمي0 وأن الاجتماع الموسع الأخير للجنة المركزية قد ندد بعملية الإبادة الجماعية للشعب العراقي 0 وأن أحد المسئولين الحزبيين قد قال : "إن أميركا تقف بإحدي قدميها في باناما، وبالقدم الأخري في جريناد !، وتريد أن تسيطر علي العالم"0

ولكن كاتبا صحفيا، لامعا، مثل : "إدوارد فالودين" يقول : "أولا أود أن أشير إلي أنني عضو بالحزب الشيوعي السوفيتي، وثانيا أود أن أوكد عدم رضائي عن سياسة الحزب بالنسبة للحرب، فقد اتخذ اجتماع اللجنة المركزية الأخير قرارا بتشكيل لجنة خاصة لمتابعة الحرب الدائرة 0 وهو أقصي ما توصل إليه الحزب0 ولكن تلك اللجنة يمكن مقارنتها بتشكيل لجنة لبحث زراعة القمح في سيبيريا 0 وكان لابد لذلك الاجتماع الموسع أن يطالب الحكومة أولا بأن تتقدم الحكومة بطلب لعقد اجتماع لمجلس الأمن، وفي هذا الاجتماع يقوم الندوب السوفيتي بسحب

موافقتنا علي القرار 678 انطلاقا من أن أميركا قد تجاوزت حدود القراروانتهكته 0 وكان من شأن هذه الخطوة أن تصحح خطأين اثنين وقعنا فيهما 0 الخطأ الأول أن قيادة البلاد،والخارجية السوفيتية قد قامتا بالتصويت لصالح قرارات الحظر والمقاطعة، فتلك القرارات موجهة ضد الشعب العراقي وليس ضد النظام العراقي 0 والخطأ الثاني هو موافقتنا علي القرار 678 ، يعني أن الاتحاد السوفيتي قد انضم سياسيا للحرب علي العراقوإن لم يشارك عسكريا، وهنا فإنني معني كمواطن روسي بأن يستعيد الاتحاد السوفيتي سمعته ودوره السياسي"0

ويقول "شيكاتيخين" في صحيفة"سوفيتسكايا روسيا" – معقل الصحافة الوطنية الآن – في 2 / 2 / 1991 : "أثار وجود دولة عراقية قوية في المنطقة خنق الولايات المتحدة وإسرائيل، ولذا بدأت قبل حرب الخليج بزمن طويل الحرب علي سلطة الرئيس العراقي، ويشهد بهذا مسلسل طويل من المؤامرات التي استهدفت تغيير النظام العراقي بنظام آخر، أما فيما يتعلق بضرب إسرائيل بالصوايخ العراقية فهو أمر غير مستغرب، فإسرائيل هي الذنب الأول في كافة التعقيدات والمصاعب التي تمر بها المنطقة"0 يقول عن مستقبل الحرب : "إنها لن تتوقف ما لم تطأ أقدام الجنود أراضي الخصم العراقي، وما لم يتحطم جيشه أو يستسلم، وما لم تخنق تماما إمكانية شعبية لشن حرب فدائية، اللهم إلا إذا حدث وقف متزامن للعمليات العسكرية"0

وقد ارتبكت السياسة السوفيتية سياسياكما ارتبكت اقتصاديا وهي تتجه نحو إعادة ترتيب أوضاعها علي ضوء المثل الجديدة، والعلاقات الاقتصادية الحرة 0 ووفرت المغامرة العراقية للسياسة السوفيتية فرصة ذهبية لتقف – وهي نصف محقة – في الجانب الآخر 0 ولكن الهتمين بحرب الخليج يدركون أن خطورتها هي فيما تمثله في بلورة لاتجاه السياسة السوفيتية، علي عكس من حالةشائعة بين الجمهوريات السوفيتية السلمة التي

ينصب غضب الناس فيها علي الحرب نفسها، وعلي الولايات المتحدة وإسرائيل0 وفي برنامج تليفزيوني سأل المذيع شيخ الإسلام ما وراء القفقاز عن موقف الدين الإسلامي من الحرب، فقال له : "الدين الإسلامي دين سلام وحق، وخير، ولا يدعو للحرب"، فأراد المذيع أن يوقعه في الحرج فسأله : "كيف إذن يصلي صدام حسين ويدعو الله أن ينصره قبل أن يشن عدوانه علي الكويت ؟"0 فأجاب بحدة : "ولكن الرئيس الأميركي أيضا قد صلي ودعا الله قبل أن يقصف بغداد وسكانها بقنابله" !0

ومع ذلك، رغم خطورة الحرب الخليجية، فإن العامل السوفيتي العائد من بغداد قد عكس انشغال الناس الرئيسي، حينما لم يلفت نظره – في المقارنة بين بغداد وموسكو – إلا أوضاع المعيشة وغياب السلع الأساسية0

وفي رسالة موسكو بالعدد التاسع من اليسار، عرضت تحت عنوان "انقطاع الخيط الأخير" لسبع خطط اقتصادية، آخرها هي الخطة السبعة التي تقدم بها جورباتشوف لمجلس السوفييت الأعلي ونشرتها الصحف في 17 / 10 / 1990 بعنوان : "الاتجاهات الرئيسية لتثبيت الاستقرار الاقتصادي الانتقال إلي السوق، "وهي الخطة التي أقرها – بعد نشر الرسالة- مجلس السوفييت في نهاية دورته في أواخر أكتوبر وأوائل نوفمبر من العام الماضي0

وتكتفي الخطة بوضع الخطوط الأساسية، تاركة لكل جمهورية مهمة وضع برنامج تفصيلي0 وتفترض الخطة أن الفترة اللازمة لتطبيقها هي سنة ونصف السنة، وهي نفس الفترة التي منح فيها الرئيس صلاحيات إضافية 0 ويتوزع تنفيذها علي أربع مراحل (لكل مرحلة أربعة أشهر تقريبا) 0

المرحلة الأولي

(برنامج الإجراءات الاستثنائية) وأهم نقطة نزع ملكية الدولةوتمليك الأفراد،وإعادة بناء النظام المصرفي وخفض

العجز في الميزانية0 وتشير الخطة إلي أن أصعب شيء في هذه المرحلة هو : "وقف ارتفاع الأسعار"0

المرحلة الثانية

(قيود مالية ونظام مرن للأسعار)، وتقول الوثيقة إن : "المحتوي الرئيسي لهذه المرحللة هو الانتقال المستمر التدريجي إلي أسعار السوق فيما يتعلق بمجموعة كبيرة من المنتاجات والسلع الاستهلاكية، علي أن تظل الأسعار الحكومية الثابتة لما لا يقل عن ثلث السلع كالوقود والخامات والمواد0وتتسع عملية نزع ملكية الدولة ولتأمين العلاقات الاقتصادية يقام نظام حكومي للعقود يتولي عملية طلبيات الدولة علي أساس تعاقدي وتوزيع المنتوجات 0

علاوة علي الثلاجات وكافة الأدوات الكهربائية ذات الاستخدام الطويل الأمد والتليفزيونات، والمنتوجات الكيمياوية (الشامبو والصابون والكريم)، كما زادت إلي أكثر من الضعفين أيضا أسعار الملابس والأحذية والأقمشة،والمواصلات العامة في الكثير من المدن، وزادت الضعف كافة المكالمات التلفونية الخارجية، وأسعار الخدمات العامة، وتذاكر القطارات والطائرات 0أساس الطلبيات 0 (أي أن تحجز الدولة مثلا مائة ثلاجة من المصنع بالسعر الذي يناسب المصنع)0

المرحلة الثالثة

فهي (تشكيل السوق) ويدور الحديث هنا عن توسيع مجالات علاقات السوق، والمضي في إطلاق الأسعار، وازدياد المنافسة والنشاط الاستثماري وإلغاء القيود علي إمكانيات الكسب0

المرحلة الرابعة

أما المرحلة الرابعة والأخيرة، فهي (استكمال مرحلة الاستقرار)، وتحدد الخطة أولوية خلق بيئة تنافسية، وقطع شوط طويل في تحرير الاقتصاد من احتكارات الدولة ونزعه، وإذا دقق القاريء النزر في مدي ارتفاع الأسعار – خلال يناير وفبراير فقط – فسوف يحس بالدوران السريع للطاحونة التي تشد معها المواطنين البسطاء0وهذا كله في المرحلة الأولي فقط من الخطة التي أقرها مجلس السوفييت والمعروفة بالسم خطة جورباتشوف0

وتتفق هذه الخطة في أغلب خطوطها مع النصائح التي أدلي بها صندوق النقد الدولي0

ملكيتها، وتحويل الروبل لعملة حرة ، مما يؤدي لفتح الأبواب لتدفقالعملات الحرة الأجنبية وتنص الخطة علي "إجراء تغيير جذري علي نظام الدعم"0

ونتيجة للبدء في تنفيذ هذه الخطة ارتفعت الأسعار بالمقارنة لما ورد في رسالة العدد التاسع لليسار بنسبة ستين بالمئة في المتوسط حسب تصريحرئيس الوزراء الجديد بافلوف في 18 / 2 / 1991 0 ولكن نسب الزيادة أعلي من ذلك بكثير 0 سواء في الزيادة الحكومية الرسمية، أو الناتجة من إطلاق أسعار التعاقد0 في شكل برامجلأنقاذ الاقتصاد السوفيتي، وكان الاتحاد السوفيتي قد اتفق في أواسط الشهر الأخير من السنة الماضية مع البلدان الرأسمالية السبع علي أن تقوم الهيئات المالية الدولية (صندوق النقد والبنك الدولي للإنشاء والتعمير) بوضع دراسة عن الاقتصاد السوفيتي لتحديد المساعدات الغربية للبيرسترويكا0

وقد نشرت مجلة " الأزمنة المعاصرة" عدد فبراير برنامج صندوق النقد تحت عنوان :

"الهدية الأخيرة لموسكو" وأشارت إلي أن العديد من الخبراء السوفييت قد شاركوا في جلسات المناقشة التي سبقت إعداد هذا البرنامج، والتي جرت في عدة عواصم أوربية (موسكو واشنطن بروكسل) 0 وقد كلفت

قمة الدول الرأسمالية السبع والتي عقدت في يوليو 1990 في هيوستين، الخبراء المختارين من الدول الأوربية بالقيام بدراسة تحليلية تفصيلية للاقتصاد ووضع التوصيات اللازمة وتحديد الإصلاحات الضرورية التي تكفل الدور الفعال للمساعدات الغربية0

وقد انتهي عمل الخبراء إلي التوصيات التالية :

(1) إكساب المصانع الحكومية ومؤسسات الطابع الاستثماري ووضع النقاط علي الأحرف بالنسبة لقضية الملكية الخاصة وتشجيع الملكية الخاصة في كافة القطاعات0

(2) إطلاق الأسعار وتحريرها في بيئة من التنافس التجاري وإدخال تعديل جذري علي الأسعار الحالية0

(3) تحديد سعر صرف واقعي للروبل تجاه العملات الأخري0

(4) وضع المقدمات القانونية والشرعية الضرورية لتلك الإصلاحات0 وينصح برنامج صندوق النقد الدولي بإشاعة التعامل بالدولار وهو ما يسمي ب "دولرة الاقتصاد"0

وفي بداية العرض الذي تقدمه مجلة "الأزمنة المعاصرة" لبرنامج صندوق النقد الدولي، يقول "بوريس بينسكر" : "لا أظن أن أحدا اليوم يستطيع أن يأخذ علي عاتقه مهمة توضيح ما الذي يجري في حياتنا الاقتصادية، بل ويبدو إن القمة الاقتصادية القيادية هي نفسها قد فقدت الاتجاه0 وعند تعداد انجازات البيرسترويكا التي لا تضارع : الانفراج الدولي، والعلنية، فإننا نغفل عادة ما حبانا الله به من موهبة استدرار التعاطف وتلقي الهدايا 0 وآخر هذه الهدايا هو برنامج صندوق النقد الدولي"0

وأخذت نتيجة لكل ذلك تشيع عملية التمايز الاجتماعي الحاد، وهجرة فئات كثيرة لمواقعها التي لا تكفل لها في ظل هذه الأسعار الحد الأدني الفعلي للأجور، وأغلقت مصانع كثيرة كبيرة خاصة في لينجراد وغيرها وبينما

ضحت الدولة بشيفر نادزه وريجكوف، فإنها تواصل سياستهما في الخارج والداخل0 ويعلن إلغاء حربه علي المواطنين، بحيث ينشغلون فعليا عن الحرب الأخري الواقعة بعيدا عن الاتحاد السوفيتي وقريبا جدا منه، وعن الصلة بين القنابل وأسعار الخبز0

مارس 1991

(15)
رصاصة الديمقراطية
في الساحة الحمراء

في العاشرة من صباح السابع من نوفمبر العام الماضي، غضت الساحة الحمراء في موسكو بالناس، وتأهبت وحدات رمزية من الجيش السوفيتي للقيام بالعرض العسكري احتفالا بالذكري الثالثة والسبعين للثورة، ووقف جورباتشوف في البرد، ومعه المارشال "يازوف" وغيرهما من كبار القادة يلوحون بأيديهم من عند المنصة الشهيرةوالتي دوي من فوقهاذات يوم صوت لينين الانساني الذي يلثغ في الراء ولم يكن الموج البشري المتلاطم الذي خرج إلي الساحة موقنا هذه المرة إن كان يحتفل يحتفل بذكري الثورة، أم أنه يردعها بالقاء نظرة أخيرة علي الحدث العظيم 0 كان الناس يترقبون أن يقع شيء ما، ليخرج بهم من الحيرة والانتظار0
قبل ذلك بأربعة أيام، في الثالث من نوفمبر 1990 ، احتج قادة جناح "روسيا الديمقراطية" في مؤتمر صحفي، علي احتكار الحزب الشيوعي لحق الاحتفال والتظاهر 0

وأعلن أحدهم وهو "ليف شيماييف" أن العاصمة السوفيتية ستشهد ثلاث مظاهرات علي الأقل: الشيوعيين، والديمقراطيين، والراديكاليين 0 وبينما جرت العادة أن يتجه المتظاهرون في تلك المناسبة لضريح لينين، أعلن "الديمقراطيون" أنهم سيختمون احتفالاتهم في السابع من نوفمبر بالتوجه لمنزل الاكاديمي "ساخاروف" زعيم الصهيونية السوفيتية، ليقوموا بتأبين "ضحايا النظام السوفيتي" علي حد ما نشرت "الليتراتورنايا جازيتا" وأعلن "شيماييف" أيضا أن ترتيب تلك المظاهرات سيكلفهم حوالي ثلاثة الاف روبل، وأنهم سيحرجون حاملين رايات روسيا القيصرية0

وتشير صحيفة البرافدا في 28 سبتمبر 1990 – قبل الاحتفالات – تحت عنوان:"ما الذي يعده الديمقراطيون" إلي أن تلك القوي ترتب للاستيلاء علي السلطة، وأن برنامجهم المعلن "برنامج العمل لعام 1990 " هو برنامج الوصول للحكم0 وإن المهمة الأساسية المطروحة هي تنحية الحزب الشيوعي عن السلطة، وتأميم ممتلكاته التي تقدر بمليارات الروبلات، وأن الوسيلة إلي ذلك هي المظاهرات، والاضرابات،والتحركات الشعبية 0 ونص البرنامج المذكور علي "القضاء علي الكلخوزات والسوفخوزات"، وتمليك الأرض ملكية خاصة، واعتبار أن السابع من نوفمبر – ذكري الثورة – يوم الكارثة القومية العام ! والغاء الاحتفال بتلك المناسبة عامة، وازالت تماثيل ماركس ولينين وانجلس من شوارع العاصمة0

وتكتب صحيفة "الكومسةمولسكايا برافدا" في 7 أكتوبر لتعلق علي برنامج الديمقراطيين، وبهذا الصدد يقول "سيشاك" : "أن برنامج الديمقراطيين" العمل لعام 1990 قد أثار نقاشا واسعا، وخاصة القسم المتعلق بنقل ملكية القطاع العام (قطاع الدولة الاشتراكي) للقطاع الخاص، وتشكيل فرق ذات طابع عسكري، المعروف أن ذلك البرنامج قد ارتبط باسم "أفاناسييف، وسكورلاتوف"0

وفي مناخ الصراع الذي سبق الاحتفال بذكري الثورة، يكتب "يوري فيوناييف" في "ايزفستيا" : "فلتقم لدينا أي سلطة من أي نوع، وأيا كانت، المهم الآن أن نتخلص من هذه الفوضي 0 ومن المؤسف أن خبرتنا بقضية الدولة خبرة سلبية، فقد كانت لدينا سلطة بلا دولة، وانقلب شعار "كل السلطة للمجالس الشعبية " "إلي كل السلطة للجهاز الحزبي"

في هذا الجو من الترقب، جرت الاحتفالات بذكري الثورة، وفي السابع من نوفمبر سمحت الحكومة السوفيتية للمرة الأولي للجماعات الديمقراطية بالقيام بمظاهرة موازية للاحتفال الرسمي بالثورة، وأحاطت تلك المظاهرات بالميدان الأحمر وتدفقت في الشوارع الجانبية المتفرعة منه 0 وبينما رفع الناس في الميدان الأحمر صور لينين وطالبوا بالاستمرار في النهج الاشتراكي، مزق الديمقراطيون في الشوارع الجانبية صور لينين وطالبوا بمحاكمة الحزب0

ولم يكن لتلك الازدواجية أن تستمر طويلا، وانتظر الناس في الميدان حدوث شيء ما0 مجهول، يحسم ذلك الصراع بين البيروقراطية القديمة والديمقراطية الجديدة : التي يتزعمها "يلتسين" الداعية إلي السوق وحرية الكلمة والمسترشدة بشعار الرأسمالية : لك أن تتكلم، ولنا أن نحدد الأسعار !

وللمرة الأولي في تاريخ الدولة السوفيتية، دوت، أثناء الاحتفال بذكري الثورة، رصاصة عابرة في الساحة الحمراء، لتهتك القماشة الشفافة والرقيقة التي تفصل الديمقراطيون عن الميدان الأحمر، والأبطال الجدد عن خشبة المسرح القديم والعريق0

وقيل فيما بعد أن الرصاصة انطلقت من بندقية صيد، وأن حاملها ملتاث،ومريض نفسيا، وقيل أنه استهدف بالرصاصة جورباتشوف، الذي انسحب من المنصة ليغادر الساحة الحمراء0 لكن الرصاصة لم تخترق إلا صدر التاريخ الطويل للمرة الأولي علنا0 وبدا وكأن تلك الطلقة النهارية

للديمقراطية الجديدة حلقت في سماء الاشتراكية، ودومت،فلم تترك أحدا أو بلدا دون أثر0

في يناير 1991 ، تنشر صحيفة "العمل" مقالة بعنوان : "الديمقراطيون000 البؤس من خلف البريق"، للصحفي الالماني : "انجيلبرج"، يقول فيها : "لقد تصورت – ربما مع الكثيرين – أن حركة البيرسترويكا ستمضي بشكل أكثر منطقية وتتابعا مما مضت به0 وقد شاعت تسمية بعض القوي ب "الديمقراطيين" 0 وهي تسمية عمومية وفضفاضة تغض النظر عن أن زعماء تلك القوي يبدون ميولا ديكتاتورية في علاقاتهم بالحقوق والقوانين 0 وقد أتاح لي عملي كمراسل صحفي في موسكو فرصة الاستماع إلي كلماتهم وخطبهم، كما أتاح مرور الوقت ملاحظة الهوة الشاسعة بين أقوالهم البراقة والفارغة، وأعمالهم الحقيقية 000 "ويلاحظ الكاتب علي أولئك الديمقراطيين انبهارهم بالطابع الأميركي للديمقراطية الأميركية والغربية، مع تجاهلهم الفعلي للمشكلات التي يطرحها الواقع السوفيتي، وتطلعهم – دون تفكير – إلي ذلك النمط من الديمقراطية الالمانية، علي أساس أن هذين البلدين قد تمكنا من بناء اقتصاد متطور ومتين بعد خروجهما من الحرب0

ويؤكد السياسيين السوفييت الجدد أنه شخصيا – بحكم عمله الصحفي - قد جرب "اوهامه الديمقراطية" في المانيا، وأن علي الديمقراطيين الجدد ان يحاولوا قراءة واقع التجربة السوفيتية قراءة خاصة0

وتنشر صحيفة "سوفيتسكايا روسيا" في الرابع من نوفمبر مقالة هامة بعنوان "شخصيات اللعبة" فيقول فيها – نقلا عن الجارديان الانجليزية –أن الوكالة الاتحادية التي قامت بتمويل تحركات الولايات المتحدة فترة الانتخابات في نيكاراجوا عان 1990 ، تمول في الوقت الراهن : "شبكة من الاتصالات للعمل لصالح السياسيين السوفييت المناهضين للحزب الشيوعي السوفيتي" 0 وتستطرد "سوفيتسكايا روسيا" فتقول أن الوثيقة التي

نشرتها "الجارديان" تشير إلي أن صندوق الكونجرس الأميركي الحر قد خصص أربعين ألف دولارا لشراء أجهزة فيديو، وفاكسملي، وغير ذلك، لدعم مجموعة الديمقراطيين السوفييت الجدد (مجموعة يلتسين المسماة بجناح روسيا الديمقراطي، والمسماة داخل البرلمان بمجموعة النواب من الاقاليم)0 وتشمل الأجهزة المرسلة علي الات للتصوير والنسخ لإصدار المطبوعات والنشرات السياسية المناهضة للحزب، وشرائط الفيديو المصورة وغير ذلك 00 وقد تشكلت تلك المجموعة البرلمانية عام 1989 فترة عمل مؤتمر نواب الشعب، وتزعمها الأكاديمي ساخاروف حتي وفاته0

وتشير الوثيقة إلي أسباب ذلك الدعم، فتقول إن الديمقراطيين الجدد يدعون إلي حرية المشاريع الاستثمارية الرأسمالية، وأنهم يمثلون البديل للنظام الاداري السابق، ويدافعون عن المكاسب الديمقراطية التي تحققت في العام المنصرم 0 ولكن هذه القوي، لا تملك المعدات التقنية التي تمكنها من الجمهور الاوسع من الماطنين السوفييت 0 ويلاحظ أن مجموعة النواب الاقليمية تمثل النواة الصلبة للحركة الديمقراطية في الاتحاد السوفيتي0

وداعا : "باول فيرتش" رئيس صندوق الكونجرس الحر لدعم ومساعدة تلك المجموعات من أجل إنشاء مكاتبها الإعلامية في موسكو وعواصم الجمهوريات السوفيتية الأخري0وفي زيارة له إلي موسكو التقي بالزعماء الجدد وتباحث معهم في مطالبهم0 ودعا بعد ذلك مجموعة من الديمقراطيين لزيارة أميركا للإستفادة من التجربة البرلمانية في واشنطن، وكان علي رأسهم : "أركادي موراشوف" النائب في مؤتمر النواب السوفيتي، الذي صرح في مؤتمر صحفي في واشنطن – بعد انتهاء الزيارة – بقوله : "هناك قضايا مشتركة كثيرة تجمع بين جناحنا الديمقراطي اليساري، والجناح اليمسنس في الكونجرس الأميركي" ! 00

وتشير "سوفيتسكايا روسيا" إلي علاقة باول فيرتش الوثيقة بالمخابرات الأميركية0 وأنه قام بعدة جولات في بلدان أميركا اللاتينية لقراءة محاضرات عن الديمقراطية الأميركية للشباب في الجامعات 0 كما أن باول فيرتش وصندوقه كان أحد أهم الممولين للحركات المعادية للأحزاب الشيوعية في بلدان أوروبا الشرقية0

وأخيرا تشير الصحيفة إلي أن ذلك المبلغ (أربعين ألف دولار) هو جزء من المساعدات التي يقدمها الصندوق للديمقراطيين الجدد0

ولم يرد جناح يلتسين، والديمقراطيين، علي صحيفة "سوفيتسكايا روسيا"، رغم ولعهم بالمبارزات الكلامية، والخطب البرلمانية، وطلقات الرصاص النهارية، وإزالة تماثيل لينين وماركس وانجلس من شوارع المدن0

أبريل 1991

(16)
من 18 مارس

حتي 5 أبريل

في 18 مارس حتي 5 أبريل 1991 – أي خلال اسبوعين لا أكثر – مر المجتمع السوفيتي بلحظة خاصة أعتقد أنها دفعته بعيدا نحو خطرين : الإنفجارات الشعبية الواسعة، وانهيار السلطة المركزية، وكان الوجه الابرز للأحداث التي وقعت في هذين الاسبوعين هو الصراع

المكشوف علي السلطة بين جورباتشوف ويلتسين، الذي اشاع في الناس شعورا بأن أحدا لا يحكم، علاوة علي الذهول والشعور بالانكسار أمام نظام تعديل الأسعار الذي أقره جورباتشوف بمرسوم في 19 مارس 1991 ، وبدأ العمل به في 2 أبريل 1991 0

في 18 مارس 1991 تم الإستفتاء الذي نظمته الحكومة حول : "الحفاظ علي اتحاد الجمهوريات السوفيتية الإشتراكية كاتحاد فيدرالي 00 "وفي نفس الوقت جري استفتاء آخر داخل جمهورية روسيا حول استحداث منصب رئيس جمهورية لروسيا بضغوط من يلتسين وأنصاره0000

في 19 مارس 1991 أصدر جورباتشوف مرسوما بالعمل بنظام الأسعار الجديدة بدءا من الثاني من أبريل000

من 20 مارس 1991 حتي 28 منه شن جورباتشوف حملة علي يلتسين، ودفع سته من أنصاره للمطالبة بعقد مؤتمر طاريء لنواب روسيا لإقالة يلتسين، وصرحت سفيتلانا جورياتشيفا في ذلك المؤتمر بأن يلتسين : "عديم الشرف والكرامة" وبالمقابل نظم يلتسين حملة واسعة ضد جورباتشوف مطالبا بإقالته هو الآخر0

في 28 مارس 1991 استعدت القوي الديمقراطية المناصرة ليلتسين للقيام بمظاهرة كبري لإرهاب النواب لكي لا يقيلوا يلتسين، فأمر جورباتشوف بأن تنزل العربات والجنود إلي الساحة الحمراء لتسد الطريق علي المتظاهرين00

في 28 مارس 1991 انعقد المؤتمر الطاريء لنواب روسيا، وكان ساحة للإتهامات العنيفة المتبادلة بين الزعيمين وأنصارهما00

في 29 مارس 1991 نظم جورباتشوف مؤتمر آخر – هو الأول من نوعه – لرجال الجيش والبحرية باسم " الكونفرنس الحزبي الأول" وحضره شخصيا ومعه

المارشال يازوف وزير الدفاع ليؤكد ليلتسين أن الجيش يقف وراء جورباتشوف0

في 2 أبريل 1991 تم رفع الأسعار، وفي 5 أبريل اختتم مؤتمر نواب روسيا الطاريء أعماله0

وكثيرا ما يبدو في الصراع الحاد بين يلتسين وجورباتشوف أنه صراع الصدي مع الصوت الذي أطلقه، وإنهما لا يتنافران بقدر ما يتكاملان، فبينما يرهب يلتسين المحافظين بتطرفه وجنوحه، فإن جورباتشوف يمد لهم يده مطمئنا إياهم ليقودهم علي نفس الطريق0

وقد أشارت إلي تلك الفكرة صحيفة "الجريدة المستقلة" في 9 أبريل 1991 فقالت : "من وقت لآخر تبرز في حياتنا السياسية فكرة وجود تحالف سري بين جورباتشوف ويلتسين، حيث يقوم الإثنان بلعبة معقدة واحدة منذ عام 1985 "0

وجورباتشوف هو الذي انتشل يلتسين من الظلمة إلي النور، وشده من العمل الحزبي في منطقة الاورال النائية ليعهد إليه عام 1987 بمنصب هام وهو السكيرتير الأول لمنظمة العاصمة موسكو 00 وبدأ يلتسين نشاطه بحملة علي الشيوعيين بحجة تطهير منظمة موسكو، واح يروج إن البيروسترويكا لا تعود بنفع علي المواطنين، وإنها ضللت الناس في العامين الأولين لها 0 ورد جورباتشوف علي ذلك بهجوم واسع علي يلتسين قال فيه إن يلتسين لا يتمتع بالقدرة علي الرؤية السياسية البعيدة، وأنه يكرر أسطوانة قديمة ومشروخة0 وفي 12 نوفمبر 1987 – في اجتماع للجنة موسكو – وبحضور جورباتشوف جرت إقالة يلتسين0

واعتذر يلتسين فيما بعد اعتذارا علنيا، واعترف بعيوبه الشخصية، وقال أنه يؤمن إيمانا لا يتزعزع بخط البيرسترويكا وبجورباتشوف الذي يتمتع "بهيبة كبيرة في بلادنا والعالم أجمع"0

وعند هذا الحد، كان يمكن ليلتسين أن يخرج من ساحة العمل السياسي نهائيا، مثلما خرج ايجور ليجاتشوف

وغيره، بحيث يسدل الستار عليه في مكان بعيد دون ضوضاء إلا أن جورباتشوف هو الذي عينه بعد ذلك وزيرا، عندما عهد إليه برئاسة لجنة الدولة للبناء والتعمير 0 فظل يلتسين في موسكو في قلب العمل السياسي حتي تشكل البرلمان فرشح يلتسين نفسه وفاز برئاسة برلمان روسيا بعد معركة انتخابية حادة في يونيه العام الماضي وبفضل أربعة أصوات لا أكثر0

واستمرت لعبة الصوت والصدي، وظل يلتسين يرسم لنفسه صورة الزعيم المضطهد، الجريء 0 الذي يقف مع التغييرات الجذرية ضد خط الوسط الذي يمثله جورباتشوف 0 وبعد كل معركة بين الزعيمين كانت الصحف تهلل للوفاق بين رئيس برلمان روسيا ورئيس الاتحاد السوفيتي0

إلا أن الصدى راح يهدد يوما بعد يوم، بأن يأكل الصوت الذي أطلقه، وقد اكتشف يلتسين بالتدريج – خاصة بعد موت الأكاديمي ساخاروف – أنه أصبح الزعيم الحقيقي للديمقراطيين البرلمانيين السوفييت، وأن الغرب يحتفل به ويؤيد خطواته0 وأنه – أي يلتسين – رئيس برلمان أكثر واقوي الجمهوريات السوفيتية وهي روسيا التي يشكل شعبها نصف تعداد سكان الاتحاد السوفيتي كله 0 وأخذ يلتسين يدرك بصورة ملموسة أن الحاجة لجورباتشوف تقل يوما بعد يوم، كلما اندفع المجتمع السوفيتي نحو الرأسمالية، وتراجع خطر الشيوعيين، وانتفت بالتدريج أهمية خط الوسط الذي يضمن الإنتقال دون الإنفجارات أو المواجهة المكشوفة بين الأجنحة المختلفة0

وكان الاستفتاء الذي تم في 18 مارس 1991 ساحة للصراع بين جورباتشوف ويلتسين، وقد أراد جورباتشوف أن يضفي بذلك الاستفتاء صغه الديمقراطية علي "اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية"، وأن يكون الاستفتاء ردا علي المحاولات القومية الانفصالية، يلزمها بالبقاء في الاتحاد بحيث يتمكن جورباتشوف من مواجهة الحركات الإنفصالية بالقوة مسلحا باستفتاء شعبي دستوري 0

وجورباتشوف في كل ذلك يدرك مخاطر الانفصال وتفتيت الاتحاد من الناحية السياسية والاقتصادية والأمنية 0 وصرح جورباتشوف بأن الإجابة بكلمة "لا" في الاستفتاء ستعني النهاية، وأضاف : " ولكني لا أعتقد أن شعبنا يقبل بالإنتحار" 0 فالانفصال سيعني تقسيم الجيش السوفيتي، وتقسيم قدراته النووية، وخروج الاتحاد السوفيتي، للنظام العالمي الجديد في شكل مجموعة دول ضعيفة، ومن الناحية الاقتصادية نبه جورباتشوف إلي أن الاستمرار في الاتحاد هو ضمان : "لسوق كبيرة وعلم وثقافة متطورين"0

وكان الاعتراض الأول ليلتسين علي صيغة الاستفتاء هو أنها تلصق صفة الاشتراكية بالاتحاد، ومن ثم فأن التصويت بعم لاستمرار الاتحاد هو ضمنيا تصويت للاشتراكية0 وفي نفس الوقت أكدت نتائج الاستفتاء أن أغلبية سكان مدينة "سفيردلوفسك" مسقط رأس يلتسين قد صوتوا ضد الاستمرار في الاتحاد !00 وقاطعت الاستفتاء أيضا ست جمهوريات وهي جيورجيا وارمنيا ومولدوفا وليتوانيا واستونيا ولاتفيا0 لكن قانون الاتحاد لا يأبه من الناحية الانتخابية بأصوات الناخبين في تلك الجمهوريات لأنها لا تزيد عن عشرة بالمئة من أصوات الناخبين في الاتحاد ومجموعها مائتي مليون ووصف قادة الحركات الانفصالية في البلطيق الاستفتاء بأنه : "خداع مرسوم مسبقا"، وأصدر رئيس البرلمان في جيورجيا بيانا رسميا قال فيه : "أن من يصوت لاستعادة استقلال جيورجيا هو وحده الذي سيحصل علي حق المواطنة وحق ملكية الأرض في جيورجيا" 0 وفي مولدوفا هاجم أنصار الجبهة الشعبية مقرات الاستفتاء بالسلاح الابيض0ودعت جيورجيا مراقبين دوليين لمتابعة الاستفتاء علي استقلال جيورجيا من أميكا وألمانيا وبريطانيا ليكونوا حكما دوليا بين جيورجيا والاتحاد السوفيتي، وفيما بعد أشار بيان للمكتب السياسي في 31 / 3 / 1991 إلي : "الضغوط التي مارستها المنظمات الأجنبية علي الرأي

العام السوفيتي لدي اجراء الاستفتاء علي استمرار دولة الاتحاد" واتهم بعض النواب يلتسين بأنه أرسل مجموعات خاصة من رجاله لتوتير الأوضاع في جيورجيا وغيرها0

وربطت قيادة جمهورية روسيا موافقتها علي اجراء الاستفتاء الاتحادي باجراء استفتاء آخر داخل روسيا علي استحداث منصب رئيس روسي (يلتسين) اسوة بالجمهوريات الأخري0 مما يعزز من سلطات روسيا علي حساب سلطة المركز الاتحادي 0 وحينذاك صرح جورباتشوف بأن : "النظام الرئاسي كما ينص عليه مشروع دستور روسيا، ينطوي علي مخاطر كبيرة"، وينص مشروع الدستور علي أن رئيس الجمهورية هو القائد العام لقواتها المسلحة0 فإذا أصبح يلتسين رئيسا وقائدا عاما للقوات المسلحة الروسية، فإن جورباتشوف سيصبح فعليا مجرد من كل قوي000 وقد اقترح يلتسين بالفعل مجلس رئاسة اتحادي بدون رئيس ! يتشكل من رؤساء الجمهوريات ولا أكثر0

وقد أيدت أغلبية الناخبين في روسيا فكرة استحداث منصب الرئيس 0 وقال يلتسين دفاعا عن فكرة رئيس لروسيا : "سيكون منصب الرئيس إحدي ادوات الدفاع عن مصالح روسيا في واجهة المركز الاتحادي التسلط وغير الشرعي"0

وقد كسب جورباتشوف من الاستفتاء الاتحادي، حينما حول المشكلات القومية إلي مجرد فروق كمية في أصوات الناخبين، وكسب يلتسين تأييد منصب الرئيس لجمهورية روسيا، وكان ذلك وسط وخلال حملات من الهجوم العنيف المتبادل بين الطرفين0

في 19 مارس 1991 أصدر جورباتشوف مرسوما بالعمل بنظام الأسعار الجديدة بدءا من الثاني من أبريل هذا العام 00 وتضمن النظام الجديد ثلاث قوائم من الأسعار

(1) أسعار ثابتة تسري علي سلع الاستهلاك الشعبي العام 0

(2) أسعار مقيدة تحدد الدولة سقفا لسلع معينة0
(3) أسعار حرة وتمثل ثلاثين بالمئة من الحجم الإجمالي لتبادل السلع0

وأكد "تشيرياكوف" نائب رئيس الوزراء علي أن نطاق الأسعار الحرة سوف يتسع تدريجيا، بحيث تقتصر الأسعار الثابتة علي عدد محدود من السلع، وفي حوار مع رئيس لجنة الدولة للأسعار نشرته صحيفة "رابتشايا تريبونا" قال : إن جوهر إصلاح نظام الأسعار هو في تقريب أسعار المرفق من النفقات الفعلية للإنتاج 0 وبعبارة أخري رفع الدعم عن السلع 0 وأعلنت الحكومة عن زيادة سعر اللحوم بنسبة مائتي بالمئة، الألبان بنسبة مائة وثلاثين بالمئة، والسمن مائة بالمئة، والدخان خمسين بالمئة، وسلع الأطفال مئة وثلاثين بالمئة، والمواصلات العامة ثمانين بالمئة، والحديث هنا عن الزيادات الحكومية الرسمية وليس عن الأسعار الحرة ! 00 بملاحظة أن كل السلع الحكومية هي التي يتم نهبها من الحكومة وبيعها بالأسعار الحرة0 وفي القت نفسه صدر في أوائل أبريل قانون عن مجلس السوفييت ببيع وشراء العملة الصعبة دون سؤال عن المصدر 0 وأصبح البنك السوفيتي الآن يشتري الدولار رسميا من المواطنين والأجانب بسعر سبعة وعشرين روبلا للدولار الواحد ! 00 ويقود ذلك إلي ربط الروبل بسعر الدولار، كما يعد ذلك خطوة أولية لجعل الروبل عملة قابلة للتحويل0

وعلاوة علي ذلك فرض جورباتشوف ضريبة المبيعات وقيمتها خمسة بالمئة علي كافة أنواع السلع والخدمات، وهي ضريبة لا يتحمل المنتج، ولا البائع شيئا منها، ولكنها تقع علي كاهل المستهلك وحده0

وفي مواجهة ذلك الارتفاع الجنوني للأسعار، قامت الحكومة بتعويض المواطنين بزيادة ستين روبلا لكل العاملين في الدولة، وهي زيادة لا تمثل واحد بالمئة من قيمة ارتفاع الأسعار، وفي تلك الظروف كفت الجمهوريات

الاتحادية عن توريد حصتها المالية إلي الميزانية الاتحادية العامة، وحتي أوائل مارس من هذا العام بلغت الواردات من الجمهوريات سبعة مليارات فقط من أصل ثلاثة وعشرين مليار روبلا ! وقد يعيش المواطن السوفيتي الآن علي مدخراته لفترة، لكنها فترة لن تطول، وسيتسع من بعدها خطر الانفجارات الشعبية العنيفة، وقد نظمن جمعية طلاب العاصمة في الثامن من أبريل مظاهرة، طالبت فيها بخفض أسعار الطعام في مطاعم الجامعات، ومجانية المواصلات للطلبة، وقالت "شيربينا" رئيسة الجمعية في تصريح لوكالة تاس : "لقد حول اصلاح الأسعار فقر الطلبة إلي بؤس لا يوصف"0

وما بين العشرين والثامن والعشرين من مارس استمر الصراع السياسي بين جورباتشوف ويلتسين 0 وصرح يلتسين أن جورباتشوف : "يريد الحفاظ علي النظام والجهاز البيروقراطي السلطوي والحزب الشيوعي، وأن سبب المصاعب التي يعاني منها الاتحاد السوفيتي هو تسلط المركز"0 أما جورباتشوف فقد أكد أن اراء يلتسين هدامة، وأنه – أي جورباتشوف – سوف يستخدم كافة صلاحياته إذا تعرض مصير الشعب والدستور والدولة للخطر0 وفي تلك الفترة توالت إضرابات عمال المناجم، وطالبت حركة العمال بتنسيق مع يلتسين بإقالة الرئيس السوفيتي، وحل البرلمان الاتحادي، وإقالة الحكومة 0 وذلك دون أن تطرح حركة العمال أي بديل أجابي لكل ما تريد إقالته وهدمه 0 وتوافقت مطالبها تماما مع مطالب يلتسين والديمقراطيين الجدد0

وفي غمرة ذلك الصراع السياسي الآخذ في الاتساع، أوعز جورباتشوف لمجموعة من نواب برلمان روسيا بالمطالبة بعقد مؤتمر طاريء لبرلمان روسيا والمطالبة بإقالة يلتسين0 وقال جورباتشوف في مدينة مينسك أن مجموعة يلتسين لا علاقة لها بالديمقراطية، وأن كل ما يجري هو صراع علي السلطة0

ويوم افتتاح المؤتمر، قررت مجموعة يلتسين أن تبادر بإرهاب النواب قبل اتجاههم للبرلمان، فاحتشد أكثر من خمسين ألف عند ميدان مايكوفسكي يهتفون "ارفعوا أيديكم عن يلتسين" مطالبين بإقلة جورباتشوف0

ولم يسمح وزير الداخلية لهم بالاقتراب من الساحة الحمراء ووفق مرسوم من جورباتشوف يمنع المظاهرات والاجتماعات حتي الخامس عشر من أبريل 0 وسدت العربات الشوارع والطرق إلي الميدان الرئيسي وتأهب الجنود بالهروات

وكتبت صحيفة "البرافدا في 29 / 3 / 1991 : "لم يبدأ مؤتمر من قبل أعماله في مثل هذا الوضع المتوتر 000 ولا يعود ذلك للظروف الاقتصادية، فقد اعتاد الناس شد الاحزمة، ولكن السبب في التوتر هو الوضع السياسي"0

وقال بيتر فيليوف وهو أحد نواب الشعب : "لا يدور الحديث عن مواجهة بين جورباتشوف ويلتسين، ولكن عن المواجهة بين نهجين للإصلاح الاقتصادي 0 فمن ناحية هناك نهج جورباتشوف والاصلاحات الناقصة والكاذبة، ومن ناحية أخري نهج يلتسين والاصلاحات الاقتصادية الراديكالية"0

وكان يلتسين قد بلور عدة مطالب أصبحت تمثل خطرا فعليا علي جورباتشوف، وهي المطالب التي طرحها مجددا في مؤتمر نواب روسيا 0 وأولها ضم السلطات التنفيذية (رجال البوليس وغيرهم) للعاصمة موسكو إلي صلاحيات جمهورية روسيا ونزعها من صلاحيات الاتحاد (مع أن موسكو عاصمةالاتحاد ككل) 0 وثانيا تشكيل حكومة ائتلافية للوفاق الوطني عبر مائدة حوار وهي التي مثلت في أوروبا الشرقية اداء المعارضة في الاستيلاء علي الحكم 0 ثالثا المطالبة بحظر الجمع بين المناصب الحزبية والمناصب القيادية في الدولة (وهو مطلب يمس وضع جورباتشوف مباشرة أيضا) 0 ورابعا المطالبة بمجلس اتحادي دونرئيس للمجلس 0 وطرح يلتسين برنلمجه الاقتصادي متمثلا في :

1) فتح أسواق روسيا لرؤوس الأموال الأجنبية0
2) تحرير العملة والتجارة من كافة القيود0
3) بيع المصانع والمؤسسات وافساح الفرصة للأجانب لشراء الأسهم0
4) تقسيم كل مقدرات روسيا وتشكل حوالي واحد ونصف تريليون روبلا علي مواطني روسيا، بحيث يتوفر لكل مواطن رأسمال أولي في حدود ثمانية الآف روبل0

وشهد المؤتمر صراعا حادا بين أنصار جورباتشوف وأنصار يلتسين 0 وبرزت فيه قوي عديدة، من أطرافها الحزب الليبرالي الديمقراطي الذي سرح زعيمه "فلاديمير جيرينوفسكي" بأنه يدين المظاهرات التي قام بها أنصار يلتسين، ولكنه في نفس الوقت يدرك تمام للإدراك أخطاء الحزب الشيوعي 0 وأنه مع استمرار دولة الاتحاد ككل، ولكنه يري أن سياسة القيادة قد افقدت الاتحاد السوفيتي نفوذه في الساحة العالمية، ولهذا فأنه وحزبه الليبرالي الديمقراطي يدعوان إلي : " تقسيم العالم إلي مناطق نفوذ بين الاتحاد السوفيتي وأميركا واليابان وأوروبا"

وطرحت مجموعة جورباتشوف في المؤتمر سحب الثقة من يلتسين0 ولم يستطع يلتسين أن يجمع الاصوات الكافية لرفض ذلك الاقتراح0 وبذلك أصبح يلتسين علي شفا الهاوية0 ولكن يد جورباتشوف سرعان ما امتدت إليه لتنشله من جديد!0 اذ تقدم "بوليسكوف" السكرتير الأول للحزب الشيوعي الروسي ورجل جورباتشوف باقتراح مفاده أن الظروف الراهنة لا تحتمل إقالة يلتسين ! 0 وبرر ذلك بأن تلك الخطوة ستعمق الصراع والمواجهة بين الجناحين !0

وبالرغم من هذا فقد حقق يلتسين والديمقراطيون (تجاوزا) نجاحا في ذلك المؤتمر وأول نجاح لاولئك الديمقراطيين هو منح يلتسين صلاحيات استثنائية قريبة من الصلاحيات الاستثنائية التي يتمتع بها جورباتشوف 0 وتقرر عقد مؤتمر نواب قادم في 21 مايو للمصادقة علي

قانون اعتماد منصب رئيس لجمهورية روسيا 0 وأعلن "ايجور براتشييف" من كتلة "شيوعي روسيا" أنه يقف ضد تلك الصلاحيات الاستثنائية، لأنها منافية للديمقراطية، ولأنها صلاحيات واسعة وغير محددة0

ولكن يلتسين لم يستطع تمرير فكرة الحكومة الائتلافية، وغيرها مما أراده 0 وفي 9 / 4 / 1991 تحدث جورباتشوف عن برنامجه هو للتغلب علي الأزمة، فقال أنه لابد من المضي قدما لنزع ملكية الدولة وبالدرجة الأولي في ميادين التجارة والتغذية والخدمات العامة، وتطوير المشاريع الاستثمارية وانشاء البورصات والانتقال إلي الروبل التحويلي0

وبالرغم من أنه لا خلاف في البرامج فعليا بين جورباتشوف ويلتسين، الا أن الزعيمين يواصلان الخلاف والصراع، ويحصلان في تلك الاثناء علي صلاحيات استثنائية تمكنهما معا من مواجهة ما سوف ينشأ من الغلاء غير المحتمل 0 وتتزايد الميول المشتركة في مواجهة الأوضاع الجديدة، وقد أقر البرلمان السوفيتي الاتحادي في 16 / 4 / 1991 مسودة قانون يقضي بخطر القيام بإضرابات سياسية في البلاد0

في زحمة الصراع الدائر بين الصوت والصدي، أصبح الحزب الشيوعي السوفيتي أخيرا حزبا رسميا وعلنيا ! 0 فقد تم تسجيله – بموجب قانون الأحزاب الجديدة – في وزارة العدل في 11 / 4 / 1991 ، وجرت مراسم الاحتفال بتلك المناسبة في قاعة المؤتمرات في وزارة العدل، وأشار "فلاديميرايفاشنكو" عند استلامه الشهادة إلي أن : "تسجيل الحزب رسميا هو أحد مظاهر اكتساب الديمقراطية صفاتها القانونية" !0

مايو 1991

(17)- عودة الوعي القديم

يقول الكاتب الروسي " أندرية بلاتونوف" : "الشعب بدوني ناقص"0 لأن كل فرد عند بلاتونوف حدث تاريخي وفلسفي0 ويقول أيضا : "الثقافة هي الخبرة الروحية للشعب" متجاوزا بذلك قشرة الرأس إلي التكوين النفسي الذي تشكله الأحداث الاجتماعية والتاريخية وطرق الاستجابة لها 0 وكما تنقص الشعوب بغياب فرد عنها، تنقص الثقافة أيضا بغياب أية ثقافة أخري 0 وقد غيبت السلطة السوفيتية طويلا ثقافات الشعوب الأخري عن مواطنيها وقد لا يصدق البعض أن الموطن السوفيتي لم ير فيلم "ذهب مع الريح" وأفلام كرتون والت ديزني الا منذ شهرين فقط وهي أفلام انقضي علي انتاجها نصف قرن

وقد انطلقت الستالينية بداية من أنها تبني عالما جديدا متميزا، معتقدة أن مواجهة العالم القديم في الانفصال عنه0 وليس في الانطلاق من أفضل ما حققه 0 وسعت لبناء ثقافتها الاشتراكية "الخاصة" ومعمارها الخاص بناء سور شاهق بين المجتمع السوفيتي وثقافة العالم الآخر ولكن بهدف آخر هذه المرة وهو الا يتعرف الانسان السوفيتي إلي ما يدور وما توصلوا إليه هناك0

ومع وصول مجموعة جورباتشوف إلي السلطة، والاستقرار علي ضرورة النكوص والعودة إلي الرأسمالية، سمحت السلطة بكل الممنوعات، ليتشكل من تلك الممنوعات كلها مشروع ثقافي جديد بالكامل، يتلائم مع الانفتاح الاقتصادي والاستثماري 0 وهو مشروع يعوض انفصال المجتمع السوفيتي عن العالم علي حساب الرؤية الانسانية الاشتراكية، بدلا من الجمع الممكن بينهما، وأخذ ذلك المشروع الجديد يستشري، حتي اضطرت دورة مجلس السوفييت المنعقدة في أوائل أبريل مناقشة مجمل الأوضاع الثقافية الجديدة 0 وفي 9 / 4 / 1991 ناقش المجلس مشروع قرار بتشكيل لجنة من المختصين لتقيم – أخلاقيا وقانونيا – طبيعة السلع الثقافية التي غمرت السوق ونفذت إلي البيوت،

وانتشرت فوق الأرصفة في كل مكان 0 وفي 16 أبريل 1991 صدر قرار من مجلس السوفييت يقول فيه : "يعبر المجلس عن قلقه لانتشار المطبوعات والأفلام وشرائط الفيديو وغيرها من مواد منشورة ومرئية تروج للجنس، وتمجد القسوة والعنف، والبرامج التي تحط من الكرامة الانسانية والقومية التي تعرض في التيفزيون والمسارح والسينما، والتي تخرب وجدان الأطفال والشباب 0ولهذا يقرر المجلس تشكيل لجنة للحكم علي صلاحية تلك المواد للعرض، وعرضها في أماكن مخصوصة إن كانت تتضمن مناظر عري أو غيرذلك"0

وفي 27 أبريل 1991 تتوجه أكاديمية الفنون السوفيتيةبنداء عاجل للرئيس السوفيتي، بل وللشعب السوفيتي من أجل التصدي لعملية التخريب الثقافي وإدانتها وحشد كل القوي للدفاع عن القيم الفنية والثقافية، ومطالبة الدولة بتوفير الظروف الملائمة للأدباء والمثقفين للعمل"0

وتعددت شكاوي الأهالي علي صفحات الصحف من شرائط الفيديو الجنسية والتي تؤجر علنا في كل مكان، ومن الأفلام الجنسية التي يعرضها التليفزيون، والصور العارية التي تباع في كل المحلات، والنسرات الجنسية والعروض المسرحية الفاضحة 0ولكن الجنس هو عنصر واحد من خلطة كبيرةتعيد تشكيل الوعي السوفيتي، وتنشيء مشروعا ثقافيا وفكريا جديدا ومتكاملا، خلطة من هواء الحرية، ونار الإثارة الجنسية، وعنف الشعور القومي،وتراب الخزعبلات السخيفة، وعمق الفكر الديني الفلسفي، وتتمطي هذه الخلطة الغريبة لتحتل وعي الأنسان السوفيتي، وتحطم – أساسا – الوعي السياسي السابق لدي المواطن البسيط الذي –رغم اضطهاد الدولة –له تشرب فكرة رئيسية وهي أولوية العدالة0 وتستجمع هذه الخلطة قوامها من خرق الأفكار البالية والمصبوغة من جديد0 وجنبا إلي جنب مع تشكيل مشروع جديد، تجري عملية غسيل مخ وذاكرة علي أوسع

نطاق 0 فتتبدل اسماء الشوارع بحجة العودة للتاريخ، فشارع "جوركي" الذي يشق قلب العاصمةأصبح شارع "تفير سكايا"، ومدينة "كويبيفتش" (صديق لينين ورفيق كفاحه) تصبح مدينة "سمارا"، ومدينة "كالينين" تنقلب إلي "تفير"، أما محطة مترو ماركس فتصبح"محطة سوق العيد"، وهكذا إلي ما لا نهايه 0

والخلطة التي يدور الحديث عنها، لا علاقة لها بعملية التواصل الثقافي مع ثقافات وحضارات المجتمع الأوربي التي حرم السوفييت من ثمارها طويلا، فهي خلطة أسبه بالبخور في الزار حيث يفقد الانسان وعيه0

وإذا تعرضنا لعنف الشعور القومي، كعنصر من عناصر المشروع الجديد، فإن أحدا لا ينكر ما تعرضت له القوميات كلها – بما في ذلك الروس نفسهم- من اضطهاد، ولا ينكر أحد أيضا أن تاريخ الاضطهادالطويل يفجر كافة أشكال الصراع بين القوميات 0 ولكن الكثيرين يشيرون إلي أن هناك قوي تتحرك عمدا مع سبق الإصرار لتأليب الأرض علي الاذريبيجان وهكذا، ويتم دفع الشعورالقومي إلي الصدارة ليعلو فوق كل شيء ويحجب حقيقة ما يدور وما يجري من انعطافة اقتصادية أخذ الناس يحسون وطأتها 0 وبدلا من التفكير في حل مشكلات الاتحاد كونفيدرالي، أو فيدرالي ولكن يحترم حريات الجمهوريات الأخري، أو حتي الانفصال، بدلا من ذلك تتم تغذية وتأجيج تلك الصراعات، ليتحكم الشعور القومي وحده في ساحة الوعي0

وبينما يسود الوعي القومي، يجري فتح باب آخر لهدم أسس التفكيرالعلمي سواء كان برجوازيا أم اشتراكيا، إذ تفتح وسائل الاعلام الرسمية منهاالبرافدا طاقة ونافذة تؤدي للخزعبلات السخيفة، وتؤسس طريقة في التفكير تنتظر المعجزة، وتؤمن بها، وعلي سبيل المثال، كان التليفزيون يقد أسبوعيادروسا لتعليم اللغات الأجنبية في اطار البرامج التعليمية0 فأصبح في إطار البرامج التعليمية نفسها يقدم برنامجا اسبوعيا بعنوان : "الأجسام الطائرة المجهولة000 حقائق وتأملات" 0 وليس هناك بالطبع ما

يمنع من تأمل تلك الفكرة، أو دراستها إن كانت هناك ظاهرة من هذا النوع، ولكن التليفزيون لا يقوم بذلك،وانما يلتقي بأشخاص (كان آخرهم مواطنمن جيورجيا) يقسمون أنهم شاهدوا تلك الأجسام الطائرة 0 وقد أصر الأخ الجيورجي علي أن كائنات هبطت من تلك الأجسام فجرا لتتحدث معه بلغته، وأن تلك الكائنات قد واعدته علي لقاء آخر ولكنه ليس في حل لذكر الموعد والمكان 0 وهناك برابرنامج آخر عن "حديث النجوم" قال فيه الفلكي الذي يقدم البرنامج في 23 / 11 / 1990 أن النجوم أفادته بأن الرئيس جورباتشوف سيواجه بعض المتاعب السياسية ولكنه سيتجاوزها، وأنها أفادته أن العالم سيتجنب الحرب في الخليج 0 ويوالي التليفزيون بصفة مستمره عرض الأشياء الخارقة، مثل الأطفال الذين يحركون الأجسام الثقيلة بنظرة عين، وكافة أنواع الافاقين الذين يدعون أن لهم قوة خارقة علي علاج أي مرض دون لمس المريض ودون جراحة أو أدوية، وبمجرد التأثير في المجال المغناطيسي المحيط بالانسان، وأشهر اولئك الافاقين"كاشباارفسكي"، والسيدة "جونا" والسيد "تشوماك" وغيرهم0

وتخصص أغلب الصحف أبوابا ثابتة للفلك والنجوم والمطالع0 كما تنتشر الدعاية لعلم "المستقبلية"0 وعلي سبيل المثال فإن أغلب الصحف السوفيتية نشرت – عقب أزمة الخليج – نبوءة الفلكي الفرنسي "نوستور جامو" الذي أفتي في القرن الخامس عشر بأن أزمة ستقع في القرن العشرين وتحديدا في الخليج العربي، وأنها قد تؤدي لحرب عالمية !

ولما كان هدف هذه الخزعبلات الواسعة الانتشار، والتي تجري مناقشتها بجدية بالغة، هو الوعي السياسي، فإن صحيفة البرافدا تستضيف في 29 / 11 / 1990 الفلكيين الأميركيين : " دجون نيسبت" و "باتريسا آبوردون" في ندوة علمية حول القرن الحادي والعشرين 0 وتسأل البرافدا الفلكيين : "ما الذي سيميز التسعينات عن

الثمانينات ؟ " فيجيب الفلكيان الجاهزان : "سوف تتميز التسعينات بظهور اشتراكية جديدة تقوم علي علاقات السوق الحرة وتحويل القطاع الحكومي إلي قطاع خاص، وتوسيع حرية التجارة في أوروبا، مع الاسراع بتوحيد النظام الاقتصادي العالمي الجديد" !0

وبذلك تصبح السوق الحرة، وقوانين العرض والطلب، من حسن الطالع،واستجابة لنداء النجوم وبذلك ينتشر وعي سياسي بأن التغييرات الاجتماعية الكبري حظوظ، ومقدور0

وإلي جانب الصحافة والتليفزيون والاذاعة التي تواصل بتركيز شديد نشر تلك القضايا، تروج كمية ضخمة من الكتيبات الرخيصة عن الظواهر الغريبة،والفلك والمعجزات0 ووصل الأمر حد أن وكالة الأنباء السوفيتية الرسمية "تاس" نقلت في 26 أغسطس العام الماضي عن مراسلها السيد "بوبوف" قولة أن هناك اتصلات أكيدا مع الكائنات الأخري من الكواكب الاخري0 وأن بوبوف هذا استمع بنفسه لحوار مسجل بين تلك الكائنات وسكان الأرض0 الأكثر من هذا أن الحظ أسعد بوبوف عندما ضربت له الكائنات المذكورة موعدا ليلتقي بها في 12 / 9 / 1990 في أحد ملاعب مدينة "دالتي جورسك"، وذلك في الساعة الواحدة ظهرا، وعندما تناقلت الصحف هذا النبأ تدفق الناس من كافة مدن الاتحاد السوفيتي إلي مكان اللقاء واحتلوا الفنادق، والشوارع، والملاعب، حتي اضطرت قوات من الجيش للتدخل، وأعلنت حالة التأهب القصوي !00 ولم يأت أحد بطبيعة الحال، فنشرت الصحف أن اللقاء تأجل لسوء الأحوال الجوية0

وفي برنامج إذاعي استمر ساعة كاملة، ظل المذيع يحاور مواطنا يدعي أن كائنات من كوكب آخر – كانت ترتدي بلاطي شتوية ! – اختطفته لمدة ثلاثة شهور0

ويشيع الأعلام بكل تلك الخزعبلات فكرة أن العقل غير قادر علي تفسير كل شيء، وأن هناك معجزات لا تفسير لها، علينا القبول بها كما هي، وتكتب السيدة "باراباش"

في صحيفة "سوفيتسكايا روسيا" 27 / 11 / 1991 فتقول : "نحن شعب مذهل00 فحتي الأمس القريب لم نكن نثق في أي شيء، والأن فجأة صرنا نثق في المعجزات رياضة اليوجا، وظاهرة انتقال الأجسام الصلبة وحدها في الهواء، وفي الحسد، والعين الشريرة، والسحر الأسود، والسحر الأبيض، والأجسام الطائرة 0 وكنا فيما مضي نفكر في الحقائق الواضحةالبينه، والآن صرنا لا نهتم بالحقائق تفصيلا واجمالا 00 ولماذا تلزمنا الحقيقة مادامت المعجزات تقع خارج ادراكنا ؟ 0 ومع تدهور الأوضاع المعيشية، وصعوبة الحصول علي المواد الغذائية، انصرف الجميع للإهتمام بالحضارات وحياة الكواكب الأخري"0

أما عن الوعي الديني، فيشير "اليج موروزف" في الليتراتورنايا جازيتا 28 / 11 /1990 إلي أن عدد الكنائس في الاتحاد السوفيتي كان عام 1985 : (6806) كنيسة، فزادت عليها حتي عام 1990 (4342) كنيسة 0 أي أن الزيادة تتجاوز نسبة الثلثين علي مدي خمس سنوات 0 هذا علاوة علي ألف كنيسة أخري يجري ترميمها وإصلاحها0 وهناك نسبة مماثلة فيما يتعلق بالمساجد في الجمهوريات الإسلامية0 وفي نفس الوقت استولت الكنيسة الروسية علي "بوكروفسكي سوبور" (مجمع كنائسي) المواجه لضريح لينين في الساحة الحمراء، وأصبحت في أيام الاحاد تقرع الأجراس وتؤدي الطقوس الكاملة 0 وانتشر في الاتحاد السوفيتي عدد كبير لا يحصي من المدارس الدينية والتبشيرية ونشر الكتب الدينية مثل كتاب "المسيح ابن الانسانية" الذي نشرته في حلقات صحيفة "زاروبيجوم" 0 ويعرض التليفزيون بانتظام أفلام كرتون للأطفال معده عن حكايات من الكتاب المقدس، ويشارك رجال الدين في كافة البرامج الإذاعية وغيرها 0 كما تشارك الكنيسة في مختلف مستويات السلطة وهيئاتها 0 وصدر في هذا المجال قانونان دستوريان هامان،

الأول :
هو "حول حرية العقيدة" في 8 / 10 / 1990 0
الثاني :
هو "حرية العقيدة الدينية" في 10 / 11 / 1990 0
وأصبح الدين مادة أساسية في المدارس0

وعلاوة علي الخزعبلات،والمثالية، تروج علي أوسع نطاق السلع الثقافية الجنسية التي تستهدف تسميم الوعي بحلوي الصور العارية، غير ما تمثله هذه السلع من مصالح شبكة تجارية ضخمة0 ولادراك أن الهدف الحقيقي من تلك النشرات والمطبوعات ليس جنسيا بقدر ما هو سياسي، فإن مجلة "فينوس" في عددها الأول يناير 1990 ترجع- في بحث علمي ! - أسباب انتشار الدعارة في الاتحاد السوفيتي إلي : "إننا لم نتهم خلال سبعين عاما بمستوي الثقافة المتدني لدينا" 0 ولرفع مستوي الثقافة تنشر المجلة صورا عارية يخجل منها أي انسان في العالم 0 وتنشر المجلة حلقات مسلسلة بعنوان : "اعترافاتمومس" تقول فيها بطلتها : "نعم 000 أنا بائعة هوي0 فلست أود أن أعيش كما تعيشون أنتم، تقفون في الطوابير، وترتدون البلاطي الكالحة، وتبنون الاشتراكية !"0

أما مجلة أخري مثل مجلة " بصراحة عن الجنس" فتنشر هي الأخري حلقات عن تاريخ مجلة "بلاي بوي" وتكتب : "هناك فكرة شائعة سيئة عن مجلة بلاي بوي، وسبب هذه الفكرة هو الدجمائية والقوالبية الفكرية التي نشأنا عليها" وتشير صحيفة "موسكوفسكي كمومولينتس" في 17 نوفمبر 1990 إلي تسجيل رابطة للشواذ، وصدور مجلة ناطقو باسمهم0وقد تناقلت وكالة تاس أيضا هذا الخبر ولكن لأن الموضوع الرئيسي هو السياسة وليس الشواذ، فإن الصحيفة تجري حوارا مع رئيس الرابطة يعرض فيه بالحزب الشيوعي، ويقول : " واسمه رومان كالينين – أن الحياة عندنا (في الرابطة)

ليست مملة كما هي عليه في الحزب الشيوعي" وهناك أشياء أخري صرح بها لا يسعني نقلها0

أما التليفزيون فيقدم بصة مستمرة أفلاما جنسية واضحة وخادشة0 وفي سهرة تليفزيونية يوم 26 / 11 / 1990 يقدم برنامج "شوك – شو" أي عرض الصدمة، وداخل البرنامج فقرة باسم "نجوم العشق الجنسي" يعرض فيها نساء عاريات ورجالا، وعلاقات، وأدوات، وملابس خاصة بالجنس، وأدوات للسادية، وغير ذلك0

وأخذ الانتاج السينمائي السوفيتي يغزو الساحة بأفلام جنسيةمثل "صيد القياصرة" عام 1990، و "تاكس موسيقي البلوز" و "اسمه ارليكين" وغيرذلك وظهرت فرق موسيقية مثل فرقة "المعدن الصديء" ويقول مؤسسها "سيرجي ترويتسكي" : "أنهم يخفون حقيقة الجنس، لذلك كلفت مطربات الفرقة ليس فقط أظهار الرغبات الجنسية علي المسرح، بل والوصول لقمة تلك الرغبات"0

وفي كل ما قلته كنت أكتفي بأمثلة قليلة، لا يتصور القاريء أنها هذه القلة في الحياة والمجتمع السوفيتي الآن، فهي سائدة ومنتشرة وتغزو بوفرة لا تحصي ولا تعد0

لكن تلك الخلطة الغريبة، بكل عناصرها، هي خلطة تقوم بدورها المرسوم لها في مجال تغيير الوعي السياسي، وهي لا تمت بصلة للثقافة الحقيقية، ومن باب أولي لا تمت بصلة"لخبرة الشعب الروحية" التي تحدث عنها الروائي الروسي العملاق "اندرية بلاتونوف"، فزلزلة كبري مثل البيرسترويكا تحتاج من الأدباء الروس وقتا لاستعابها، واستيعاب ما جري قبلها، ووقتا لبلورة النفس0

يوليو 1991

(18)
نقاط العبور
في
خريف 1989

كان خريف 1989 فصلا خاصا تساقطت فيه حقائق ثابتة من هذا القرن، وأهتز فيه سدس الكرة الارضية الاشتراكي، وترنحت دولة في أوروبا الشرقية واحدة بعد الأخري في 1989 سقط "يانوش كادار" في المجر وحل مكانه "جروس" وكان عضوا بالمكتب السياسي، ونحي "جوستاف هوستاك" في براغ وقفزإلي محله "ياكوش" وكان أيضا عضوا باللجنة المركزية ثم "كارل أورفانا"، وأنهار "تيودور جيفكوف" في صوفيا وصعد بدلا منه "بيوترميلادينوف" وكان وزيرا للخارجية عهد جيفكوف، وأقبل "ادوارد جيريك" في بولندا لصالح "ياروزيلسكي" وكان وزيرا للدفاع0 وضيق الخناق علي "هونيكر" فأسلم الحكم والسلطة ل "ايجون كرينتس" وكان عضوا بالمكتب السياسي بل والساعد اليمن لهونيكر نفسه0

ولم يكن هناك بين كل الزعامات الجديدة رجل واحد دفعه غضب الشوارع ورفعه إلي الحكم والسلطة كلهم كانوا رجالا من نفس الطاقم،شاركوا جميعا وطويلا في صناعة السياسة السابقة من موقع القمة، ثاروا فجأة علي تاريخهم مثلما تبنوا فجأة مطالب التغيير الديمقراطي التي جرت بإيقاع واحد، واتخذت سمات مشركة : تنحية الأحزاب الشيوعية، تعديل هياكل ومؤسسات الدولة واكسابها الطابع البرلماني الغربي، الانتقال إلي الملكية الخاصة وفك وبيع قطاع الدولة، اشاعة التعددية السياسية، مع سعي حثيث للتكامل الاقتصادي والسياسي مع النظام الرأسمالي العالمي0

وكان هناك أزمة ومعركة سابقة حسمها المعسكر الرأسمالي لصالحه علي أرضية المباراة الاقتصادية التي كشف أن مجمل الانتاج القومي السوفيتي لا يزيد عن نصف مجمل الانتاج الأميركي0 ولم يكن الخلاف علي أن هناك أزمة، ولكن علي كيفية الاستجابة للأزمة 0 وانحصر دور الرجال "القدامي – الجدد" في تنفيذ متطلبات مرحلة انتقالية محددة، ليطويهم النسيان بعد ذلك مثل الجياد التي يتم تبديلها عند نقاط العبور0

حينذاك صرح شفير نادذه : "أن القوي الجديد تولت الحكم لأن الشعب يريد ذلك" وكان الشعب يريد للقوي القديمة أن ترحل، أما القوي "الجديد" فلم يكن يعرف عنها شيئا ولم يكن يريدها0

عندما جرت اقالة "جيفكوف" في اجتماع للجنة المركزية في العاشر من نوفمبر 1989، تردد في شوارع العاصمة البلغارية، ثم كتبت الصحف بعد ذلك، أن السفير السوفيتي في صوفيا "فيكتور شارابوف" (كان مساعد اندروبوف ثم مساعد جورباتشوف) قد قدم في فترة الاستراحة بين جلستي اجتماع اللجنة المركزية انذارا بضرورة خلع "جيفكوف" 0وعندما جري التخلص من "جوستاف هوستاك" في براغ كتبت الصحافة الفرنسية والانجليزية والالمانية وغيرها عن عملية مشتركة نفذتها المخابرات السوفيتية والتشيكية0

كان التسقط سريعا في ذلك الخريف، وكتبت مجلة "اكسبريس الفرنسية" تقول : "يفقد النظام الشيوعي واقعه في أوروبا الشرقية بسرعة خارقة، وتحطم الأحداث في المانيا الشرقية كل السيناريوهات المعقولة، ويسود السكون والذهول في باريس ولندن وبروكسل"0

لم يكن قد تبقي من خارطة أوروبا الشرقية الا رومينيا وحدها0 وفي 15 / 11 قدر لي بالصدفة أن أكون شاهدا علي ومضة ضوء خضراء لازاحةشاوشيسكو، بينما كنت مارا في شارع "موسفياسكايا" الساعة الثانية ظهرا ولفت نظري حلقة من الشباب السوفييت تجمعوا أمام

مبني سفارة رومانيا وهم يحملون يافطات كتب علي واحدة منها : "رحل طاغية تشيلي 00 فمتي ترحل ياشاوشيسكو ؟" 0 وكان واضحا علي مناظرهم أن الديمقراطية في بوخارست هي آخر ما يعنيهم0

قبل هذه المظاهرة بأسبوع واحد كان شاوشيسكو قد تحدث بصراحة عن رفضه لسياسة الأنفتاح الاقتصادي والسياسي والاصلاحات التي عمت أوروبا الشرقية وبعث إليه السوفييت بمبعوثين علي أعلي مستوي لاقناعه بعملية التعديل0 وبعد أسبوع من المظاهرة افتتح "نيقولا شاوشيسكو"مؤتمر الحزب الرابع عشر – والأخير – في ظروف أمنية مشددة0 وقاطعت بعض الأحزاب الشيوعية المؤتمر، وارسلت موسكو وفدها وترأسه "فورتنيكوف" وقيل أنه حمل رسالة مهذبة وأخيرة من "جورباتشوف" للزعيم الروماني ولم تجد صدي عنده0 وبدا شاوشيسكو في المؤتمر – بعد حوالي ربع القرن من الحكم – كأنه زعيم لا يقهر، بينما التهبت كفوف المشاركين تصفيقا له، وبحت حناجرهم من الهتاف للنظام الاشتراكي وخطب قائلا : "ليست التغييرات التي تمت في أوروبا الشرقية الا محاولة لبعث الرأسمالية ولاحيائها، ولا يستحق القادة الذين يسمحون بهذه الفوضي تسمية الشيوعيين، كما أنهم لم يكونوا شيوعيين من قبل أبدا0 وفيما يخصنا أقول إن رومينيا لن تحيد عن الطريق الذي رسمته لنفسها 0 "وعلقت الصحافة السوفيتية علي أعمال المؤتمر بفتور شديد، وذكرت أن تقرير الأمين العام انتقد بشدة نموذج "اشتراكية السوق" 0 وكان واضحا من كل ذلك أن "شاوشيسكو" سيواجه العاصفة وحده بعد أن سقط حلفاؤه، "هونيكر" و "جيفكوف"، أما كوبا التي أيدته فكانت بعيدة وغارقة في مصاعبها هي الأخري 0

وبعد شهر واحد من المؤتمر (انعقد في 20 / 12 / 1989) اذا بالزعيم الروماني يختفي تحت جنح الليل مع زوجته، واذا بالسلطات كلها تفتش عن رئيس الدولة حتي أمسكته في طائرة وهو يحاول مغادرة رومينيا إلي الصين

التي رفضت استقباله0 وظهرت في لحظات معدودة ما سمي بالجبهة الوطنية لانقاذ رومينيا برئاسة "ايليسكو" وكان هو الاخر قياديا كبيرا وشغل منصب سكرتير اللجنة المركزية للحزب عام 1971 وحوكم "شاوشيسكو" محاكمة عسكرية لم يعرف التاريخ الحديث أسرع منها، ولم يمنحه الثائرون من أجل الديمقراطية ساعة واحدة للدفاع عن نفسه0 وحرص تليفزيون بوخارست أثناء عرض مشاهد من المحاكمة الا يعرض لوجوه القضاء العسكريين، بينما تمسك القائد الرومتني بمطلب المحاكمة الدستورية العادلة0 وفي حينه أحتجت أميركا علي ذلك الاجراء الهمجي، بينما توالت برقيات التهنئة السوفيتية للقيادة الجديدة وفي مقدمتها برقية "جورباتشوف"، وبررالصحفي السوفيتي "فيكتور لوشاك" ذلك بقوله : "أحدثت محاكمة "شاوشيسكو" السريعة انشقاقا في الرأي العام العالمي" ولكن الكثيرين لا يضعون في اعتبارهم أن شاوشيسكو لو استمر حيا لأصبح رمزا يناضل الارهابيون من أجله إلي النهاية" 000 وجاء في بيان الخارجية السوفيتية : "الحكومة السوفيتية علي اتصال و مشاورات دائمة مع دول حلف وارسو، وتعرب الحكومة وحلفاؤها عن تأييدهم للتجديد الثوري في رومينيا" 0 وبذلك كان الحلف بأكمله متأهبا لتلك الضرورة، وإن جري حله بأكمله فيما بعد عندما لم تعد له ضرورة 0 ونشرت البرافدا في 26 / 12 / 1989 : "كانت الحكومة علي أتصال مستمر بجبهة الانقاذ الوطني عبر السفارة السوفيتية في بوخارست"0

وبعد أن سقط "شاوشيسكو" عند جدار الانقلاب، لم ينقض أكثر من شهر حتي تناقلت وكالات الأنباء أن القائد العسكري الذي حاكمه وأمر باطلاق النار عليه مع زوجته، قد انتحر هو الآخر !0

وبذلك تم دفن القتيل والقاتل وحقائق أخري كثيرة انطوي عليها صدر "شاوشيسكو" ووراها التراب0

وكنت أحس أن هناك خلطا بين موضوعين :

الأول
أن الاحاطة بالزعامات الحديدية أمر تطابق مع رغبات شعبية عميقة0

الثاني
أن القوي الجديدة التي وصلت للسلطة تمثل أو لا تمثل الشعب0

لكن الابعاد الكاملة لم تكن واضحة لي حتي نشرت صحيفة "السياسة السوفيتية" الناطقة بلسان "كتلة الاتحاد البرلمانية السوفيتية" مقالة عنوانها : "الآن فقط يمكن الحديث عما جري" 0 واستعرضت الصحيفة مادة فيلم وثائقي عرضه التليفزيون السويدي باسم "وثائق من الخارج" تعترف فيه بأدوارها أهم الشخصيات التي شاركت في الاطاحة بهونيكر في المانيا الشرقية0
وألمانيا – إن جازت المقارنة – هي عقدو أوروبا كلها، كما أن فلسطين هي عقدة الشرق الأوسط فهي أكبر بلاد أوروبا الوسطي، وهي التي أشعلت نار حربين عالميين الأولي والثانية، وانتهت الأولي بتدخل أغلب دول أوروبالفرض معاهدة "فرساي" علي الالمان، وانتهت الثانية بقرارات مؤتمري "يالطا" و "بوتسدام" 0 وفي المرتين اجتمع زعماء أوروبا ليرسموا لالمانيا حدودها، وحجم تسليحها، حتي قسموها إلي شرقية وغربية، وعرف عن شعبها أنه شعب محارب حتي أن ستالين قال عن الأمة الالمانية ذات مرة : "أن نساءها رجال، ورجالها جنود" 0 واكتوت أوروبا بنار الحرب فكوت المانيا بقيود المعاهدات ومرارتها 0 وأصبح كل ما يتعلق بالوضع الالماني لابد وأن يتقاطع مع خطوط مختلفة فرنسية وانجليزية وسوفيتية وأمريكية ليس آخرها المعاهدة الرباعية التي حددت وضع مدينة برلين الغربية 0 وكانت المانيا أكبر ثنائيات المواجهة التي ظهرت بين المعسكرين

: المانيا الشرقية – المانيا الغربية - ، فيتنام الشمالية – فيتنام الجنوبية -، كوريا الشمالية – كوريا الجنوبية، الصين الشعبية – تايوان، اليمن الديمقراطية – اليمن الشمالي 0 مع صيحة "البيت الأوروبي المشترك" كان لابد من فتح غرف ذلك البيت وازالة الحواجز وأهمها سور برلين الذي ارتفع ذات ليلة عام 1961 وظل ثمانية وعشرين عاما حاجزا شاهقا بين عالمين مختلفين تماما0

وبينما لم تتطلب اعادة البناء في براغ وصوفيا وبوخارست ووارسو وبودابست الا تبديل طابع السلطة والقائمين عليها، فإن التغييرات في المانيا استلزمت- ليس مجرد تبديل القادة – بل محو دولة كاملة من علي الخريطة الأوروبية 0 وقد احتفلت المانيا الشرقية بعيد تأسيسها الأربعين "كأول دولة للعمال والفلاحين في الأراضي الألمانية" وذلك في السابع من أكتوبر 1989، وقبل ثلاثة أيام من حلول الذكري الواحدة والأربعين للتأسيس في 3 / أكتوبر/ 1990 كانت الوحدة الالمانية قد تمت لتختفي دولة بأكملها، بعد خطوة تمهيدية اتخذت شكل الاتحاد الاقتصادي والاجتماعي في أول يولية 1990 0

في كتاب صدر فيهما بعد في المانيا بعنوان "أقوال هونيكر" هاجم هونيكر السياسة السةفيتية فيما يتعلق بقضية المانيا وتوحيدها0 وأشار إلي أن تلك السياسة قد أدت في سنوات البيرسترويكا إلي تفكيك المعسكر الاشتراكي بأكمله0

وتكشف مادة الفيلم الوثائقي السويدي جانبا من الصفحات المجهولة لذلك الخريف عام 1989 0 وقد بدأت الأحداث في المانيا الشرقية ليس من المانيا الشرقية ولكن خارجها، وضمن اتفاقيات أوسع في يالطا في لقاء القمة السوفيتية الامريكي، ثم عندما زار جورباتشوف المانيا الاتحادبة لأول مرة في يونيه 1989 أي قبل أربعة شهور فقط من الاطاحة يالقيادات السابقة، وقبل ثلاثة شهور من الاحتفال بالذكري الأربعين التي جمعت قادة

المعسكر الاشتراكي معا في آخر لقطة : جورباتشوف، ياروزيلسكي، هوستاك، جيفكوف، شاوشيسكو، جيريك، وهونيكر0

وكان أول ما قاله جورباتشوف للصحفيين الذين كانوا في انتظاره في مطار برلين الشرقية هو : "من يتخلف لابد أن تعاقبه الحياة" 0 وهي عبارة مليئة بكل معاني التحذير ويقول "هانز مودورو" (يكتب مودروف كثيرا خطأ) في كتابه "انطلاق ونهاية" هامبورج 1991 – أن "جورباتشوف" قد كرر نفس العبارة في الاجتماع المغلق للمكتب السياسي للحزب الألماني الذي ساده التوتر الشديد خلال زيارة "جورباتشوف" وحضوره للأحتفالات، أما في خطابه العام في الاحتفالات فقد كرر وأكد علي معني مختلف تماما حين قال : "أننا نأكد مرة أخري علي تضامن الاتحاد السوفيتي مع المانيا الديمقراطية، وندين أوبئك الذين يحاولون في الغرب انتهاز العمليات الجارية في البلدان الاشتراكية لتمرير اطماعهم في تغيير الوضع الراهن في أوروبا"0 وتضمن الخطاب عبارة أخري تلقفها الشعب الالماني بسرعة مدركا معانيها، ذلك حين خاطبهم "جورباتشوف" بقوله : "اذا أردتم الديمقراطية فخذوها بأنفسكم" ! 0

في ذلك الاحتفال ألقي "هونيكر" كلمة تقليدية عددت الانجازات، وحصرت عدد الوفود من الحاضرين واسترجعت كل المؤشرات الكمية علي النهوض الاقتصادي 0 وبدت علي وجه "جورباتشوف"خيبة الأمل الشديدة0

وفي مآدبة الغذاء التي أقامها هونيكر علي شرف كبار الضيوف، لاحظ الجميع أن "جورباتشوف" لم يعانق "هونيكر" كما جرت العادة،ولكنه عانق "شتوف" نائب هونيكر ليحول الانتباه علي "ايجون كرينتس" الذي جري اعداده ليشغل مكان "هونيكر" وفي تلك المأدبة أكد أعضاء المكتب السياسي لجورباتشوف أن التغييرات المطلوبة ستحدث0 واشارت الصحافة السوفيتية حينذاك اشارة مبهمة إلي قرب وقوع تعديلات في المانيا الشرقية

وفيمت بعد كتب " فلاديمير ماركوف" مراسل أنباء موسكو في المانيا : "علمنا من مصادر رفيعة في برلين أن شخصيين فقط كانا علي علم مسبق بما حدث وهما : "كرينتس"، و "شابوفسكي" المكتب السياسي0

وعندما غادر جورباتشوف المانيا الشرقية، جرت في اليوم التالي مباشرة المظاهرات الكبيرة في مدينة "دريذدن" وشارك فيها أكثر من ثلاثين ألف مواطن، يطالبون بتغيير القيادة، وبعدها بيومين في 9 أكتوبر جرت مظاهرة أكبر في مدينة "لايبزج" وشارك فيها خمسون ألف 0

ولأن التليفزيونات في المانيا الشرقية تلتقط بسهولة تامة ارسال التيفزيون الالماني الغربي، والاذاعات، جرت حملة اعلامية مركزة ليل نهار تدعو الشرقيين للثورة وانيل الحرية وتحقيق أحلام الشعب الالماني في الوحدة 0 وكثفت أجهزة الغرب كلها عملها في تلك اللحظة 0 وكان المستشار "كول" قد راهن بكل شيء علي أنه سيصبح زعيم المانيا الموحده0

وفي حديث لأحد ضباط المخابرات الالمان أدلي به للتيفزيون " "قال : " أن مبعوثا سوفيتيا كبيرا هو السيد "فالين" وصل بطائرة عسكرية مباشرة بعد انفجار المظاهرات والتقي بأعضاء المكتب السياسي وطالبهم الا يتعرضوابالعنف للمتظاهرين في المدن" 0 وهو الشيء الوحيد الذي قد يفسر الشلل الذي أصاب أجهزة الدولة في تلك الأيام، وأدي إلي تبديل طابع ومطالب المتظاهرين الذين خرجوا في الأيام الأولي من وسط القوي الديمقراطية والمثقفين والحزبيين الذين كانوا يبحثون علي ديمقراطية داخل النظام الاشتراكي 0 وبعد أسبوعين اختلف طابع تلك القوي وكان التليفزيون والاعلام الغربي قد استولي علي العقول وأصبح المركز الموجه للمظاهرات0

وعلي ةصف أحد الشهود كان " هونيكر" في تلك الأيام يبدو وكأنه غائب عن لوعي مذهولا ومرتبكا 0 وفي

السابع عشر من أكتوبر 1989 اجتمع المكتب السياسي برئاسة هونيكر لمناقشة الأوضاع الجديدة 0 وكان سبعة فقط من أصل ثلاثة وعشرسن عضوا بالمكتب يعرفون أن ذلك آخر اجتماع "لهونيكر" 0وكان الباقون يحسون أن لحظة التغيير الحاسمة قد حلت، وأن الأرض تميد من تحت اقدام النظام0

افتتح "هونيكر" الاجتماع 0 ويعد مقدمة قصيرة أخذ ينتقل إلي طرح جدول الأعمال، وقبل أن ينتهي من ذلك نهض "شتوف" نائبه الأول وقال دون أي مقدمات : "اقترح علي المكتب السياسي اعفاء الرفيق "هونيكر" من منصبه كأمين عم للحزب0"

وتطلع "هونيكر" إلي "شتوف" بذهول، ومرت لحظات ساد فيها الصمت، ثم جال هونيكر بغينيه في وجوه من عول علي دعمهم0 لكن أحدا لم يتطلع إليه0

كان "شتوف" عضو المكتب السياسي، والنائب الأول لهونيكر، ورئيس الوزراء وكان من وقع عليه الاختيار ليواجه هونيكر، والكان الرجل الذي حظي بعناق جورباتشوف، ومع أهمية دوره، فإن ذلك لم يرشحه لمصير أفضل من مصير المؤولين الاخرين اذ جري فيما بعد اعتقاله هو و "كيسللر" قائد الجيش وهما يحاولون النجاة والهرب بتهمة ملفقة وهي أنهما أصدرا الأوامر باطلاق النار علي المتظاهرين 0

واتفق في اجتماع المكتب السياسي علي انتخاب "كرينتس" أمينا عاما للحزب، وكان هو الاخر من الزعماء "القدامي – الجدد" اذ كان المسؤول عن تنظيم الشباب الالماني، ومسؤول عن بعض أجهزة الأمن0

ويدلي "جيونتر شابوفسكي" في الفيلم بشهادته، وكان عضو المكتب السياسي، والمسؤول عن العاصمة "برلين"، وفيما مضي رئيس تحرير جريدة "نيوز دويتش لاند"، يقول شابوفسكي أنه كان مكلفا بأخطر مهمة علي الاطلاق وهي تلمس الطرق لمعارضي هونيكر داخل المكتب السياسي،واعدادهم للحظة المناسبة، ويقول :

"كان علينا أن نحضر لتلك العملية بدقة بالغة، لكي تتم الاطاحة بهونيكر دون مشكلات 0 وكان علي أن أشكل الاغلبية مع مراعاة الحذر الشديد لكي لا تتسرب أنباء إلي هونيكر عن تكتل بستعد للآطاحة به"0

كانت موسكو تريد انقلابا ديمقراطيا وبهدوء داخل المكتب السياسي، ووافقهم "ايجون كرينتس" علي انقلاب يمسك العصا من النصف علي طريقة جورباتشوف، يصبح كرينتس وفقا له أمينا عاما للحزب، ويظل هونيكر رئيسا للدولة 0 ولكن كرينتس مثله مثل "شتوف" و "شابوفسكي" كان نقطة للتحول تمحي بمجرد انتهاء دورها 0 وقرر كرينتس أن يعقد مؤتمرا استثنائيا للحزب في 15 / ديسمبر / 89 ، لكن "شابوفسكي" قبل انعقاد المؤتمر خرج علي المتظاهرين أمام مبني اللجنة المركزية في 3 ديسمبر ببرنامج آخر كامل من ثلاث نقاط :

1) طرد هونيكر وشتوف وعدد آخر من اللجنة المركزية للحزب 0
2) تعلن اللجنة المركزية استقالتها بالكامل0
3) تقدم اللجنة التنفيذية السابقة تقريرا للمؤتمر الاستثنائي عن أسباب الأزمة0

وكان كرينتس مازال يتحدث عن أهمية التجديد من ناحية، ومن ناحية أخري عن أن "المانيا الشرقية كانت اشتراكية ويجب أن تظل اشتراكية، وكانت دولة ذات سيادة ويجب أن تظل دولة ذات سيادة 0 وفي 9 نوفمبر اعلن كرينتس عن فتح الحدود رسميا وسافر إلي موسكو للتشاور مع المركز ثم عاد إلي المانيا 0 وفي المؤتمر الاستثنائي انتخب "جريجور جيزي" المحامي الشاب أمينا عاما للحزب، وقرر تبديل اسمه إلي "حزب الاشتراكية الديمقراطية"0 وبعد ذلك سافر الأمين العام الثالث (بعد هونيكر و كرينتس) إلي موسكو في 2 فبراير 90 ليرجو جورباتشوف الايقبل بدخول المانيا إلي حلف الناتو 0 وقال جيزي لجورباتشوف في ذلك اللقاء : "لن تفهم كل القوي

التي ارتبطت بنا وبسياسة السلام موقف الاتحاد السوفيتي اذا استجاب للمطلب الغربي ودخلت المانيا الشرقية حلف الناتو" وكانت تلك آخر ومضة من احتمالات التغيير ولكن داخل الاطار الاشتراكي0

يقول أحد الشهود في ذلك الفيلم : "كان علي المخابرات السوفيتية التي وافقت علي زعامة "جورباتشوف" ورتبت للبيرسترويكا أن تقوم بنفس الدور في المانيا الشرقية 0 ومعروف للجميع أن "كريتشكوف" الرئيس الحالي للمخابرات السوفيتية، وكان في وقتها نائبا لرئيس ذلك الجهاز، قد زار المانيا الشرقية عدة مرات قبل الأحداث واجري أتصالات ومباحثات مع كثير من الشخصيات البارزة 0 ومعرف أيضا أن السفارة السوفيتية في برلين الشرقية كانت مركزا للتخطيط والنشاط وأن عددا من كبار المسؤولين السوفييت قد ترددوا عليها قبل الأحداث وخلالها منهم "فالنتين" و "بورتوجالوف" وغيرهما وأن أولئك المسؤولين قد رتبوا الأوضاع بعد دراسة دقيقة لما يجري والاحتمالات المختلفة0 لكنهم في موسكو لا يتعجلون الاعتراف بدورهم الآن"0

هناك شخصية أخري عامة هي "ماركوس فولف" الذي يعترف بدوره لصحيفة أنباء موسكو بعد وقوع الأحداث فيقول : "وصلت عام 1951 إلي دائرة التجسس السياسي الخارجي، وبعد عام واحد صرت نائبا لرئيس القسم في المانيا الشرقية، وكنت حينذاك في الثلاثين من عمري، وساعدني علي ذلك الارتقاء السريع أنني كنت شخصا مرغوبا من كافة النواحي بالنسبة للسوفييت، وساعدني موظفان سوفيتيان علي أن أكون رئيسا للإدارة العامة للمخابرات في المانيا"0

وكان "ماكوس فولف" أحد أهم الجواسيس السوفييت بعد الحرب العالمية الثانية، وتمكن من تنظيم شبكة تابعة للسوفييت داخل المانيا الاتحادية، وأدي الكشف عنها إلي فضيحة كبيرة واستقالة المستشار الاتحادي، "ويلي برانت" من منصبه حينذاك0 وظل ماركوس في موقعه في المانيا

الشرقية حتي عام 1986 0 ويقول ماركوس في ذلك الفيلم : "التقيت مع كريتشكوف بعد احالتي علي المعاش عام 1986 ، وكانت قضية المانيا هي محور حديثنا في ذلك اللقاء، وفي 86 توفرت كافة المعلومات الضرورية للسوفييت للقيام بالتعديل المطلوب 0 وانطلقنا في حديثنا مع كريتشكوف من أنه لا يمكن السماح بظاهرة من نوع ألبانيا مرة أخري في أوروبا 0 وطرح اسمان بديلان لهونيكر الأول هو "هانز مودرو" وكان سكرتير أول للحزب في محافظة دريذدن، ومعروفا بنهجه الاصلاحي والديمقراطي، والثاني هو ايجون كرينتس0 واعتبرنا أن "هانز مودرو" هو المرشح الأفضل0 ولكن كانت هناك مشكلة أنه ليس عضوا بالمكتب السياسي، أما كرينتس فكان عضوا بالمكتب السياسي كما كان يتمتع بثقة هونيكر 0 وكانت الفكرة الأساسية أن تتم ثورة هادئة، داخل السلطة نفسها، وعن طريق التصويت"0

وبعد انتخاب "جريجور جيزي" أمينا للحزب، أخذت قضية الوحده الألمانية تطرح بشده، خاصة بعد فتح الحدود بين البلدين، وانهيار سور برلين في 9 نوفمبر0 وطالب "جريجور جيزي"(مع السوفييت، بالمانيا موحده منزعة السلاح خارج الاحلاف واجري استطلاع للرأي العام في المانيا الشرقية كانت نتيجته أن خمسة وسبعين بالمئة من المواطنين الشرقيين ضد دخول المانيا الشرقية إلي الحلف الاطلنطي0

وبعد المطالبة بالمانيا المحدة خارج الحلاف، تبدل المطلب السوفيتي إلي شيء مضحك وهو أن تكون لا لمانيا عضوية مزدوجة، الشرقية منها في حلف وارسو، والغربية في الاطلسي، وذلك بصفة مؤقتة حتي ينشأ نظام أمن أوروبي مشترك بديلا عن الحلفين، أو ما قال عنه "جورباتشوف و شفير ناددذه" أ و "حلف الحلفين" ! 0

وفي تلك الشهور ناشد الكثيرون من السياسيين الالمان الشرقيين جورباتشوف ألا يقبل شيء من ذلك، وكان آخرهم "جريجور جيزي"المحامي الشاب والأمين العام لحزب الاشتراكية الديمقراطية حاليا والحزب الشيوعي سابقا0

وما بين أكتوبر 1989 ويوليه 1990، أي خلال تسعة أشهر قفز الموقف السوفيتي من : إننا ندين الذين يحاولون انتهاز الأوضاع لتغيير الوضع في أوروبا" وهي عبارة جورباتشوف في الاحتفالات بالذكري الاربعين إلي "المانيا موحدة ولكن منزوعة السلاح " إلي " المانيا ذات عضوية مزدوجة في الحلفين "إلي" المانيا الموحدة عضوة الناتو" وذلك في شهر يوليه 1990 عندما زار المستشار "كول" موسكو في 15 / 7 / 1990 ليعلن : "أصبح الطريق إلي الوحده الالمانية مفتوحا الآن"0

وبعد عودة كول إلي المانيا أوجز نتائج مباحثاته في ذلك اللقاء مع "جورباتشوف" علي الشكل التالي :

1) حصول المانيا علي سيادتها الكاملة بعد تحقيق الوحدة 0
2) اعداد معاهدة المانية سوفيتية ترتب انسحاب القوات السوفيتية خلال أربعة سنوات وتتحمل المانيا جانبا من تكاليف الاتحاد0
3) منح قرض قيمته خمسة مليار مارك غربي للاتحاد السوفيتي0

وكان المستشار كول في ذلك الوقت حاكما فقط لالمانيا الاتحادية، ولكنه تحدث باسم الالمانيتين معا 0 وقد أدهش الالمان الشرقيون أن يتحدد مصيرهم في اجتماع ثنائي بين جورباتشوف وكول، لم تدع إليه الحكومة الالمانية الشرقية 0 وأن تحسم قضية مصير دولة كاملة في غياب ممثليها تماما !0 وبل وفي مواجهة الاستفتاء الشعبي الذي أكد أن 75% من الشرقيين ضد الدخول في الحلف الاطلنطي0

وخرجت كافة الصحف الالمانية الغربية، والتليفزيون، بعنوان أساسي كبير : المارك الغربي قادر علي تحقيق أي شيء "ووصل الأمر ببعض معلقي التليفزيون حد أنهم حسبوا نصيب كل مواطن سوفيتي من القرض الالماني وكان ستة عشر ماركا غربيا !" 0

وحينذاك صرح "هانس مودرو" في حديث للتليفزيون إن "حكومة المانيا الشرقية لم تعد حكومة انتقالية تحضر للانتخابات ولكنها حكومة الاستسلام الكامل للغرب، فقد سلمت للغرب كل شيء، وكل ما كان يجب عليها حمايته من الغرب"0

وفي نوفمبر 1990 قام جورباتشوف بزيارة لألمانيا، الموحدة هذه المرة وعضوة حلف شمال الاطلنطي، ومنح في نفس السنة جائزة نوبل للسلام0

وعلي الرغم من الشهود الذين تحدثوا طويلا في ذلك الفيلم الوثائقي عن دور المخابرات السوفيتية في الاطاحة بهونيكر، الا أن هناك شاهدا اساسيا قبل ذلك الحدييث وبعده، وهو أن أجهزة الأمن الالمانية الشرقية لم تحرك ساكنا ولم تفعل شيئا لتمارس دورها الذي ترتب عليه وهو : "حماية النظام الاشتراكي"0 ومعروف تماما أن تلك الأجهزة وثيقة الصلة بأجهزة الأمن السوفيتية وتابعة لها فالسوفييت لم يدبروا انقلابا في المانيا الشرقية الا بالقدر الذي دبروا فيه انقلابا – إن جاز التعبير – في الاتحاد السوفيتي 0 كما أن تبديل قيادات دول أوروبا الشرقية كان استجابة لأزمة عميقة تبحث عن مخرج لها، في الاتحاد السوفيتي وفي المجر وغيرهما 0 وما جري من اطاحة بأولئك القادة في خريف 1989 كان ممكنا فقط علي أرضية الأزمة، وليس من خارجها0

ومع ذلك فهناك نقطتان يمكن التوقف عندهما والتفكير فيهما : إن مصير المانيا الشرقية قد حسم بعيدا عن شعبها بل وحتي دون دعوة حكومتها مما يخالف ما يقال عن "حق الشعوب في تقرير مصيرها" وأن جورباتشوف قد ضيع من العالم فرصة تحقيق فكرة حل الاحلاف كلها وبناء نظام أمني في اطار الأمم المتحدة أو اتفاقيات هلسنكي0

ولا يدري أحد الآن كيف يفكر هونيكر فيما جري وهو يعالج تحت حراسة في احدي المصحات السوفيتية 0000 أو كيف يفكر "كرينتس" و "ياروزيلسكي" وياكوش، وغيرهم

من الرجال الذين يطويهم النسيان والذين استبدلوا عند نقاط العبور خريف 1989 0

يوليو 1991

(19)
هل يقف السوفييت في طابور واحد مع

اسرائيل ونيكاراجوا ؟

في مدي الشهر وحتي يحين موعد مقالة اليسار، تتجمع لدي مادة غنية تغطي عدة قضايا متفرعة والمتنوعة عما يجري من تغييرات داخل الاتحاد السوفيتي 0 وعندما أنظر إلي كل تلك المواد أقع في حيرة ولا أدري بم أبدا 0 وأحيانا يسعفني الجهد والتركيز علي دمج الخيوط الكثيرة المتفرقة في نسيج واحد ذي معني ولون0 أحيانا تهرب الخيوط كلها من بين يدي وأحس بالعجز0

ولقد شهد الشهران الماضيان الكثير من التغييرات في عدة اتجاهات0 هناك المعاهدة الاتحادية، وقانون التخصيص، وقانون الاستثمارات، والحركة التي أنشأها "شفير نادذه" مع "الكسندر ياكفلييف"، وهناك أيضا لقاء لندن الأخير الذي لا يناقش المساعدات الاقتصادية بقدر ما يناقش اندماج الاتحاد السوفيتي في شبكة الاقتصاد العالمي الرأسمالي0

وسأشير إلي جوانب من تلك القضايا، مركزا علي حزب البيرسترويكا المعادي للحزب الشيوعي، باعتباره أول حركة سياسية كبري ذات وزن تنتقل بالبيرسترويكا من داخل

الحزب الشيوعي حيث نشأت، إلي خارج الحزب وفي مواجهته0

المعاهدة 00 والاشتراكية

وتبدأ المعاهدة من عنوانها تبديل اسم "اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية" إلي "اتحاد الجمهوريات السوفيتية ذات السيادة"، وتحذف كافة الأسس التي قام عليها الدستور الاتحادي القديم الذي أقر عام 1922 0 تسقط المعاهدة الاتحادية الجديدة ما بدأ به الدستور السابق وهو : "أن اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية هو دولة للعمال والفلاحين" وقفز فوق : "ان الأساس الاقتصادي للاتحاد هو النظام الاشتراكي في الاقتصاد"، وأن : "وللتملك الاشتراكي شكلان أما ملكية الدولة أو ملكية الكولخوزات" 0 وبذلك تهدم المعاهدة الجديدة الأساس السياسي (الاشتراكية) والاقتصادي (طابع الملكية) للدولة السوفيتية 0 وقد وافقت تسع جمهوريات علي المعاهدة ورفضت التوقيع عليها ست جمهوريات، ثلاث من البلطيق علاوة علي أرمينيا وجيورجيا ومولدوفا 0 وتسقط المعاهدة الجديدة أيضا دور الدولة في مراقبة وتطوير الاقتصاد واحتكار التجارة،وكان التوصل إلي اتفاق مع الجمهوريات بشأن هذه المعاهدة خطوة هامة لجوباتشوف في مسيرته نحو لقاء لندن، لأن الدول السبع الصناعية أصرت علي أن الحديث عن المساعدات الاقتصادية سيكون من قبيل الوهم ما لم يكن جورباتشوف قادرا علي تمثيل اتحاد له سوق واحدة وعملة واحدة0

وفي الوقت نفسه فإن المعاهدة والظروف العامة الاقتصادية والسياسية، قد قوت نزعات الاستقلال، ودفعت بعض الجمهوريات ذات الحكم الذاتي التي تقع داخل روسيا إلي ترقية نفسها إلي جمهوريات ذات سيادة 0 فقد رفضت "بشكيريا" و "تتارستان" التوقيع علي المعاهدة الاتحادية داخل قوام روسيا، وطالبتا بحق الانضمام كجمهوريات

مستقلة0 أيض أجل البرلمان الاوكراييني مناقشة المعاهدة إلي الخريف القادم0 ومن غير المعروف إن كانت المعاهدة ستكون بوابة تخرج منها الجمهوريات ليتفكك الاتحاد نهائيا، أم نافذة ديمقراطية يتجدد بها الاتحاد0

وقد أثار قانون التخصيص مناقشات واسعة في منتصف شهر يونيه، وطالب بعض النواب بالاسراع في حل القطاع الحكومي والبدء في التخصيص فورا، بينما اعتبر الاخرون أن ذلك خيانة للاشتراكية وتراجع عن مكتسبات ثورة أكتوبر الاشتراكية 0 وفي مؤتمر صحفي عقده الاقتصادي السوفيتي " يافلينسكي" والاميركي "اليسون" بمدينة "كامبريج"، ذكر الاثنان أن عملية التخصيص هي جزء من برنامج الاصلاح الاقتصادي الشامل الذي وضعه مجموعة من العلماء السوفييت والامريكان، وأن الخطوة الأولي في ذلك الاصلاح هي تنفيذ اتفاقية 9 + 1 ، أي المعاهدة الاتحادية التي اتفق جورباتشوف بشأنها مع قادة الجمهوريات التسع، ثم رفع الرقابة عن الأسعار واطلاقها، والسماح بتخصيص المؤسسات الصغيرة، والغاء التقيدات في مجال التجارة، علي أن يكون عام 1993 عام التخصيص الشامل0 وقد علق الرئيس "بوش" علي ذلك بقوله : "إن مشاكل السوفييت فظيعة0 ولكن لابد لنا أن نعرف كافة تفاصيل خطة الاصلاح قبل أن نوقع علي الشيكات" 0 وتعليقا علي برنامج "يافلينسكي" وجامعة "هارفارد" قال "بافلوف" رئيس الوزراء السوفيتي : "إن برنامج يافلينسكي بأكمله ينطلق من أن الغرب سوف يساعدنا بدون مقابل، ولكني لا أثق في ذلك0 بالأضافة إلي أننا سنضطر للوقوف في طابور واحد طلبا للمساعدات مع إسرائيل ونيكاراجوا 0 ليقف هناك من يشاء ولكن من دوني"0

ويطالب مشروع قانون التخصيص بإخراج ما بين اربعين إلي خمسين بالمئة من الارصدة الصناعية الانتاجية من مجال الادارة الحكومية، وذلك حتي نهاية عام 1992 0 علي أن تصل هذه النسبة إلي سسبعين بالمئة عند نهاية عام 1995 0 وعارض "ليجاتشوف" المشروع في البرلمان بعنف،

ودعا العمال لانشاء لجان للدفاع عن الملكية العامة الاشتراكية، وقال ان البرلمان لا يبت في قانون بسيط، لكنه قانون سيتيح للبرجوازيين الجدد المستثمرين الاجانب شراء المؤسسات في كافة فروع الاقتصاد0 أما النائب "نوسوف" فطالب بمحاسبة المسؤولين عن المشروع علي أساس أنه محاولة لقلب نظام الحكم 0 ومع ذلك وافق النواب علي المشروع، مع اضافة تنص علي ضرورة أخذ رأي العاملين في المؤسسات بعين الاعتبار قبل تخصيصها واحتجت – ربما للمرة الأولي – اللجنة المركزية للحزب الشيوعي علي المشروع وأصدرت بيانا جاء فيه : "ساهمت اجيال عديدة من المواطنين السوفييت في انشاء وخلق ممتلكات الدولة العامة، ومن ثم فهي ممتلكات تخص الشعب بأسره، ومشروع التخصيص لا يعني في الواقع إلا تحويل الملكية العامة إلي الملكية الرأسمالية مما يقود إلي اهدار المكتسبات الاجتماعية للكادحين0 وإن قضية بهذه الاهمية لا يمكن أن يبت فيها الا مؤتمر نواب الشعب بعد استفتاء عام" أما "جورباتشوف" فقد ادلي بحديث للتليفزيون قال فيه : " يجب أن تكون عملية التخصيص طوعية 00 البعض يتخيرون استئجار المؤسسات، والبعض يتخيرون الجمعيات المساهمة، أو التعاونيات، أو الملكية الخاصة"، مذكرا بملاحظة الاقتصادي المعروف "شاتالين" حين قال عن جورباتشوف : "أنه أعظم رجل سياسة عرفته روسيا، وربما يكون أعظم من بطرس الأول0 ويمكن مقارنة جورباتشوف فقط بالسياسي الفرنسي تاليران الذي قال : "لقد أعطي الانسان لسانا لحفي به أفكاره"0

ومشكلة مشروع التخصيص أن الدولة تفترض بعد انتهاء مرحلتي المشروع أنها ستحصل علي ربعمائة وخمسين مليار روبلا من السكان لقاء ما سيشترونه من مؤسسات 0 ولا يسع المواطنون السوفييت بطبيعة الحال شراء تلك المؤسسات أو دفع تلك المبالغ، ومن ثم فإن المؤسسات المعروضة ستكون من نصيب رأس المال الاجنبي من

الناحية الفعلية، مع نسبة صغيرة لمن راكموا رؤوس اموال في السوق السوداء السوفيتية0

وقد سبق ظهور قانون التخصيص قانون الاستثمارات الاجنبية الذي أقر في 29 / 5 / 1991 ثم أعقبه التخصيص 0 وقد عارض أحد النواب قانون الاستثمارات بقوله : "إنه يحول الاتحاد السوفيتي إلي مستعمرة وفي أفضل الاحوال شبه مستعمرة" 0 ويمنح ذلك القانون الأجانب والمستثمرين الحق في انشاء الشركات ةالمؤسسات برؤوس أموال أجنبية خالصة مئة بالمئة، كما يمنحهم حقوق الاستيراد والتصدير دون رخصة مع إعفائهم من الرسوم الجمركية علي ما يستوردونه، وإعفائهم من الضرائب علي ما يصدرونه0 وينص علي منح الأجانب حرية استثمار الموارد الطبيعية وانشاء المناطق الحرة (أنشئت بالفعل عدة مناطق مثل منطقة ساخالين وغيرها) 0 وفي معرض تقديم القانون قال "بافلوف" رئيس الوزراء : "يجب أن ترتبط عملية جذب رأس المال الأجنبية بعملية، فك وحل قطاع الدولة بشكل عضوي0 ويمكن بل ويجب علي رأس المال الأجنبي أن يساهم في تلك العملية (شراء قطاع الدولة) جنبا إلي جنب مع رجال الاعمال السوفييت" 0 ولا يدري أحد بالطبع كيف او متي ظهر رجال الاعمال السوفييت الذين يتحدث عنهم بافلوف باعتبارهم قوة اقتصادية ذات وزن0

وقد علقت صحيفة "سوفيتسكايا روسيا" علي كل ذلك في 30 / 5 / 1991 بقولها : "يبدو أنه حان الوقت لكي يقول الشعب السوفيتي بكل وضوح أن سيادة بلاده لا تباع"0

وتشابك السعي لتعديل شكل الدولة (المعاهدة الاتحادية) ومضمونها (الاستثمارات والتخصيص) مع سعي حثيث للإنضمام لعضوية "صندوق النقد الدولي" و "البنك الدولي" و "البنك الأوربي للآنشاء والتعمير"، تحت كافة الضغوط الأمريكية، وصولا إلي لقاء لندن الذي يعيد تشكيل أوروبا اقتصاديا وسياسيا علي نحو جديد باضافة العنصر السوفيتي إليها وقد صرح جورباتشوف قبل سفره إلي لندن بأنه يأمل أن ذلك اللقاء سينتقل بالعلاقة السوفيتية

الأوروبية من : "تنفيذ بعض المشروعات الاقتصادية إلي انضمام الاتحاد السوفيتي إلي الاقتصاد العالمي" 0 هذا عن مضمون لقاء لندن : الانضمام والدمج وليس المساعدات 0 وفي نفس التصريح أفلتت من جورباتشوف عبارة توضح قسوة شروط الانضمام، وذلك حين قال : "ومن الخطأ أن يتصور البعض إنني ذاهب إلي لندن لأركع علي ركبتي متوسلا لهم من أجل المساعدات !0

وفي كل ذلك، ولكل تلك المسيرة، نضجت الحاجة إلي "حزب للبيرسترويكا"، يعبر عنها، حزب لفكرة المعادية للحزب الشيوعي 0 فأعلن تسعة من كبار الشخصيات السياسية عن تأسيس : "حركة الاصلاحات الديمقراطية" علي رأسهم "شفير ناددزه" الوزير السابق، " والكسندر ياكفلييف" الذي يسمونه "أبو البيرسترويكا"، والاقتصادي المعروف "شاتالين" و "سابتشاك" عمدة مدينة لينينجراد، " وجافريل بوبوف" عمدة موسكو، والاقتصادي "بيتراكوف"، وغيرهم0 هناك اسم آخر لم يظهر بشكل رسمي وهو اسم "يلتسين" الذي دفع رئيس وزراء روسيا "إيفان سيلاييف" ونائب الرئيس إلي التوقيع مع المؤسسين، علامة علي وجود "يلتسين" في الحركة0

ولا يستبعد الكثيرون أن تلك الفكرة هي فكرة جورباتشوف نفسه وأنه المحرك الأساسي لها 0 فمثل هذه الحركة الديمقراطية (تجاوزا) ستضمن لجورباتشوف قوة ضغط داخل الحزب الشيوعي يواجه بها المحافظين 0 مما يأكد ذلك أن برنامج الحركة يشتمل علي كل ما تنادي به العقلية الجديدة من أفكار مثل : التغيير الجذري للنظام الاقتصادي، التطور السلمي للحضارة، النظام البرلماني، الخ0

وقد ظهرت تلك الحركة في لحظة كان الحزب الشيوعي فيها يعد برنامجه الجديد، الذي أدي لانقسامات عديدة أشار إليها السكرتير العام للحزب "ايفاشكو" حين قال : أن هناك انشقاقات كثيرة وتصدعا في الحزب، ولذلك يفترض من البرنامج أن يلم شمل الشيوعيين، وقد شهد الحزب تكتلات

متعددة مثل : "حركة المبادرة الشيوعية" 0 و "التيار الماركسي"، و "الحركة الديمقراطية للشيوعيين"، وأقامت حركة المبادرة الشيوعيةمؤتمرا لها في موسكو في أواخر يونيه طالبت فيه بإبعادجماعة جورباتشوف المعادية للشيوعية عن قيادة الحزب 0 وأشار البيان الصادر عن المؤتمر إلي أن : السياسة الغربية عن الشعب السوفيتي قد أدت إلي افقار الكادحين وتدمير الاتحاد السوفيتي كما أن تلك السياسة تقوم بمحاولات مباشرة لجعل البلاد تحت رقابة الدول الامبريالية، وبيع حرية واستقلال شعوب الاتحاد السوفيتي مقابل ضوضاء الدولارات الاميركية، وتمضي الأمور إلي حد الخيانة العظمي"0 وأكد زعماء الحركة نيتهم عقد مؤتمر استثنائي لهم في الخريف القادم0

أيضا عقدت "نينا أندرييفا" مؤتمرا لأنصار الاشتراكية الحقيقيين في مدينة "مينسك"، في منتصف الشهر الحالي، وأصدرت بيانا حول تشكيل مجموعة من البلاشفة داخل الحزب الشيوعي السوفيتي الذين يرون أنهم : ورثة الخط الثوري البروليتاري اللينيني في الحزب" 0 ووجه المؤتمر نداء إلي كافة الشيوعيين لسحب الثقة من جورباتشوف كسكرتير عام للحزب، والتكاتف للعمل من أجل : إحباط الخطط الاجرامية لبعث الرأسمالية في الاتحاد السوفيتي، التي ترمي لتحقيقها القمة التوفيقية الانتهازية في اللجنة المركزية"0

وعلقت وزارة الخارجية الأميركية علي انشاء حركة "شيفر ناددذه" الديمقراطية بأن : "حكومة الولايات المتحدة تدعم اشاعة الديمقراطيةوترحب بقيام الحركة الجديدة باعتبارها خطوة للأمام" 0 ولاحظ الكثيرون أن بيان حركة شيفر ناددذه لا يقطع صلة الحركة بالحزب الشيوعي السوفيتي، وتعليقا علي ذلك كتب "فلاديمير ليتوف" في "سوفيتسكايا روسيا" : تفسير ذلك بسيط للغاية 00 فالمجددون الديمقراطيون البواسل ليسوا واثقين تماما أن سفينة الحزب الشيوعي ستغرق في أعماق البحر 00 ماذا لو أنها نجت وانطلقت إلي الأمام مرة أخري؟ 0 وفي نفس

الوقت فإن اطالة الوقوف داخل سفينة الحزب، مع زعيم فقد ثقة الشعب، أمر محفوف بالمخاطر"0

وفي كل الأحوال، فإن البيرسترويكا المعادية للحزب الشيوعي، قد أصبحت بحاجة إلي حزب، ينظم ويقود عملية التغييرات السياسية والاقتصادية الواسعة التي تقع كل يوم0

أغسطس 1991

(20)

برنامج علي ورقة واحدة00

يعلن نهاية الصراع في الحزب !

في الثامن من أغسطس الماضي نشرت الصحافة السوفيتية البرنامج الجديد الكامل للحزب الشيوعي السوفيتي في ورقة واحدة0 بصفحتيها من ورق الجرائد، ولا أكثر0 العام الماضي أقر المؤتمر 28 وثيقة برنامجية يسترشد بها الحزب مؤقتا لحين اعداد برنامجه الذي نشر أخيرا 0 والفارق الوحيد بين الوثيقة البرنامجية (عدد اليسار السادس 1990) والبرنامج أن الأولي تخيرت عنوانا

لها "الاشتراكية الانسانية الديمقراطية"، أما البرنامج ففضل : "الاشتراكية والديمقراطية والتقدم" شعارا له 0 وأن الوثيقة كانت ومازالت تحفل بآثار الصراع الصراع بين مختلف القوي داخل الحزب، وبالاشارة للتيارات المتصارعة، أما البرنامج فخلا من كل هذا، معربا عن حالة من الاستقرار والركون لما يجري0

وتحدد المادة الأولي من البرنامج طبيعة الحزب بأنه : "حزب التقدم الاجتماعي والاصلاحات الديمقراطية، حزب العدالة الاجتماعية والقيم الانسانية حزب الحرية الاقتصاديةوالسياسة والروحية"0 ويشير البرنامج إلي أن الحزب : يسترشد في عمله بخبرة التطور العالمي التي أثبتت صحة طريق الاصلاحات، وفي هذه الظروف لا يحق لأي حزب سياسي مسئول أن يحاول إعادة بناء المجتمع بالقوة " مع أن خبرة التطور العالمي – حتي في حالة مثل ثورة يوليو المصرية – قد أثبتت صحة طريق الثورات 0 ومعايير التقدم بالنسبة للحزب هي القيم الانسانية العامة والمشتركة0 وهي قيم تحددها أمريكا كما تشاء في موقفها من العراق، وكما يحلو لها في موقفها من إسرائيل، ويحددها كل طرف كما يتفق له 0 فالعبارات العامة أخفت وتخفي دوما مصالح محددة لقوي محددة، ويقر البرنامج بأن التجربة السوفيتية فقدت المبادرة التاريخية واندفعت صوب الأزمة، وينتهي إلي أن : "حركة تاريخنا كله جعلت من البيرسترويكا ضرورة حياتية"0 وبعد حديث عام عن أهداف الحزب القريبة، في المجال السياسي والاقتصادي والعلاقات القومية والمجال الاجتماعي، يخصص البرنامج فقرة لموضوع : أية مصالح يعبر عنها الحزب 0 فيقول أن الحزب تأسس كمنظمة سياسية للطبقة العاملة ولكن : "تطور قوي الانتاج والتقدم العلمي والتقني قد أدي لتغييرات جذرية في الهياكل الاجتماعية بحيث أصبحت مصالح مختلف فئات العاملين تتضافر 00 ولهذا فإننا لا نحول حل المشكلات

القائمة أمام الكادحين بدلا منهم، لكننا سندعم مبادراتهم ومطالبهم القائمة علي أساس"0

لقد انتهت بذلك البرنامج محصلة الصراع داخل الحزب والتي عكستها الوثيقة البرنامجية لصالح "البيرسترويكا" بعد عام من التغييرات الهامة لم يستطع الشيوعيون المحافظون خلالها – ولو لمرة واحدة – أن يثبتوا أنهم قوة سياسية سواء في انتخابات رئاسة روسيا التي فاز فيها يلتسين، أو حتي انتخابات المدن التي فاز بعموديتها في موسكو ولينينجراد الاصلاحيون الجدد0 ولم يتمكن الحزب – بعد عام كامل وفي خلاله – أن يطرح برنامجا محددا لوقف التحولات، بالرغم من أن لديه منابر اعلامية مازالت حكرا له بالكامل بحكم تبنيها لموقفه، مثل صحيفة سوفيتسكايا روسيا، والمجلة العسكرية التاريخية، وغيرها0 ولهذا فان ما جري لم يكن انقلابا علي الحزب، الذي نص برنامجه الجديد علي أنه (أي حزب) كان المبادر إلي البيرسترويكا !0

كما أن الصراعات المختلفة داخل الحزب لم تكن صراعات من أجل الماركسية أو الاشتراكية، لكنها في أغلبها كانت صراعا حول مواقع الحزب من طرق الاستغلال الجديدة، ومواقعه من الامتيازات التي اعتاد علي الفوز بها بالطرق القديمة0

ويطرح شفير ناددزه في كتابه "اختياري" السؤال التالي : لماذا كانت القوي المحافظة تتهادن مع العقلية الجديدة طالما أنها كانت تزيح العراقيل من طرق العلاقة مع الغرب ؟ ولماذا لم يجرؤ أحد علي انتقاد العقلية الجديدة بأكملها 00 لقد بدأت الحملة علي السياسة الجديدة، فقط عندما أخذت تلك السياسة تمس المصالح القديمة ومحاورها في الداخل0

في صحيفة "كورانتي" يكتب د 0 فلاديمير كوسينكو عن الفارق بين التخصيص، وبين حل قطاع الدولة، فيقول : "صدر مؤخرا قانون علي مستوي جمهورية روسيا، وقانون علي مستوي الاتحاد، ويتعلق الاثنان بمسألة

تحويل ممتلكات الدولة إلي أشكال أخري من الملكية 0 وبينما يتضمن القانون الروسي نصا بشأن التخصيص، فإن القانون الاتحادي يتضمن نصا بشأن التخصيص من ناحية، وبشأن حل قطاع الدولة من ناحية أخري 0 لكن القانون الاتحادي لا يوضح أبدا ما المقصود بحل قطاع الدولة000 وليس ذلك من باب الصدف علي الاطلاق 0 والتخصيص يعني السماح للأفراد أو الجماعات بشراء حق ملكية ممتلكات الدولةبما في ذلك وسائل الانتاج 00 فما هو الفرق اذن بين التخصيص وحل قطاع الدولة؟ 0 الفرق في الحقيقة أن القانون الروسي عندما يتحدث عن التخصيص فإنه يحدد الجانب المالي في العلاقة بين الدولة التي تبيع، وبين المشتري، وشروط ذلك 0 أما القانون الاتحادي فلا يبت في تلك المسألة ويتركها غامضة0 لماذا ؟

هذا ل، القانون الاتحادي يسمح فعليا بالاستيلاء علي ممتلكات الدولة بمجرد عملية تحويل بسيطة في الهياكل الاقتصادية0 وهذه العملية هي ما يطلق عليه : فك وحل القطاع العام0 وفي هذا الاطار تجري عملية تغيير لهياكل الدولة التقليدية لتتحول تلك الهياكل نفسها إلي جمعيات وشركات مساهمة تستولي مجانا – عن طريق المنح – علي ممتلكات الدولة0 لكن عملية النهب هذه التي جرت في الماضي خلافا للقانون أصبحت تتم الآن علي أسس شرعيةوقانونية 0 وقد دقت وسائل الاعلام منذ فترة طويلة ناقوس الخطر، منبهه إلي أن عملية التخصيص تجري في بلادنا علي قدم وساق بصورة عشوائية، في شكل نهب ممتلكات الدولة0 والعامل المؤثر والفعال هنا، في عملية النهب هذه، هو قيادات الحزب والاقتصاد التي أكملت اعادة البناء بالانتقال من رفض الملكية الخاصة – لأنها كانما تنافي الخيار الاشتراكي – إلي الاستيلاء فعليا علي تلك الملكية !0

ويضرب فلاديمير كوسينكو مثالا بانشاء شركة : "الكترو ستال تياج ماش" التي قامت علي أساس تحويل مجمع

خكومي إلي مؤسسة مشتركة ذات شكل مختلط للملكية، بأصدار أسهم تمثل مجمل قيمة الممتلكات 0 ويتم انشاء الشركة وممارستها لنشاطها يناء علي الاقساط التي يدفعها المساهمون وهم : وزارة بناء الماكنات وتساهم بمبلغ يزيد عن 127 مليون روبل، والبنك التجاري بمبلغ مليوني روبل، والعاملون في المجمع بالممتلكات المحولة إليهم مجانا وقيمتها 55 مليون روبل0

والسؤال هنا : علي أي أساس حولت وزارة بناء الماكنات الثقيلة جزءا من ممتلكات الدولة لجماعة العاملين، بينما الوزارة لا تملك ولكنها تدير ؟ وكيف تصل حصة العاملين في أجهزة الوزارة إلي 69% من الأسهم، وعددهم لا يتجاوز بضعة عشرات من الموظفين، بينما يملك العمال ثلاثين بالمئة فقط من الأسهم، وعددهم يتجاوز العشرة الاف عامل ؟؟0

فالوضع اذن كالتالي : كان موظفو الوزارة فيما مضي يعيدون بحكم مواقعهم الوظيفية توزيع موارد الدولة، أما الان فإنهم ببساطة يدعون انهم ملاك القسم الأكبر من تلك الممتلكات"0

كانت البيروقراطية السوفيتية تخص نفسها بالجزء الأكبر من الأرباح، عن طريق التحكم في توزيع الموارد، وكان الحزب مقرا واسعا تتجمع فيه عناصرها الاقل وزنا، والآن عندما تطرح البيرسترويكا طريقا مختلفا تتولي فيه السوق توزيع الأرباح، فإن الحزبيين يتمسكون بالطرق القديمة المضمونة للحصول علي أمتيازاتهم، أو ينخرطون في التخصيص وحل قطاع الدولة0

والبرنامج الجديد، الذي مضت مناقشاته هذه المرة بهدؤ، هو تعبير عن اقتناع حزبي واسع بضرورة لفظ الطرق القديمة، والاتجاه بعقلية جديدة نحو سياسة جديدة0

ولهذا فإن الحزب عندما يتخلي عن برنامجه، ويقنع ببرنامج أقل بكثير من برامج الأحزاب الاصلاحية

الاجتماعية في أوروبا، فإنه في حقيقة الأمر يقنع بضرورة تبديل شكل وطرق ما يحصل عليه من امتيازات0

ولذلك فإن كافة بيانات الشيوعيين الرافضين للبيرسترويكا، كانت تتباكي علي "الدولة العظمي" التي تنهار، وعلي "الوضع الدولي"، وعلي "هيبة الجيش"، وكل الادوات والوسائل التي كفلت لهم فيما مضي حياة مرفهة علي حساب الناس0

وقد أدت قمة "جورباتشوف – بوش" في موسكو لاشعار الحزب بقوة جورباتشوف، واشعاره أن المد الغربي والمساعدات قادمة، فأصبح البعض يطالبون – في العلاقة مع أمريكا – بأن تعترف أمريكا بأن دول أوروبا الشرقية – ما عدا المانيا الشرقية سابقا – هي مجال للمصالح الحيوية السوفيتية0 مثلما كتب سيلانتييف في سوفيتسكايا روسيا، معتبرا أنه يدافع عن المصالح الوطنية للدولة السوفيتية في مواجهة المتخاذلين 0 فالمصالح الوطنية (!!) بالنسبة له تعني الحفاظ علي حق الدولة في اقتسام العالم، وما عدا ذلك فهو تفريط في الاشتراكية !0

وتنشر صحيفة سوفيتسكايا روسيا رسالة اخري لمجموعة الكتاب الروس الشرفاء المعروفين مثل فالنتين راسبوتين، وادوارد فالودين، ويوري بوندرييف بعنوان كلمة إلي الشعب، يقولون فيها : لقد وقعت الكارثة، اذ تتحطم وتنهار دولتنا وبلدنا بينما نحن نلتزم الصمت، فهل تحجرت قلوبنا ولم تعد فيها قطرة من الاعزاز لبلدنا ؟ ان بيتنا المشترك، بلدنا، تحترق من اركانها الاربعة0 ويتحتم علينا الأن أن نحاول اخماد الحريق ليس بالماء، ولا بالدموع ولكن بالدماء"0

ويتوجه الكتاب والفنانون الروس بندائهم الحار هذا لأبناء الشعب بدءا من الطلبة والجنود والمثقفين انتهاء بالفلاحين والعلماء وغيرهم0 لكنهم لا يشيرون لأي مخرج، ولا يقترحون أي شيء، ولا يرون حلا 00 متصورين أن

عدوانا يقع علي الحزب00 وليس أن الحزب هو – علي حد برنامجه الاخير – المبادر إلي إعادة البناء0

لقد انفض الحديث عن الحزب الشيوعي السوفيتي الرسمي، لكن الحديث عن الاشتراكية لم ينته 0 هل هناك أحزاب اخري مازالت تتمسك بالاشتراكية – ليس لان الاشتراكية تمثل مصالح خاصة بها – علي أساس قدرة تلك النظرية علي تقديم وتوفير حل اجتماعي وانساني يستفيد من خبرة الماضي ؟00

من دون طرح هذا السؤال ، ومن دون البحث عن هذه القوي، يصبح الحديث ناقصا، ويصبح كأن الطريق قد سد تماما علي التجربة، لكن هذه القوي اذا وجدت، فستوجد خارج ذلك الحزب الرسمي، وستوجد في مواجهته، والبحث عن هذه القوي، والتعرف إلي أفكارها لأمر ضروري، وإلا بدا وكأن هذه التجربة قد اغلقت هذا الطريق، أو كأن كلمة قد محت لغة بأكملها0

سبتمبر 1991

(21)
المدافع المصوبة

إلي أعلي

قبل أن يفيق أحد من نومه، كانت الدبابات الثقيلة تخترق شوارع العاصمة "موسكو" حوالي الرابعة فجر التاسع عشر، محتلة نواصي الشواع الرئيسية كلها، والساحة الحمراء، وشارع كوتوزوف، والمناطق المحيطة بالجامعة. ولم يكن أحد يري شيئا بعد. ولكن الشعور بأن الأزمة وصلت إلي أقصي مدي كان قد سكن النفوس التي لم تعد تعرف : إلي أين يمضي الاتحاد السوفيتي.. وما الذي يريده جورباتشوف ؟.

وكان فخ الاقتصاد العالمي قد اطبق علي جورباتشوف وسياسته. فقد تصور أن الغرب سيغمر الاتحاد السوفيتي بالسلع والمساعدات، ما أن يبدل السوفييت موقفهم السياسي والفكري والاقتصادي، وكان يتصور أن الغرب سيقبل بالمبادئ، ويعطي بدلا منها مساعدات. بينما كانت إزاحة المبادئ جانبا لا تعني لأمريكا إلا مقدمة – ليس للمساعدات – ولكن لتحويل الاتحاد السوفيتي إلي سوق لهاطبقا لاقسي شروط السوق العالمية. وقد انتبه القادة السوفييت لذلك مؤخرا.. حينما لم يصلهم شئ بعد ست سنوات من البيرسترويكا، وحينما كرر عليهم البيت الأبيض : التعديلات التي تجري لصالحكم أنتم، لا تتوقعوا مكافأة عما تفعلونه لصالحكم..

وكان جورباتشوف قد قطع شوطا طويلا في الطريق، حتي قيل أن إقالته هي بضوء أخضر منه، بعد أن أكتشف أن المساعدة الوحيدة التي ستقدم له هي مساعدته علي التقدم نحو النهاية، سياسيا، واقتصاديا.

وكانت تلك الحقيقة تتضح يوما بعد آخر، فقد تم الأعداد لمعاهدة تقليص الأسلحة الاستراتيجية قبل وفي ظل ومع انعقاد لقاء لندن للدول السبع، رغم ربط أفاق المساعدات بالتنازلات، إلا أنه لم يحصل علي شئ.. بإستثناء الآف الشركات الغربيةالاستثمارية التي ملأت التليفزيون والاذاعة السوفيتية بإعلانات عن سلعها وأسعار السلع بالدولارات.

كان خطأ جورباتشوف القاتل، وغلطته، أنه تخيل أن الغرب يريد مساعدته. أو أنه سيقدم له يد العون. وقد لامهم جورباتشوف – مفصحا عن مأساته – بقوله ذات مرة : لقد دفعتم في حرب الخليج مائة مليار.. هي كل ما يحتاجه الاتحاد السوفيتي الآن، فهل هذا كثير عليكم ؟

أما الغرب فكان يراهن علي دولة منقسمة ومفتتة وضعيفةتصبح سوقا هائلا له، ولا تشكل عائقا أمام طموحاته في العالم الثالث وأوروبا. كانت أخطر الخطوات في ذلك المجال هي المعاهدة الاتحادية الجديدة التي تلغي معاهدة عام 1922 التي يقوم الاتحاد السوفيتي علي أساسها. وكان المفروض أن توقع المعاهدة يوم الثلاثاء عشرين أغسطس. وبتوقيعها ينتهي مفعول المعاهدة السابقة وتصبح عديمة الأثر. أي ينتهي فعليا وجود الدولة السوفيتيةبخارطتها القديمة. أما المعاهدة الجديدة.. فلم تكن تضمن شيئا. اذ كان المفروض أن توقع عليها : روسيا، طادجكستان، بيلا روسيا، كازاخستان. أما الجمهوريات التي لن توقع عليها فتخرج من الاتحاد وينظر في طرق الانفصال. ولذلك أشار أحد الكتاب الصحفيين إلي أن المعاهدة هي : صلاة علي روح الدولة السوفيتية.

لقد تزامن الإقدام علي احدي أهم الخطوات (المعاهدة) مع ادراك القادة السوفييت لخطر تبدد الدولة نهائيا. ولهذا وقعت الحركة الجديدة (القديمة) قبل توقيع المعاهدة وزوال الدولة. فإستباق المعاهدة الجديدة يجعل تحركات القادة السوفييت شرعية، من زاوية أنها تنطلق وتتحرك علي أساس المعاهدة القائمة بالفعل.

وقد قبل "المحافظون" بالضربات المتتالية التي وجهت اليهم، وليس تجديدها علي أمل الخروج من المأزق الاقتصادي وتجديد الدولة الاتحادية، وليس تجديدها علي الطريقة الأمريكية، أي ابادتها والقضاء عليها.

وكانت الفرصة الوحيدة المتاحة هي الفرصة الواقعة بين يومي الاثنين والثلاثاء. هناك احتمال ضعيف لسيناريو التنحي، بحيث تسقط إمكانية توقيع المعاهدة، بانقضاء

يوم الثلاثاء، ثم يعود جورباتشوف وكأنما بضغوط شعبية، وهو ما يحاوله "يلتسين" وأنصاره. لكنها لعبة خطرة.

وقد حضرت أول مؤتمر صحفي للرئيس الجديد المؤقت ياناييف، وفي طريقي إلي المركز الصحفي رأيت الدبابات المنتشرة في كل مكان، المتخفية بين الأشجار، والتي لم تجد ما يدعوها للتخفي. وكان يتطلع من فوقها صبية في الثامنة عشر، من المجندين الجدد، يبدون أقرب إلي الصبية والأطفال منهم إلي جنود مستعدون لإحراق الأخضر واليابس. كانت فوهات مدافع الدبابات موجهة لأعلي إلي السماء.

وعند المركز الصحفي شاهدت عددا كبيرا من الدبابات تحيط بالمركز التابع لوزارة الخارجيةفي الليل، درت في الشوارع ، وشاهدت كثبان الرمل التي تسد الطرق،وعربات الجيش الضخمة التي قطعت الشوارع بالعرض.

وكان الجو كله، وهو ممطر، معبأ ومشحونا ومستعدا للانطلاق والانفجار.

واندفع الصحفيون إلي المركز الصحفي وسط الحراسة والجنود ورجال الأجهزة في أول مؤتمر للرئيس المؤقت، - والأرجح أنه مؤقت بالفعل – فلا شكله ولا هيئته ولا حديثه يوحي بالرئاسة. وعند المنصة جلس (من اليمين لليسار) باكلانوف نائب وزير الدفاع، ثم ياناييفثم وزير الداخلية بوجو ثم ستارادبوف رئيس اتحاد الفلاحين، ثم تيزياكوف رئيس هيئة الدولة للمؤسسات الحكومية، وكان علي وجوههم وجوم واضح.. وكان هناك شعور قوي بأن جورباتشوف بكل وزنه وحضوره غائبا. وكان هناك شعور آخر واضح أن الدبابات وحدها هي البديل الوحيد القادر علي ملء الفراغ الذي تركه ذلك الزعيم المتحدث والمقنع .

وقد تمسك ياناييف بقصة مرض جورباتشوف، وإن هذا واضحا لكم ؟.. وأشار ياناييف بالنسبة للمعاهدة الاتحاديةإلي أنه سيدير حوارا ونقاشا شعبياواسع حولها،

حوارا وليس استفتاء، أي نوع من الدردشة الصحفية الواسعة المخدومةبعدة رسائل من القراء من مختلف المدن، وقد أشار لوكيانوف – ويطلق عليه الشعب الروسي – "الذئب ذو العين الواحدة" في بيان خاص به بصفته رئيس مجلس السوفييت الأعلي إلا أن المعاهدةالجديدة لم تضع في اعتبارها أولوية المركز وقوانين الاتحادعلي الأطراف وقوانين الجمهوريات. كما لم تشتمل علي ما من شأنه تدعيم واستمرار السوق السوفيتيةالكبيرة الموحدة المشتركة، وإنه في اجتماع نوفواجاربوفا قد شرح كل ذلكلجورباتشوف والقادة التسعة لكنهم لم يأخذوا ذلك في اعتبارهم ولم ينعكس ذلك علي المعاهدة. أيضا أن المعاهدة لم تنطلق من الاستفتاء الذي اجري، والذي صوت المواطنون فيه لصالح استمرار الدولة الاتحادية الفيدرالية. فالمعاهدة تترك الباب مفتوحا للجمهوريات التي تريد الانفصال.

أيضا انتقد بافلوف رئيس الوزراء منذ يومين – قبل الحركة الجديدة – المعاهدة، وقيل أن لوكيانوف هو الرأس المدبر لكل تلك المعارضة الرسمية. وكان واضحا في إدارتهلجلسات مؤتمر نواب الشعب تحيزه للنواب المعارضين لجورباتشوف، وكان يخص المعارضين بفرصة الكلام أكثر من غيرهم. أيضا أشارت بعض المصادر إلي أن لوكيانوف هو الذي أوعز لبافلوف رئيس الوزراء حينذاك بطلب صلاحيات إضافية تناطح صلاحيات جورباتشوف .

وهل يكون لوكيانوف هو الرئيس الجديد؟ ولماذا من بين ستة بيانات رسمية فاز لوكيانوف ببيان لوحده عن المعاهدة الاتحادية ؟.

هناك سؤال آخر خاص بشرعية الحركة الجديدة.. وإن كانت القوة في التاريخ الانساني كله لاتعرف شرعية-فقد صدر البيان الخاص بإعلان حالة الطوارئ موقعا بإمضاء ياناييف، ياكلانوف، وبافلوف. بينما أصدر الكسييفلارئيس للجنة الرقابة الدستوريةبيانا يقول فيه : ان الحركة وحالة الطوارئ قد تكون شرعية اذا لم تخالف الدستور، ويضيف

: لكن إعلان حالة الطوارئ هو من اختصاص مجلس السوفييت الأعلي فقط دستوريا.

من ناحية اخري، المعروف أن جورباتشوف ليس رئيسا للدولة فقط، فهو كذلك سكرتير عام الحزب الشيوعي. فإذا جازت إقالته، أو جاز مرضه، كرئيس للدولة، فإن أحد لا يعفيه من منصبه الحزبي الا الحزب واجتماع اللجنة المركزية.

لكن الطوارئ، أعفت جورباتشوف من الدولة والحزب، وكان الحزب ببرنامجه العددمن اليسار – قد أعفي نفسه كحزبمن الوجود والتواجد. وأكدت الحركة الأخيرة، أن الحزب ليس موضوعا يمكن مراعاة شرعيته عند إقالة سكرتيره العام. فقد قفزت الحركة فوق الحزب متجاهلة إياه تماما، أو مدركة له ولحجمه تماما. وببرنامج الحزب الاخير، ثم بالقفز فوقه، تكشف السلطة عن أن الحزب كان ديكورا للقوي الحاكمة الحقيقية : الجيش والأمن والمخابرات.

لقد قضت الحركة الانقلابية أو الانعداليةتماما علي أي علي أي تصور عن وجود الحزب، وأخذت الدبابات تسيطر علي الموقف دون ديكور حزبي. وبذلك أصبحت الطوارئ تحكم دون سياسة، وسيكون من الغريب فيما بعد شد الحزب مرة أخري إلي الضوء.

وقد بدأت القيادة الجديدة ببرنامج يجمع بين الرغبة في إقرار الأوضاع والاستقرار، بعد أن أصبح المواطنون يحسون بإنفلات كل شئ من بين يدي السلطة، والاجراءات الاستثنائية التي تبعث علي الخوف. فقد اغلقت – إلي حين إعادة التسجيل – كافة صحف المعارضة، وبقيت فقط تسع صحف رسمية. كما أغلقت أيضا صحف رسمية أخري هثل أنباء موسكووغيرها، وبدأت الحركة بتعيين حاكم عسكري في موسكو ولينجراد وهما المدينتان الأهم في الاتحاد السوفيتي ومقر الحركات والمنظمات السياسية، وبدأت الاذاعة في اليوم التالي علي الفور تستدعي رؤساء الكلخوزات

ليتحدثوا عن : "عربدة الديمقراطية التي أدت لعدم جمع محصول القمح". أيضا منعت المظاهرات والاجتماعات وكافة الاشكال المشابهة للتجمعات .

عن البرنامج السياسي، فإن الحركة الجديدة قد ضمنت بيانها عبارات عن رفض لغة الإملاء التي يتعامل بها البعض مع الاتحاد السوفيتي، ومع كرامة المواطن السوفيتي التي أهدرت، وعن موجة الدعاية للجنس والعنف في الصحف والمجلات الاعلامية.

تكن ذلك التشدد اللفظي، قد يخفي وراءه مختلف الاحتمالات. وأولها أنه تشدد لفظي ولا أكثر : فالبرنامج الذي كلف به بيان الحركة الجديدة وزارة بافلوف، يدل علي الكثير من عدم الجدية. فحالة الطوارئ – كما أعلن حتي الآن – لن تستمر أكثر من ستة أشهر، وعلي الوزارة خلال تلك الفترة أن تقوم بما يلي (كما ورد في القرار الأول للجنة الدولة للطوارئ) :

1 – تأمين العمل بنظام صارم في مجال المواد الخام والعملة الصعبة ومكافحة تبذير ثروات الشعب. ومكافحة اقتصاد الظل والرشوة والمضاربة ومخالفات البيع والشراء.

2 – حصر جميع أنواع المواد الغذائية والاستهلاكية ومواد الانتاجخلال أسبوع واحد (ا)ويراعي بأهتمام بالغ تأمين احتياجات المدارس والمعاهد والمستشفيات ودور الحضانة بما تحتاجه.

3 – خلال أسبوعين... تنظيم رواتب مديري المؤسسات الحكومية والتعاونية ووضع خطط تنظيم الأسعار وتخفيضها، وتخفيض أسعار الخدمات العامة، ورفع المعاشات خلال أسبوع واحد (ا) وتخفيض أسعار الأكل في المطاعم.

4 – علي مجلس الوزراء أن يحضر – خلال أسبوع واحد-مرسوما خاصا بتوزيع حصص الأرض القابلة للزراعة علي ألا تزيد الحصة ثلث فدان للفرد.

5 – يضع مجلس الوزراء خلال أسبوعين خطة لإنعاش صناعة البترول وتأمين الوقود لموسم الشتاء المقبل.

6 – خلال شهر يضع المجلس خطة واقعية لحل مشكلة الاسكان لعام 1992 .

7 – علي هيئات السلطة بالمركز والمناطق الاخري تحسين مستوي الخدمات الصحية والتعليمية مجانا.

8 – اتخاذ كافة التدابيرالطارئة لتأمين جمع المحاصيل وتصنيع المواد الزراعية ومساعدة المزارعين بالآليات والوقود وقطع الغيار وارسال أعداد كافية من موظفي المؤسسات الحكومية والطلاب والجنود إلي المزارع لجمع المحاصيل.

هل يمكن لبرنامج النوايا هذا أن يكون برنامجا واقعيا؟ أو نصف أو ربع واقعي ؟ وهل مشكلة الاقتصاد السوفيتي – الذي يعيش الموطنون في ظله علي التبادل الطبيعي- هي في المراسم وهل يحقق بافلوف في أسبوع أو اثنين ما لم يحققه في خمس سنوات ؟

إن البرنامج الاقتصادي هذا، هو بالذات ما يثير سالمخاوف.

إن هذا البرنامج الاقتصادي الذري، هو الذي يكشف عن مدي جدية توجهات الحركة الجديدة. أما الخطاب السياسي لتلك الحركة فأمر قابل للمرونة وللتشددوالحلول الوسط. فليست اللغة هي التي تحدد الواقع، ولكن السلوك الفعلي هو الذي يكشف أما عن صدق اللغة أو عن الهوة الواسعة بين ما يقال ، وبين ما ينفذ.

إن الحركة الجديدة، وبياناتها، وحالة الطوارئ تكشف عن الأزمة الشديدة، وليس عن حل للأزمة. وتوضع البيانات التصور القديم الخاص بحل المشكلات من أعلي، وبالقرارات والمراسيم، وبمساعدة الجيش والانضباط الحديدي.

هل يمكن للحركة أن تعود بالاتحاد السوفيتي إلي ما كانت عليه الأوضاع قبل جورباتشوف ؟. هل يمكن لها أن تتقدم به إلي الأمام ؟.

لقد أمسكت لجنة الدولة للطوارئ بدقة الحكم بين يديها بقوة، ما لم يكن كل ذلك سيناريو جورباتشوف، يعود بعده جورباتشوف محاطا بالتعاطف. وبوسع اللجنة أن توفرأولا وضعا مستقرا في مواجهة الفوضي القائمة، ويمكنها – نسبيا – العودة إلي الوراء، خاصة أن إصلاحات جورباتشوف قد مست الوعي السوفيتي، وطالت القشور من المؤسسات والهيئات الحاكمة. وقد يكتب للطوارئ النجاح لسنة أو اثنتين إذا تمكنت – بفضل ما تتيحه المركزية – من حشد القوي لجمع المحاصيل والأنتاج. وإذا تمكنت من تحسين – ولو طفيف – لمستوي المعيشة. لكن ذلك كله حل علي المدي القريب، جدا. فقد رحل جورباتشوف وظلت الأزمة، صانعة الانقلاب، أو الانعدال.

وفي المؤتمر الصحفي أشار ياناييف إلي حرص القيادة الجديدة علي التزاماتها الدولية ، وعلاقاتها، وقال إن جورباتشوف هو مبدع الطريقالذي تمضي عليه. هل يعني ذلك ان الحركة الجديدة ستمضي في نفس الطريق مع محاولة تحسين شروط التعامل مع الغرب ؟ أي أن تمضي نفس العمليات لكن بمقابل أكبر.. أو بمقابل عموما. بدلا من المجانية الجورباتشوفية ؟.

لقد انتشلت القيادة الجديدة الاتحاد السوفيتي من فم الغرب في اللحظة الاخيرة، فهل انتشلته أم أنها تريد تعديل وضعه داخل نفس المكان ؟.

الناس البسطاء غير المبالين تقريبا بما يجري، إلا في حدود مخاوفهم من اندلاع صراع مسلحفي الشوارع، ومن زاوية : كيف سينعكس هذا علي الأجور والسلع ؟ هل تمضي للأفضل أم للأسوأ فالجمهور العادي مشبع بالأسئلة أكثر مما هو مشبع بموقف محدد.

ولكن قوي المثقفين والديمقراطيين تتحرك بقلق وسرعة وتلتف حول يلتسين وبياناته. ويطالب يلتسين

بمنح جورباشوف فرصة لمخاطبة الشعب عبر التليفزيون وقد اجريت هذه المظاهرات أغلبها من المثقفين والطلبة وأنصار الديمقراطية. وأضربت عدة مناجم للفحم، ووفقا لم صرح به نواب يلتسين فإن بعض الدبابات وقوات المظلات قد وقفت إلي جوار مبني مجلس وزراء روسيامعلنة عن تضامنها مع يلتسين وجورباتشوف. لكنها لم تزد عن عشر دبابات، وهي قوة رمزية.فإذا كان ما يجري سيناريو، فإن مقاوهة يلتسين سوف تتسع وتتزايد، وإذا كان ما يجري محاولة لاستباق انقلاب، ومحاولة لامتصاص انقلاب فسوف تتزايد حركة يلتسين وفقا للسيناريو المرسوم، أما إذا كانت الحركة حركة بالفعل فإن شيئا لم يستطع أن يتصدي لها، وستكون كل مقاومة هي تعبير رمزي إحتجاجي ضعيف الأثر.ذات مرة صرح جورباتشوف بأن البيرسترويكا هي محاولة لقد خطوبة الحرية علي الاشتراكية، لكن كل ما قام به هو افساح المجال للحرية في إطار التوجه الرأسمالي فهل تعود بنا الحركة إلي النظام السابقحيث لا حرية ولا اشتراكية ؟.. أم تعود بنا إلي الامكانيات التي يضمرها النظام وينطوي عليها أي : الاشتراكية.. تلك الاشتراكية فقط.. ؟.

هناك أمر أخر لا يمكن تجاهله، إن المواطن السوفيتي الذي اهينت كرامته سنوات البيرسترويكا، وجعلوه مادة لاشفاق الغرب، ومادة لمساعدات الغرب التي تركزت في حفلات دعاية لبعض أنواع البسكوت والحلوي للأطفال، هذا المواطن يحس أن عبئا – من زاوية كرامته الانسانية – قد رفع عنه. وأنه يسترد مواطنيته من جديد.

وقد ترحب أطراف عربية كثيرة بنبرة التشدد السوفيتي مع الغرب. فقد نظرنا دائما إلي الاتحاد السوفيتي باعتباره القوة التي تقدم المساعدات لنا، وتدعمنا سياسيا في المجال الدولي عسكريا واقتصاديا.

لكن البيرسترويكا طرحت بوضوح أهمية أن نري ذلك الدعم علي ضوء الموقف السوفيتي من الشعب في الداخل، الموقف من قضية الديمقراطية، والاحتياجات

المعيشية، وتوفير الظروف لازدهار حياة وكرامة الانسان السوفيتي.
وإذا كان جورباتشوف قد رحل بالفعل، فستظل له، أنه أفرد مساحة كبري للتعددية، والديمقراطية، التي يفترض أنها من صميم الاشتراكية، والتي لا تزدهربدونها أي نظم. فهل تحقق لنا القيادة الجديدة الحلم بأجمل ما قاله جورباتشوف وهو : خطبة الحرية علي الأشتراكية ؟.. أم ان القوي العارية في أي ديكور حزبي ستواصل تصويب المدافع من الدبابات إلي أعلي ؟.. هل نبتهج لما حدث ؟ هل نأسف لما حدث ؟ أم نواصل انتظار الامال الكبيرة ؟.

سبتمبر 1991

(22)
لغز الانقلاب

هناك سؤالا يتزعمان ويقودان جميع الاسئلة المحتشدة المتجفزة التي صعدت مع انقلاب أغسطس 1991 إلي القمة، ثم انحدرت بفشل الانقلاب فتواري بعضها في ظلمات السجون مع القادة الثمانية. ووجد بعضها اجابات لا تحتمل الشك. وانتحر بعضها مع انتحار "بوريس بوجو" "وزير الداخلية" "والجنرال اخروميف" مستشار جورباتشوف ثم "نيكولاي كروتشينا" مسئول شئوت اللجنة المركزية. أسئلة مازال بعضها يسعي بين الظل والنور وهي تبدل جلدها وتروغ من صيغها ونفسها. وهناك ما قال "جورباتشوف" – وبالاحري ما لم يقله – في

مؤتمر يوم الخميس 22 أغسطس حين خاطب الصحفيين بعبارة : "لن أقول لكم أبدا كل ما أعرفه" !

سؤالان يشدان الأبصار إليهما، وأيتما أمتد البصر يعود فيتوقف عندهما.

الأول : هل كان الانقلاب سيناريو محكما بدا كالحقيقة أم حقيقة تعذرت ولاحت مثل سيناريو مهلهل ؟.

ثانيا : ما هي طبيعة الانقلابالسياسية ؟ وطبيعة الانقلابيين.. وما الذي أرادوه ؟ وهل كان بوسعهم لو نجحوا أن يعيدوا الاتحاد السوفيتي إلي ما كان عليه قبل البيرسترويكا ؟.

****

استقبلت اوساط كثيرة ما جري في 19 أغسطس 1991 علي أنه عودة "الصقور" إلي السلطة، وعودة السلطة إلي النظام السابق، وإن ذلك محاولة لاسنهاض الدولة السوفيتية بتاريخها العزيزمن الركوع في الهاوية. لماذا استقبل الكثيرون الانقلاب علي هذا النحو ؟ وبهذه السرعة ؟.

السبب أن الناس كانوا ينتظرون، ويترقبون، بل ويتمنون في أعماقهم أن يرد أحد علي ما يجري. أيضا لأن قادة الانقلاب كلهم من المحافظين المتشددين.ويكفي أن يكون وسطهم "المارشال يازوف" . ولأن البيان السياسي للانقلاب : "نداء إلي الشعب" تضمن عبارات يذكر رنينها بلغة القوة والكرامة السابقة. أخيرا لأن انقلابا علي جورباتشوف لابد أن يكون انقلابا علي سياسته وبرنامجه في الداخل والخارج. وإلا فما سبب الانقلابوما هي دواعيه ؟..

ويحدث كثيرا أن يستقبل الإنسان أول طارق علي الباب باعتباره الشخص المنتظر والمرجو، لأن الأماني تشحن للإنسان برؤية ما يريده !

قدم القادة الثمانية وثيقتين اثنتين في التاسع عشر من أغسطس الأولي هي : "نداء إلي الشعب" وتضمنت ما يشبه البرنامج السياسي للحكم الجديد. والثانية وهي القرار الأول للجنة الطوارئ وتتضمن ما يشبه البرنامج الاقتصادي للقيادة.

ولا أود أن أبدأ من النهايات، لأقول أن برنامج الانقلابيين والانقلاب،هو برنامج البيرسترويكا نفسهالاوجورباتشوف شخصيا مع بعض التحفظات، وإن ما جري لم يكن انقلابا علي البيرسترويكا وإنما مخرجا لها. وإن كان ذلك هو التفسير الوحيد للغز الانقلاب. وسأبدأ من المقدمات، ليستنتج من يشاء ما يشاء..

ما الذي يطرحه "نداء إلي الشعب" ؟.

لا تزيد هذه الوثيقة عن توصيف الواقع الراهن في الاتحاد السوفيتي : "انتعاش السوق السوداء"، "حرب القوانين بين المركز والاطراف"، "مستوي المغيشة المتدهور" وكل ما تتضمنه يوميا عشرات المقالات الصحفية السوفيتية. هناك ثلاث عبارات فقط يمكنالتوقف عندها : "إنه لا يمكن الاعتماد غلي المساعدات الخارجية كحل"، و "ترتفع أصوات كثيرة تطالب بتجزئة الاتحاد السوفيتي"، و " إننا سنقطع دابر أية محاولة لمخاطبة بلادنا بلغة إملاء الشروط".

بينما أطاح الانقلاب بجورباتشوف، فإن وثيقة الانقلاب السياسية لم تحمل جورباتشوف ولو بكلمة واحدة المسئولية عما جري.. قيل فقط : " أن سياسة الاصلاحات التي بدأها جورباتشوف وصلت إلي طريق مسدود.. بفعل أسباب عديدة"، وليس بسبب قيادة جورباتشوف أو نهجه أو سياسته العقلية الجديدة، لا يهاجم النداء جورباتشوف لا يدينه ولا ينقض علي برامجه بحرف واحد. مع أنه قد نحي، وعزل، بعيدا في "فوروس" بالقرم. ولا يلجأ نداء القادة الجدد – ولو من باب السهو أو العادة القديمة – ولو مرة واحدة إلي معارضة سلطة وحكم جورباتشوف من أرض النظرية الاشتراكية، وإذغ أعاد أحد قراءة النداء فلن

يجد وسط سطوره كلمة واحدة عن الماركسية، أو الشيوعية. ولا يتضمن النداء حتي الاشارة إلي التقاليد اللينينية، كما أنه تجاهل تماما أي دور أو وجود للحزب الشيوعي ولو كديكور للإنقلاب، وفي بيان سياسي كهذا، لم يجد واضعوه مكانا أو مكانة للشيوعيين أو دورا.. فتوجهوا بندائهم لجميع مواطني الاتحاد السوفيتي.

وبذلك حرص القادة الجدد علي ألا يناقض خطابهم السياسي فكر البيرسترويكا، وحركتها، واتجاهاتهاالآنية والبعيدة. كما حرصوا علي عدم مهاجمة جورباتشوف ولم يكن ذلك تحوطا لشئ أو ظرف، ولم تكن تلك خطة للحركة علي المدي القريب..

ولم يكن القادة الجدد يريدون الاستيلاء علي السلطة، فقد كانوا أعمدة السلطة نفسها والقائمين عليها.. وليس من بينهم شخص واحد إلا وكان جورباتشوف هو الذي رشحه وهو الذي رفعه ودفعه لأعلي : المارشال يازوف، وكربوتشكوف، والأخرين.. ربما أرادوا الاحتفاظ بالسلطة وليس الاستيلاء عليها ؟.

العبارات الثلاث التي تفوح بعطر الصقور القدامي والدولة الشامخة لا تعني شيئا. فهي مقتطفات من النقد الذي تعرضت له البيرسترويكا كل يوم علي صفحات الجرائد، وفي البرلمان.. ولكنها مع ذلك تعكس التحفظات الأساسية للانقلابيين، وهي تحفظات لاعلاقة لها بذلك الطارق المنتظر والمرجو !.

الوثيقة الثانية التي اشتملت علي برنامج اقتصادي تجنبت أن تسترشد بحرف واحد من قاموس الاقتصاد الاشتراكي ولم تتحدث عن طابع الملكية العامة، أو علاقات الانتاج الاشتراكية. كما أنها هي الأخري لم تتعرض بشئلعلاقات السوق والاتجاه للاندماجفي شبكة العلاقات الرأسمالية العالمية واكتفت بتكليف وزارة "بافلوف" بعدة مهام معجزة لا يمكن تنفيذها، وأضافت إلي ذلك مصادرة كافة أشكال الحريات والصحف، دون أن

تفتح ولو ثغرةواحدة لصيغة ديمقراطية شعبية تمكن من إدارة أوسع حوار حول أزمة المجتمع السوفيتي.

لقد تم الانقلاب لفرض حالة الطوارئ، ليس إلا.. ولم يكن ذلك في مواجهة البيرسترويكا أو ضدها، وإنما كمخرج للأزمة، وللبيرسترويكا نفسها. ولم يكن جورباتشوف ضد مخرج من هذا النوع، وهي فكرة مطروحة منذ زمن بعيد في الصحافة والبرلمان والاوساط الحاكمة. فقد انفلتت الأمور وأصبحت أية خطوة من أي نوع بحاجة أولا وقبل كل شئالي سلطة تنفيذية قادرة علي وضعها موضع التنفيذ.

فما الذي قام به الانقلابيون ضد جورباتشوف ؟ بينما لن تتجاوز حركتهم فعليا إعلان حالة الطوارئ. كما حرصوا ألا يناقضوا خطاب العقلية الجديدة سياسيا واقتصاديا.. هل كان هذا الحل مناسبا لجورباتشوف ؟.. هل وافقهم جورباتشوف علي اعلان الطوارئن يتصيدهم بعد ذلك ؟.

هناك بلا شك صلةمن نوع ما بين جورباتشوف والانقلاب،خيط مشترك، قطعه جورباتشوف في لحظة مناسبة.

*****

في 19 أغسطس وقع انقلاب، ومساء نفس اليوم أعلن "ياناييف" في مؤتمره الصحفي الوحيد : "سيفهمنا الرئيس جورباتشوف، وسيكون معنا عندما يشفي"، وقبل المؤتمرأعلن قادة الجمهوريات ذات الحكم الذاتي : جورباتشوف علي علم بالأحداث، وسيلحق بنا فيما بعد"..

في 24 أغسطس ظهر "فالنتين بافلوف" رئيس الوزراء السابق علي شاشة التليفزيون بعد اعتقاله. ظهر أمام عدسة الكاميرا واقفا في ممر طويل شبه معتم، لاح عند نهايته باب مغلق وظل حارس. وتكلم بافلوف بصوت خافت، مذهول. كأنه قادم من عالم آخر، وتمتم بعقل صافي تماما: حالة الطوارئ نفسها ليست فكرة جديدة، فقد نوقشت إمكانية فرضها من قبل في الصيف الماضي

"وأضاف كمن يري عملا من أعمال السحر"، أعتقد أن هذه المجموعة دخلت في لعبة، دون أن تدرك أبعاد هذه اللعبة حتي النهاية".

ما هي هذه اللعبة ؟ مرة أخري هل كان الانقلابسيناريو محكما بدا كالحقيقة ؟ أم حقيقة تعذرت ولاحت مثل السيناريو المهلهل ؟..

لم يكن الانقلاب سيناريو، لأنه من المستحيل أن يقبل "المارشال يازوف"، وكريوتشكوف وياكلانوف وبوجو والاخرين بلعبة ينطلق من أسلحتهاالارصاص الحقيقي، وتكون المكافأة الوحيدة فيها لقاء الإجاد' هي الموت والسجون.

لكن الانقلاب أيضا ليس حقيقة، لأن الانقلابيين لو عقدوا العزم علي الامساك بالسلطة لما استطاع شئ أن يقف في طريقهم، وكانت معهم المخابرات والدخلية والجيش وهي الهيئات الحاكمة فعليا في الاتحاد السوفيتي.

الانقلاب اتفاق فسخه جورباتشوف في منتصف الطريق، اتفاق علي حل وسط بين المحافظين وجورباتشوف، وتركز أساسا علي المعاهدة الاتحادية، ومصير الدولة. فلم يكن قادة الانقلاب ضد السياسة الاقتصادية الحالية، ولا نهج العقلية الجديدة، ولكنهم أرادوا لكل ذلك أن يتم في اطار صيانه الدولة، كدولة ذات نفوذ وحدود، وليس في اطار الحفاظ علي الاشتراكية.

ولم ينكسر الانقلاب عند صخرة المقاومة الشعبية كما يقال، ولكنه انكسر عندما أحس قادته أن جورباتشوف فسخ الاتفاق، وأنهم وقعوا في المصيدة، ولذلك قدم المارشال يازوف استقالته يوم الثلاثاء.. بعد يوم واحد من الانقلاب، كما انه لم يظهر لا هو ولا كريوتشكوف في المؤتمر الصحفي الوحيد الذي عقده ياناييف يوم 19 أغسطس 1991 .

****

لماذا لم يكن الانقلاب انقلابا ؟

يكتب "فلاديمير مكسيموف" في الازفستيا 2 / 9 / 1991 متسائلا : "كيف يمكن تفسير أن قادة الانقلاب الذين وصلوا إلي إجراء متطرف كاعتقال رئيس الدولة، لم يقتربوا من ألد أعدائهم مثل بوريس يلتسين وياكقلييف وشيفرنادذه ؟ تري هل نسي فلاديمير كريوتشكوف رجل المخابرات الأول أبسط قواعد العمل وهو الرجل الذي شارك في القضاء علي حكومة المجر عام 1956 ؟ ويمكن طرح مثل هذه الاسئلة إلي ما لا نهاية".

زأضيف أن الانقلابيين لم يمنعوا وزير خارجية جمهورية روسيا أندريه كوزويف من مغادرة الاتحاد السوفيتي بعد يوم واحد من الانقلاب وتركوه يسافر إلي فرنسا لينظم من هناك حملة دعائية ضد المتآمرين؟ !.

ولكن هناك حقائق أكثر غرابة تنفي أن يكون الانقلاب قد حدث، إلا بأتفاق بين جورباتشوف وبين مجموعة الانقلاب.

ووفقا لرواية جورباتشوف عما جري له، فإن المتآمرين قاموا بقطع الاتصالات عنه عصر يوم الاحد 18 أغسطس . وأنه كان محاصرا في فوروس، ومعتقلا. ومن المستغرب أن يتم اعتقال رئيس الدولة في لحظات كهذه وأن يترك له المتآمرون حرسا شخصيا مكونا من أثنين وثلاثين حارسا مدربا يحيطون به ؟..

أيضا نشرت "الصحف المستقلة" مقالة يشير فيها كاتبها إلي أن فوروس لم تكن محاطة بأية قوات عسكرية من أي نوع، وذلك استنادا إلي مصادر م}كدة مطلعة. ونشرت "أنباء موسكو" رسالة من فالنتين زائين المدير العام لمجمع الاتصالات الانتاجي بلينينجراد، وهو أحد واضعي نظم الاتصالات في قصر جورباتشوف بفوروس، قال فيها :

قرأت في الصحف ما قاله الرئيس عن قطع الاتصالات عن بيته في فوروس، وأجزم لكم باعتباري خبيرا مختصا

إن عزل الرئيس بهذه الطريقة التي ذكرها جورباتشوف أمر مستحيل. ولا يمكن قطع الاتصالات عن جورباتشوف إلا بتدمير محطة الاتصالات الرئيسية، أو نقلها كما هي لمكان آخر، وهو الأمر الذي لم يحدث وفقا حتي لرواية الرئيس الذي لم يدع ذلك. وهذا لسبب بسيط أن وزن هذه المحطة يصل لمئات الاطنان. واعتقد أن الرئيس هو الذي رفض بمحض اختياره تلقي المكالمات. أيض ارجوأن تضعوا في اعتباركم أن بيت الرئيس في فوروس ليس مجرد بيت ريفي بسيط، فهو أحد نقاط ومراكز إدارة الدولة المنتشرة في البلاد. ويضم عدة محطات اتصال لا ترتبط ببعضها البعض. ويمكن فصل الكهرباء وحينئذ سيعمل مولد كهربائي داخلي" فإذا أمكن إتلاف المولد الكهربائي" فإن هناك بطاريات ضخمة لتشغيل الإتصالات، فإذا اتلفت البطاريات، يمكن مد شبكة الاتصالات بالطاقة عبر جهاز يدوي.. فإذا استحال كل ذلك لسبب أو آخر فإن هناك طريقة أخري لا يسعني الحديث عنها، لكنها لا تتطلب من الرئيس إلا أن يكون معهقلم وورقة بيضاء ليتصل بأية نقطة في الاتحاد السوفيتي كله". تفاصيل من هذا النوع كثيرة جدا..

في جلسة البرلمان الروسي التي حضرها جورباتشوف بعد عودته للحكم يوم 23 / 8 / 1991، قال له أحد النواب: "نحن علي قناعة تامة بأنك كنت علي علم بالانقلاب... فبل وقوعه، وقد أكد أناتولي لوكيانوف ذلك في مؤتمر صحفي بقوله "إن جورباتشوف وافق علي قوام لجنة الدولة للطوارئ".

ما رأيك فيما يقال من أنك كنت ستريح في الحالتين، فإذا نجح الانقلاب كنت ستظل رئيسا. وإذا فشل كنت بطلا حاول المتآمرون إزاحته ؟. والمغالطة الوحيدة في جديث ذلك النائب أنه ادعي أن المقاومة الروسية حول البرلمان هي التي أفشلت الانقلاب، وليس جورباتشوف نفسه الذي دبر الانقلاب، والذي أحبطه.

في 23 أغسطس 1991 تكتب صحيفة موسكو فسكي كمسموليتي : "أن مسرحية الانقلاب توحي بوجود يد لجورباتشوف فيهاولو بصورة غير مباشرة، فمسرحية كهذه ستضفي عليه صورة الشهيد وترفع أسهمه، ومن ناحية اخري فإنها ستمكنه من التخلص من خصومه".

ويكتب الكسندر بروخانوف في "كمسمولسكايا برافدا" في 3 / 9 / 1991 : "إن ما جري هو عرض من عروض السيرك ونتيجة لهذا الانقلاب المسرحي يتم تدمير الدولة السوفيتية بكاملها، ويجري تحت ستار الانقلاب المزعوم إنقلاب آخر حقيقي. ولو أراد الانقلابيون أن يقوموا بالاستيلاء علي السلطة فعلا كما يدعي البعض، لقاموا بعملهم كما ينبغي حتي النهاية".

وتكتب الكمسمولسكايا قبل ذلك 23 أغسطس 1991 : "تطرح اليوم مختلف الاحتمالات بصدد العلاقة بين الانقلابيين وجورباتشوف. ومن الواضح ان زمرة ياناييف قد خططت لاجتذاب الرئيس إلي صفها، لأنه لم يكن بوسع تلك الزمرة أن تحافظ علي علاقاتها بدول العالم من غير جورباتشوف".

وقع الانقلاب يوم الأثنين، ويوم الثلاثاء كان يلتسين يتلقي مكالمات خارجية من جورج بوش ، وجون ميجور، وميتران الذي استمرت المكالمة معه ربع ساعة ؟ أي إنقلاب هذا ؟.

والمفارقة الغريب الغريبة أن يصل القادة الثمانية إلي إعلان إنقلاب تؤكد كل تفاصيله وأحداثه أنه لم يقع ! .

أما عن حقيقة المقاومة التي يقال أنها تصدت للمتآمرين، تكتب الايزفستيا في 2 / 9 / 1991 : "لا يمكن ألا نلاحظ أن البلاد – ما عدا جزء بسيط من عمال المناجم- لم يستجب لدعوة يلتسين للاضراب العام. بل أن العاصمة نفسها استجابت بشكل مترهل لدعوة يلتسين، ولم يدافع عن الحرية إلا الأقلية السياسية النشيطة، ووفقا للأكثر التقديراتتفاؤلا فإن عدد الذين احتشدوا حول البرلمان

الروسي لا يزيد عن مائة ألف، مع العلم بأن سكان موسكو يزيدون علي ثمانية ملايين".

ولكني حضرت تلك الليلة التي احتشد فيها الكثيرونللدفاع عن البرلمان الروسي، ولم يكن العدد يزيد عن ثلاثين الف شخص، مات منهم ثلاثة أشخاص صدفة أثناء تراجع الدبابات التي وقفت هناك من دون ذخيرة أصلا، ويقول الكسند بروخانوف في مقالته السابقة : "من هم الذين دافعوا عن البرلمانالروسي ؟ شباب موسيقي الروك، المنتفعون الجدد من البيرسترويكا وأصحاب المشاريع الخاصة، الذين كانوا يشربون وراء المتاريس علب البيرةالالمانية ويدخنون السجائرالامريكية، واحدا بعد الآخر ثم مجموعة الساسة المحترفين الذين كانوا يتداولون الميكرفون واحدا بعد الآخر ويديرون المسرحية كلها".

أيضا أشاع يلتسين أن قوات من الجيش أنضمت إليه، لكن صحيفة كمسمولسكايا برافدا تنشر في 22 / 1991/8 حديثا مع الجنرال أندريه الذي قال "من الكذب الشديد الإدعاء بأن أية قوات من أي نوع قد أنضمت إلي يلتسين ، أو ساندته".

وتكتب الكمسمولسكايا برافدا في 1991/9/5 : "كان رجال الأعمال وأصحاب المشاريع الخاصة يحملون النقود للمحتشدين حول البرلمان الروسي، ووكانوا يحملون حقائب كاملة ممتلئة بمئات الملايين من الروبلات. ولم يكن ذلك عملا خيريا، فقد استثمرت تلك النقود في الدفاع عن الحرية، وكل ما أحاط بالبرلمان الروسي تم شراؤه بتلك النقود : الأسلحة والطعام وشاحنات الرمال".

أما الإيزفستيا فتنشر في 1991/8/23 أن البنك الاستثماري الروسي "انكومبانك" وظفاثني عشر مليون روبل للدفاع عن البرلمان الروسي وذلك بتوزيعها علي المتطوعين لشراء الطعام والميكروفونات والسيارات واليافطات.. ويساوي ذلك المبلغ من الروبلات بسعر السوق السوداء ثلاثة ملايين دولار، فإذا وزع هذا المبلغ

غلي ثلاثين الف مواطن بالعدل لكان نصيب الواحد مائة دولار مقابل ليلة "فنطزية".

فيما بعد خصص نفس البنك مليون روبل – بعد الانتصار – مكافأة لموظفي الداخلية ولجنة أمن الدولة والعسكريين الذين صمدوا في تلك الليلة وقاموا بحماية أكبر البنوك والمؤسسات الخاصة.

وبعد ذلك في 1991/9/12 صرح رئيس اتحاد المشاريع الخاصة في التليفزيون، بأنه لولا دعم الاتحاد ما صمد أحد دفاعا عن الحرية".

لم يفشل الانقلاب إذن بسبب المقاومة المزعومة. وقد أراد جورباتشوف أن ينبه يلتسين لعدم المبالغة في موضوع المقاومة فكرر علي في البرلمان السويتي :

"كانت ثلاث طائرات تكفي وتزيد لتحطيم كل شئ".

شئ اخير.. قيل أن الانقلاب فشل لأن المارشال يازوف رفض استخدام القوة وكرر علي زملائه : "لن أكون بينوشتيتي روسيا". قيل أن ضمير المارشال قد صحا، فلماذا لم يستيقظ ضميرهممن قبل حينماسحقت دباباته البشر في باكوو، ثم تبليسي، ثم فيلنوس ؟..

وإذا جاز لنا أن نتخيل سيناريو ما جري، لقلنا أنه كان هناك خلاف بين جورباتشوف والقادة المحافظين حول قضية أساسية هي المعاهدة الاتحادية، وكان معروفا أن هذه المعاهدة ستؤدي لهدم الدولةالاتحادية، وأن القادة الثمانية اقترحوا – وهو اقتراح وارد من قبل – فرض حالة طوارئ..

وكان جورباتشوف يعلم – مع اقتراب موعد توقيع المعاهدة – أن المحافظين سيحاولون إثارة هذه القضية بصورة أو آخري. وأنها ستكون موضوعاللمناقشة. وكان قادة الانقلاب – يوم الأحد قبل الأحداث بيوم واحد – لدي جورباتشوف في فوروس بالقرم، وكانوا علي أتصال به بعد الانقلاب بيوم واحد أيضا. فالاتصالات لم تنقطع بينهم.

والأرجح أن الرئيس أوحي إليهم بأنه لا يستطيع وحده مواجهة "الديمقراطيين" ، ولا يستطيع وحده مواجهة

الحركات الانفصالية، وأنه لابد من وجود قبضة قوية وسلطة ف علية"..

هذه كانت بوابه الاتفاق.. أن يعلن القادة برضي جورباتشوف، مع التلميح بإمكانية عودته وهو ما فعله ياناييف، علي أن يقوم القادة بالتخلص من الاصلاحيين الاخرين.. ثم يعود جورباتشوف بعد ذلك.

ولكن جورباتشوف بعد أن دفعهم إلي مصيدة الانقلاب.. اغلق الباب عليهم ربما تكون الأحداث قد وقعت بصورة مختلفة عن هذا التصور.. ولكنن غير ذلك نجد أنفسنا أمام ثلاثة احتمالات لا أكثر :

1) ان يكون ما وقع سيناريو.. ومن المستحيل أن يقبل القادة بدفع حياتهم ثمنا لسيناريو..
2) ان يكون ما وقع حقيقة.. وفي هذه الحالة كان لابد للقادة أن يسيطروا علي الموقف دون أي عوائق من أي نوع.
3) ان يكون ما جري سيناريو بالاتفاق مع جورباتشوف، اتفاق فسخه الرئيس في منتصف الطريق. وهو الارجح.. فاكتسبت الأحداث شكلها الغريب الذي بدت به ...

ولعل السبب في انتحار " بوريس بوجو " وزير الداخلية إنه أحس أنه خدع كما لم يخدع في حياته كلها. وهناك أسرار كثيرة منها ما لن يقله جورباتشوف أبدا، ومنها ما سيتكشف في التحقيق مع القادة، ولكن هناك سرا واحدا مذاعا ومعروفا إن الصراع لم يكن، ولم يدر أبدا بين الشيوعيين والرأسماليين.. ولكن بين المحافظين الذين يريدون للدولة أن تستمر كما كانت والاصلاحيين الذين يرون استحالة ذلك، وأن اتهام الحزب بالمشاركة في الانقلاب إتهام موجه لشخص لا وجود له.. كما أن الهجوم العنيف الذي انصب علي الحزب ليس موجها للحزب، ولكن للفكرة.. وليس موجها ضد الشيوعيين ولكن ضد الشيوعية. ولم يستطع الحزب أن يدافع حتي عن مقراته بمظاهرة واحدة رغم أن بطاقات العضوية التي

وجدوها في ارشيفه تصل إلي أربعين مليون بطاقة !. ولم يستطع الشيوعيون أن يدافعوا حتي عن متحف لينين عندما قرر الإصلاحيون تحويله لاغراض أخري، بينما وقف الفقراء في سلسلة بشرية أحاطت بالمبني دفاعا عنه.

****

19 كان جوهر وهدف الحركة التي عرفت بانقلاب أغسطس هو اعلان حالة الطوارئ، الفكرة التي ترددت طويلا من قبل. وطرحت هذه الفكرة علنا في البرلمان أكثر من مرة ووافق عليها المارشال يازوف وكريوتشكوف ويافلوف والآخرون. ولم يستبعد الكثيرون هذا الاقتراح باعتباره المخرج الوحيد من أزمة شلل السلطة خاصة في مجال الحركات القومية الانفصالية. وكان الواقع السوفيتي يطرح يوما بعد يوم انهيار السلطة المركزية. ولم يكن إعلان الطوارئمجرد إجراء تحسبا لاحتمالات المقاومة والتصدي للسلطة، فلم يكن بوسع أية قوة التصدي لأحد أقوي جيوش العالم وإحد أعتي أجهزة مخابراته. ولم تكن الطوارئ رد فعل علي حدث ما.. لكنها كانت هدف الحركة الذي قامت لأجله.

الأكثر من ذلك أن ميولا شعبية لا يستهان بها كانت تستسهل – في غياب الوعي – إعلان الطوارئ علي أساس أنه لابد من وقف الفوضي، والاقتتال بين مختلف القوميات، والخروج من دائرة الثرثرة البرلمانية إلي عمل محدد، وكان الروس يطلقون علي البرلمان : "المكلمة". ومن المفهوم أنه عندما ينعدم الوعي السياسي وخاصة في ظرف معقد، يتعلق الناس بقشة "السلطة القومية"، و"المستبد العادل" لا سيماإذا قارنوا بين الاستقرار الذي وفرته قبضة الحكم فيما مضي والفوضي والصراع الذي منحته البيرسترويكا إشارة العلنية. ولم تكن الميول الشعبية وحدها هي التي تستسهل مخرجا كهذا، لكن

أجنحة السلطة المحافظة أيضا في الجيش والمؤسسات العسكرية والبيروقراطية ومخزن مؤيدي الحكم الذي تصورناه طويلا حزبا بل واشتراكيا شيوعيا.

وأوهم جورباتشوف المحافظين أنه لا يري هو أيضا مخرجا إلا بإعلان حالة الطوارئ، في وضع لا ينكر الكثيرون انه محمل بكل عناصر الوضع الطارئ بالفعل. وكان هذا الحل هو المنقذ الوحيد من خطر تفكك وانهيار الدولة الاتحادية، بالنسبة للمحافظين.

ولكن جورباتشوف الاصلاحي الكبير، وزعيم التجديد، كان أبعد نظرا من المحافظين وأدرك أنه لم يعد ممكنا استمرار هذه الدولة علي الأسس التي حافظت عليها من قبل.

وقد دفع جورباتشوف إلي إدراك تلك الحقيقة، الوضع الذي وجد فيه نفسه، فقد أرغمه الغرب علي إدراك أنه لم يحصل مقابل التخلي عن لغةالشرق الفظة، إلا لغة الغرب العذبة، أما المساعدات والدعم الاقتصادي فإنها رهن بالتغييرات الحقيقية، وبالديمقراطية البرلمانية، وحرية الصحافة. ولم يكن بمقدور جورباتشوف رفض المساعدات والوعود بالدعم لأن ذلك يعني القبول باعدام أية إمكانية للإصلاحات، وبهدم برنامج جورباتشوف كاملا. وكان الغربقد الح طويلا علي ضرورة انفصال دول البلطيق، مع تغاضي الغرب نفسه عن مساعي الجمهوريات الاسلامية في آسيا الوسطي لنفس الهدف ونفس الاستقلال.

واستوعب جورباتشوف تماما أن التزامه ازاء الغرب بالتعددية الاقتصادية، والتعددية الحزبية يعني فناء الدولة الاتحادية، وشل قدرته علي توجيه الضربات للحركات القومية. وعمليا كان الموقف هو : أما نجاح الاصلاحات بدعم اقتصادي من العرب، وأما الدولة الاتحادية التي كانت عوامل التآكل تنخرها من داخلها. وكانت الحرب الافغانية قد كلفت الاقتصاد السوفيتي ستين مليار دولار، كما التهمت ربع مليون قتيل من الشباب السوفييتي، ومليون ونصف مليون قتيل من الافغان... وكل ذلك لاقامة الاشتراكية، أو بعبارة أدق لحماية حدود الدولةالعظمي

السوفيتية. وكان الجيش السوفيتي أيضا قد دخل في عدة صدامات مسلحة مع القوميات سقط فيها عدد كبير من الضحايا، كما تعرت فيها الدولة من أوراق التوت الفكرية التي أستخدمتها الدولة كيفيا كانت تريد، وبكل التفسيرات، في الداخل والخارج، بعد أن حنطت الدولة الماركسية ومن قبلها جثمان لينين.

وعند منعطف الاتحادية أو الاصلاحات تخلي جورباتشوف عن رفاقه، وإختار مواصلة الاصلاحات، بعد أن أصبح واضحا – إلا للمحافظين – المفارقة الغريبة التي تقوم عليها الدولة السوفيتية. فالانفاق السوفيتي العسكري يتجاوز انفاق الولايات المتحدة، علي التسليح بمرة ونصف تقريبا، بينما يختلف عنها في مجال الخدمات الطبية بمرتين ونصف المرة، وبينما استطاعت الدولة أن تحتل المرتبة الأولي في بيع الاسلحة في السوق العالمية للسلاح، وبلغت حصتهامن مجموع المبيعات ثمانية وعشرين بالمئة، احتلت هذه الدولة نفسها المرتبة الثانية والخمسين في العالم في مستوي معيشة السكان، والمرتبة الثانية والثلاثين من حيث متوسط الاعمار، والمرتبة الخمسين في نسبة وفيات الأطفال. وتخلت الدولة السوفيتية منذ زمن طويل عن أن تكون دولة عظمي بفضل مبادئها العظيمة، وتجربتها الرائدة، وواصلت بناء عظمتها اعتمادا علي السلاح النووي، والدبابات، والمدافع. وبمرور الوقت كان يتضح أكثر فأكثر ذلك الصدع والخلل الغريب بين القدرة العسكرية الجبارة، وبين الانهيار الاقتصادي والدستوري والديمقراطي والتكنولوجي.

لقد سقطت الاشتراكية تحت وطأة الدورع التي كانت تحمي الاشتراكية، لقد تزايد ثقل الدورع شيئا فشيئا حتي أنهكت من يحملونها، ووقع القادة السوفييت في خطأ قاتلحين ركزوا علي الدفاع العسكري عن التجربة، بدلا من الدفاع بازدهار التجربةإنسانيا وديمقراطيا، وتشكلت من ذلك الخطأ فئات واسعة عسكرية وصناعية تستفيد ليس

من الدفاع عن الاشتراكية، ولكن من الدفاع عن صناعة الدروع. وأدي هذا الحرص علي الاشتراكية إلي خنقها في الاربعينات والخمسينات.

وشكلت البيروقراطية نظاما اقتصاديا، ليس عيبه الأول أنه أصبح يقوم علي الاستغلال. ولكن عيبه الأول أنه لم يعد قاصرا علي الانتاج، ولعل الاتحاد السوفيتي هو البلد الوحيد في العالم الذي توصلت فيه البيروقراطية إلي رص الاختراعات العلمية الحديثة، والعلماء، في طابور أمام مكتب، انتظارا لحلول الدور لتبحث اللجنة في أهمية الاختراع العلمي فتسمح بتنفيذه !.

وأثناء أزمة الخليج دافعت أقلام كثيرة سوفيتية عن صدام حسين، وحاول البعض أن يجد له تبريرا لغزوه الكويت معللا ذلك بأن الكويت كانت محافظة عراقية ذات يوم، أما الأقلام الأخري الأكثر صراحة، فدافعت عن بيع السلاح للعراق وما يدره ذلك من دخل علي البلد.

ولكنا ظللنا طويلا ننظر إلي الاتحاد السوفيتي نظرة خاصة، لاختلاط نشأة الدول السوفيتية بالاشتراكية وبالثورة وبمثل العدالة والخير. وظللنا طويلا ننظر إليه نظرة خاصة لسبب آخر هو أن السوفييت كانوا القوة الوحيدة عالميا التي تصدت للولايات المتحدة والغرب الذي استنزفنا قرونا متعاقبة، وتمتعت الدولة السوفيتية باعزاز خاص في العالم الثالث، لانها مثلت لذلك العالم القدرة علي توجيه الضربات للدولة الأمريكية الهمجية. لقد خلقت المواقف السوفيتية في مجري الصراع السوفيتي الأمريكي اعزازا واسعا لتلك المواقف في العالم الثالث. الموقف من العدوان الثلاثي عام 1956 ، وعدوان 67 ، وغيره بالنسبة لمصر وبلدان اخري كثيرة، وفي نفس الوقت كانت مواقف سوفيتية أخري تثير البلبلة، مثل الموقف من الحرب العراقية الايرانية، والموقف من حصار بيروت، وغيرها، وكان من الممكن التقاط فكرة أن ما يحكم هذه المواقف ليس الصراع بين دولتين عظميين.

ولكننا بحكم التاريخ الاستعماري الغربي الطويل، وبحكم اختلاط بدايات الدولة الاشتراكية، بالدولة السوفيتية، وجدنا في أحلامنا نصيرا لنا، يوجه الضربات التي نعجز عنها إلي الاستعمار، بغض النظر عن دواعي تلك الضربات في الحقيقة. وغابت بديهية بسيطة وهي أن دولة تقوم بقمع شعوبها في الداخل، لا يسعها أن تحرر شعوبا اخري في الخارج.

وكانت الدولة السوفيتية تنمو يوما بعد يوم، وتنمو معها أزماتها، حتي كبرت الدولة علي الثوب الاشتراكي فتمزق من فوقها، ثم انهارت هي نفسها تحت وطأة، تناقضاتها.

وكان الصراع بين المحافظين – الذين يريدون استمرارية الدولة – بين الاصلاحيين وزعيمهم جورباتشوف. ولم بدر الصراع بين الشيوعيين والرأسماليين. فالمحافظون هم أيضا دعاة للنظام الرأسمالي، ولكن مع عظمة الدولة. وكانت منابر ومعاقل المحافظين الفكرية تتباكي – ليس علي الاشتراكية – ولكن علي الدولة كوجود ضخم، وجسم عالمي ذي وزن وثقل ومصالح. ولم تتمكن كل منابر المحافظين من تقديم برنامج عمل أو حركة للناس، رغم أن صحفا كثيرة كانت تقع تحت سيطرتهملامثل "سوفيتسكايا روسيا"، و "النجم الأحمر"، و "البرافدا" وغيرها.

في تلك المحنة، كان اليسار العربي، ويسار العالم الثالث، يهاجم البيرسترويكا مطالبا الاتحاد السوفيتي بالعودة إلي الاشتراكية، وحينما تدور المقارنة نظريا بين الاشتراكية وبين الرأسمالية، وبين الاشتراكية والبيرسترويكا، فمن الطبعي أن يقف اليسار إلي جانب الاشتراكية في مواجهة جورباتشوف..

ولكن المقارنة الحقيقية لاتدور بين الاشتراكية والرأسمالية. والمقارنة هي بين"تلك الحالة السوفيتية المحددة والمفلسة إنسانيا أولا وقبل كل شئ ، واقتصاديا، حيث انحط الاقتصاد إلي مستوي تبادل السلع

بالسلع، وتلك الحالة الرأسمالية الاخري التي – أيا كانت أزماتها وتاريخ بهبها للثروات – فإنها منتجة، ومثمرة، وذات نظام اقتصادي فعال.

وعندما نسقط المصطلحات، وعندما نسقط التسميات، سيتعين علينا أن نتخير بين نظامين أولهما رأسمالية حققت في تاريخ الديمقراطيةومماركمته من حقوق وصيغ برلمانية وحرية صحافة الخ، وثانيهما قام علي حكم شمولي مستبد، معتبرا أن تاريخ التطور الديمقراطي هو سمة برجوازية وأنوأن الديمقراطية القائمة علي التعددية الحزبية والبرلمانية هي نتاج الرأسمالية. علي الرغم من أنه في كل ما توصلت إليه الرأسمالية قسط من نضال انساني واسع سبقها وتخللها.

اننا إذا اسقطنا : "فكرتنا" عن الاتحاد السوفيتي، وتعاملنا معهلاباعتباره تلك الحالة المحددة، مقارنة بالرأسمالية، سنجد – وهنا سر الأزمة وسبب انهيارالتجربة – إن الرأسمالية قد حققت أكثر بكثير مما حققه الاتحاد السوفيتي.

وهناك سؤال واحد يمكن طرحه الآن :

هل لم يكن أمام الاتحاد السوفيتي في مواجهة أزمته طريق آخر إلا الاصلاحات والمضي علي طريق الرأسمالية؟..

نعم كان هناك – نظريا – طريق أخر. الوقوف لمراجعة التجربةتاريخيا، واحياء جوانب التجربة الفكرية، وإدارة أوسع حوار حول التجربة، ونشر الحريات الديمقراطية، والاعتماد علي الأساس الاقتصادي العريض من تصنيع وتأميم، واستجماع كل ذلك للمضي إلي الأمام.

ولكن ذلك الاحتمال نظري. لانه لا يوجد في الواقع قوة أو قيادة قادرة أو صاحبة مصلحة في هذا الاحتمال. فالجسم السوفيتي الاشتراكي الضخم، جسم بلا رأس.

وقد أكدت الأحداث الأخيرة ذلك، حينما نفي الحزب الشيوعي السوفيتي نفسه بنفسه من ساحة الصراع، ممالئا جورباتشوف، وساعيا من خلفه بذيلية. لم يتمكن

القادة الشيوعيون المعارضون مثل ليجاتشوف من فعل أي شئ، وأنتهي تاريخهم النضالي والحزبي بمجرد عزلهم و فصلهم عن مقاعد السلطة، وأنتهي تاريخهم لأنهم كانوا وظلوا مجرد موظفين حزبيين، دافعوا ويدافعون عن مصالحهم وامتيازاتهم.

ولذلك فإن الاختيار الحقيقي أمام الاتحاد السوفيتي هو : تلك الدولة، بمآسيها وأزمتها وانهياراتها الاقتصادية، أوطريق الاصلاحات الرأسمالية واشاعة الديمقراطية (التي يعرفها الغرب) داخل المجتمع السوفيتي.

ولهذا لم يكن الصراع بين جورباتشوف (حامل الفكرة الرأسمالية) والمحافظين (حملة الفكرة الاشتراكية).. ولكنه كان صراع بين جورباتشوف زعيم الاصلاحيين، والمحافظين قادة الدولة.

وعندما يتساءل البعض ألم يكن بوسع جورباتشوف أن يقوم إلا بما قام به ؟ ألم يكن أمامه طريق اخر ؟ فأنهم يضفون علي ما يقوم به جورباتشوف صفة التعمد والقصد والاختيار ويضفون علي البيرسترويكا صفة التعمد والقصد والاختيار. ولنا أن نتصور فرصة الاختيار القائمة أمام قيادة لا علاقة لها بالاشتراكية وهي تواجه مأزقا اقتصاديا عنيفا؟. وعندما نقارن بين الاحتمالات، فإننا – بحكم الواقع السوفيتي – لا نقارن بين : الاحتمال الاشتراكي للحل، والاحتمال الرأسمالي، واحتمال الدولة السوفيتية السابقة، كلا. إننا نقارن بين حالتين فقط : الدولة القديمة، أو الاصلاحات الرأسمالية. الاحتمال الاشتراكي احتمال نظري، ينبثق من أمانينا نحن، ومن رغباتنا نحن، ومن تاريخ طويل من معاشرتنا نحن لحلم أسقطناه علي الدولة.

وعندما نقارن بين الحالة السوفيتية المحددة، ونظامها الاقتصادي المحدد، وبين الاصلاحات الرأسمالية، سيضح لنا أن الأخيرة خطوة إلي الأمام ! بالقياس لفظاعة الوضع القائم، ولو كان الاختيار بين الاشتراكية والرأسمالية لاخترنا الأولي.

شئ آخر.. لقد أثارت البيرسترويكا الغضب، والاسف والاسياء المرير، ومن الغريب الا ينصب نفس الغضب والاسف بكل طاقته علي ما سبقها، اليس الاصلاحيون الذين نراهم اليوم هم شيوعيو الامس ؟. هل وصل جورباتشوف إلي السلطة من خارج الحزب الشيوعي ؟. هل كانت قيادة البيرسترويكا حتي المؤتمر السابع والعشرين عام 86 قيادة اشتراكية صميمة ثم تبدلت فجأة؟ اليس قادة تلك الاشتراكية هم انفسهم قادة هذه البيرسترويكا ؟..

ان الذين يقارنون بين جورباتشوف وبين الحالة السابقة عليه، يقارنون بين الشئ ونفسه في لحظتين، ويحاولون الفصل بين الصوت والنبرة.

وأتذكر الان أن أول مقالة كتبتهالاحول الوضع السوفيتي كانت عن المؤتمر السابع والعشرين للحزب عام 1986 ، ونشرتها الأهالي حينذاك، وكان يترأس تحريرهاحسين عبد الرازق، وأذكر حماستي في تلك المقالة للنافذة الديمقراطية التي فتح جورباتشوف ضلفها علي مصراعيها، وأذكر أيضا الأمل الكبير التي انتشلني حينذاك من الشكوك، وانني اختتمت تلك المقالة بعبارة "ان الحزب الذي فتح الأرض للاشتراكية يواصل طريقه العظيم".

الاكثر من هذا، إنني عندما أخذت اكتب رسائل موسكو لمجلة اليسار، كنت مازلت أحتفظ بالأمل، أو بأمل ما، ان يكتشف الواقع عن قوة قادرة علي صيانة ما تصورناه. وكانت البيرسترويكا قد اتضحت، أما تلك القوة التي تخيلت أنها كامنه في مكان ما فلم تكن قد عبرت عن نفسها، وكنت انظر لحظة خروجها إلي النور. لكن العام الاخير، والانقلاب بالذات، قد نحي جانبا كل شئ تقريبا، ما عدا التشبث الواعي بأن بناء عالم جديد لا يتم مرة واحدة.

وأذكر إنني عندما وصلت إلي موسكو عام 72 للدراسة في الجامعة، كنت مذهولا من الشوارع الضخمة العريضة النظيفة، ومن المظهر الخارجي للمساواة بين

الناس، ومن مجانية التعليم والعلاج والمواصلات، ومن الخبز الذي كان عمليا يوزع بالمجان في المطاعم.. ومن التواضع الشديد للمواطن السوفيتي للقياس لما أنجزه وحققه.

وكانت مظاهر الفقر – أو انعدام الرفاهية – واضحة، وكان العزاء الوحيد هو العدالة. وكنت اعزي نفسي بالحوار الذي دار ذات يوم بين أحد القادة الفيتناميين وأحد القادة الأمريكيين بعد تحرر فيتنام، فقد سأل الأخير :

الم تخسر فيتنام في صراعها مع أمريكا أكثر بما لا يقاس مما لو كانت قد طاوعت أمريكا ومضت في ركابها ؟.

وأجابه القائد الفيتنامي :

نعم لو طاوعنا أمريكا لكانت خسائرنا أقل بكثير جدا.. لقد انتصرنا فوق أرض مخربة وفي بلد تحطمت بيوته ومصانعه. لكن هذه المسألة لا تحسب بحسلب كهذا، فقد كسبنا حرية الإرادة أن نحيا كما نشاء نحن.

وكنت كلما لاحظت وجها من وجوه الأزمة السوفيتية أعود لاستند إلي هذه الفكرة، فكرة أنه لا يجب التوقف عند ظاهرة الفقر أو غيرها، فمن الأفضل أن يعيش الانسان فقيرا مع الشعور بأنه لا يظلم أحدا وبأنه ليس مظلوما، من ان يعيش ثريا وسط مجتمع من البؤساءلان الانسان لا يكون سعيدا وحده أبدا. وكنت أفكر أن الاتحاد السوفيتي كسب مبدأ ان يعيش بحرية وان يرسي علي أرضه ما شاء من المبادئ والمصانع ولو كانت متخلفة.

وكان والدي في بيروت حينذاك، وكتبت له رسالة اقول فيها : "إنني اعيش في المستقبل، وأكتب لك من أرض المستقبل، إنني اعيش الزمن الذي راود احلام المثقفين واليساريين من أبائنا".

لقد غاب الاتحاد السوفيتي، ومنيت الاشتراكية بهزيمة، ومع ذلك فإن هذا لا يعني أبدا أن الاشتراكية لم تنتصر. فقد انتصرت بالفعل ولو للحظة، ولو لسنة، ولو لعامين اثنين أو عشرة، لقد ولدت وماتت. المهم أن ذلك

المخلوق السياسي والاقتصاديلاوالانساني قد ولد مرة، وخرج إلي النور ذات يوم..

وسيظل محفوظا لموسكو وللتجربة التاريخية التي مزقت النسيج الرأسمالي العالمي ذلك الاعزاز العميق في القلب، طالما انه كان اعزازا – ليس للمدن والعناوين – ولكن للمبدأ، والفكرة، المبدأ الذي اطلق نفسه اسم "موسكو"، والذي تغنت به القصائد. ولازال حيا في ذاكرتي ووجداني صوت أبي الخير الجهير وهو يرن في أسماعي وانا صغير.

قيثارتي خفاقة بعواطفي
كالقلب ينبض بالدم الخفاق
واليوم يا موسكو جدلت وتارها
بمودتي.. وترنمت أعماقي
وعزفت حبي فاقبلي انغامه
هيمانه عربية الأشواق
تنساب من مهج الملايين التي
عشقت بطولة شعبك الخلاق
موسكو يغنيك التحايا شعبنا
وجراحنا المنزوفة الأعماق
واليوم، والغد في حياة بلادنا
وتراثنا في أمجد الأعراق،
ومواضع شهدت معاركنا، فما
نسيت ضحايا شعبنا العملاق
أغنيك يا موسكو وأجنحة السني
تهيم بطير الفجر فوق الأزاهر
وآه لهذا النور.. إني عبدته
وقاتلت كي يهفو- وحوش الدياجر
وكان بقلبي في المهالك قوة
تقيل عشاري تحت طعن الخناجر
وكان كأمي في خيالي تضمني
وتلثم في جسمي جراح الغوادر
أغنيك يا موسكو فتشفي مواجعي

وتصبح أنوائي عزيف قياثر
ويحلو غنائي كالغرام مع الصبا
وتفرح أحلامي وتصفو مشاعري
فأنت جبين سامق شع زهوه
جميلا، كزهو النور بين الدياجر

كتب أبي هذه القصيدة عام 1958 بعد رد العدوان الثلاثي علي مصر، و الانذار السوفيتي، وقد مر عليها الآن أكثر من ثلاثين عاما.. لكن زهو النور الذي حلمنا به مازال مشعا لا ينطفئ .

أكتوبر 1991

فهرس

مقدمة... ليست نهاية التاريخ تعلم
خسين عبد الرازق (7)
1) ما الذي تبقي من الحزب الشيوعي السوفيتي (14)
2) سبعون عاما يقولون لا للصهيونية (20)
3) ليتونيا الصغيرة إلي أين ؟ (26)
4) البيرسترويكا وثقافة الهدم (38)
5) حرائق الصراع السياسي علي طريق المؤتمر 28 (48)

6) إنقسام حول الاصلاح الاقتصادي (58)
7) المؤتمر الثامن والعشرون :
ما الذي قدمته البيرسترويكا (74)
8) قانون الصحافة الجديد بعد 73 عاما
من قانون الطوارئ (84)
9) هلنسكي.. علاقات القمة (90)
10) قصة (ابالكين) وقصة (شتاليني):
انقطاع الخيط الخير (104)
11) حزب نينا انديينا (120)
12) تبديل مناهج التعليم.. والاجيال الجديدة (124)
13) أشجار أعياد الميلاد (136)
14) الناس والفلوس والحرب والسياسة (142)
15) رصاصة الديمقراطية في الساحة الحمراء(154)
16) من 18 مارس حتي 5 أبريل (160)
17) عودة الوعي القديم (170)
18) نقاط العبور في خريف 1989 (178)
19) طابور واحد مع اسرائيل ونيكاراجوا ؟ (192)
20) برنامج علي ورقة واحدة..
يعلن نهاية الصراع في الحزب ! (200)
21) المدافع المصوبة إلي أعلي (206)
22) لغز الانقلاب (216)